HUZAMA HABAYEB

روايه
NOVEL





حزامة حبايب

قبل أن تنام الملكة





حزامة حبايب

قبل أن تنام الملكة





قبل أن تنام الملكة

قبل أن تنام الملكة / رواية عربيّة
حزامة حبايب / مؤلّفة من فلسطين
الطبعة الأولى ، 2011



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
عمّان 95297109 7 00962
لوحة الغلاف : **فيسلاف فالكوسكي / بولندة**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-175-4

الباب الأول

.. في الرحيل الثاني

- الساندويشة! الحقي الساندويشة! احترقتْ ساندويشتك يا جلالتك!

(٠)

لم أكن أحسب أن رحيلكِ للمرة الثانية سيعزّ عليّ كثيراً ، أكثر بما لا يُطاق من رحيلك الأول ؛ لم أقدِّر أنه سوف يُحزنني كلّ هذا القدر ، وأنه سوف يُسقم بدني وسوف يدوس على وجودي غير الواثق بخطوات ثقيلة متراخية ، كما سوف يحزّ في روحي أيما حزّ ، علماً بأني كنتُ هيأتُ نفسي ، الأمّارة بالقسوة والصلابة الظاهرية ، لرحيلكِ بأن افتعلتُ معك في الأيام القليلة التي سبقت الرحيل مشاحنات وملاسنات من النوع الذي ينطوي على حدّة متصاعدة من لا شيء ، وفظاظة عبثيّة مؤلمة ، واستيشاط في الغضب غير مبرر ، تكون تقريعاً للذات ، ذاتي أنا ، وإمعاناً في استنطاق الألم في القلب ؛ قلبي الذي شُحن سلفاً بأضعاف قدرته على استيعاب الغياب . كالمألوف ، قبل كل رحيل صعب ، نفضتُ مخزون غيظي من العالم عليك ، صببتُ قهري من ترتيبات الحياة المتعنّتة على ترتيباتكِ التي ترومينها بعيداً عن ترتيباتي . لقد جاهدتُ كي أحبّكِ أقل ، لكنني لم أستطع إلا أن أحبكِ أكثر .

- بكُرهك . ٠

قلتِ لي بصوت وشى بغضب وعينين نفثتا حنقاً حارقاً .

- «بحبِّك .»

همستُ في صدري ، وقد غطيتُ وجهي بكفيّ المرتعشتَيْن ، كي لا أراك وأنتِ تكرهينني .

ثم حين قُلتِ «بكْرهك» ، «بكْرهك» ، «بكْرهك» ، كازةً على أحاسيسك ، ضاغطةً على أسنانك (التي حرصتُ على أن أجرّك إلى طبيب الأسنان قبل يومين من رحيلك كي ينظّفها لك من الجير المستقرّ في الجذور ، بعدما وبّختك على عدم الاعتناء بها كفاية) ، سددتُ أذنيّ كي لا يتناهى إلى سمع روحي القلقة «بكْرهك» ثلاث مرات متتاليات مشفوعات ومعزّزات بانتفاضة جسمك اليافع ، الذي لم يتخلّص بعد من استهتار الطفولة بالقواعد المرعية لنظام أكل البالغين .

في رحيلك الأول ، بكيتُ بحرقة الغياب غير المجرّب ، غير المُعدّ له ، المفتوح على احتمالات الشوق غير المُختبرة من قبل . «كلّها كم شهر وأرجعلك» ، قلتِ لي وأنت تماحكين دمعة وقفتْ في طرف عينك . حين تعالتْ شهقاتي ، متداخلةً مع نداءات المطار الداخلية للمسافرين كي يلحقوا برحلاتهم ، حضنتِني متقمّصةً أمومة فتيّة ، مستعيرةً ذراعيّ الضاغطتين ، مغدقةً على جسدي ، الذي استنزفته أسابيع من التحضير لسفرك ، جسدك الملول الذي استعجل التملّص من عناقي ، قائلة بابتسامة فيها شيء من الاستهجان لبكائي الذي سبّب لك حرجاً وسط خلائق المطار الذين راعهم مشهد الوداع

الدراميّ المؤثّر : «أنا رايحة أدرس ، مش رايحة أحارب!» ثم حين تحرّرتِ مني بصعوبة ودلفتِ عبر بوابة ختم الجوازات ، ناولتِني من بعيد تلك الالتفاتة ، وتلك النظرة التي قصمتْ روحي أياماً . كنتِ خائفة ، خائفة عن جدّ ، لكن كبرياء الطفلة الهاجع في كَيانك اللطيف سرّاً ، الثائر علانيةً ، حال بينك وبين أن تقوليها : «أنا خايفة .»

في رحيلك الثاني ، بكيتُ بحماوة الغياب المجرَّب ، الغياب الذي استحلى فعلته ماشياً في طريق النأي ، غير ملتفت إلى الوراء ، ضارباً في عمق الحياة وعمق الأبدان وعمق الأرواح التي تتشهّى اللقاء ، متجذِّراً في العادية . وهو غياب لم أعتده ، واحتمالاته السادرة في اشتياق غير مُلبّى لا تبدو محتملة بالنسبة لي ، غير محتملة على الإطلاق . ابتلعتُ الشهقات التي صعدتْ بتعجّل من كوم مرارات مستقرّة في وديان نفسي . خنقتُها قبل أن تصل حنجرتي التي ضغطتُ عليها بشدّة . لكنني لم أستطع خنق دموعي فسالت ثخينة ، بطيئة ، سميكة ، ثقّلها حزنٌ خالٍ من شوائب الفرح ، حزنٌ من النوع الذي يتحوّل إلى حالة وحياة يومية . كنا في المطار إياه ، ولعلنا صادفنا الوجوه ذاتها التي لا تعلق بذاكرتنا كما لا نعلق بذاكرتها . فالمطارات هي مستودعات الغيابات والحيوات العابرة ، وما اللقاءات والعناقات فيها إلا انتصارات مؤقتة أو انعكاس لهزائم مسجّلة ، لأنه لا نصر حقيقياً ثابتاً إلا للرحيل . ما شجاني هو أن وجهكِ التفتَ إليّ أقلّ ، والتفتَ إلى بوابة

عبور الجوازات أكثر . وإذ لم يتوقف دمعي عن الانهمار ، رميتِني بنظرة عتاب طفلة كبرتْ قليلاً فقط ، ممزوجة بمسحة صلابة ، قائلة : «كلها سنة وأرجعلك .» كيف يستطيل الرحيل أكثر ، لكن فكرته تبدو مع ذلك معقولة ، أقل إيلاماً؟! ليس لأن الرحيل الأول كان أقل لوعة ، بل لأن الرحيل الثاني ذا الغياب المرشح لعام يُتوقّع أن يكون عادياً . أيمهّد رحيلٌ لآخر؟ أنتدرّب على رحيل أقصر لنحتمل رحيلاً أطول؟ أم أننا نحترف الرحيل كما احترفنا العيش في مدن ليست لنا وأوطان لغيرنا تلفظنا متى ما ملّتْ منا؟ هل قلتُ لك من قبل كم تغيظني عبارة «آن أوان الرحيل» التي أقع عليها في قراءات تعيسة لا معنى لها؟! كأن الرحيل ، كما يُفترض به ، له أوان . الرحيل يا صغيرتي لمن مثلنا ولمن على شاكلة لجوئنا المتوارث أوانه العمر ، وقد يزيد عليه ويفيض .

أردتُ أن أستبقيكِ في مساحة الوداع الملتبسة في المطار أطول وقت ممكن ، في حين أردتِ التواري في البعاد سريعاً ، مصغيةً إلى النداءات التي تستحثّ المسافرين للحاق برحلاتهم أكثر ممّا كنتِ تصغين إلى نصائحي المُعادة للمرة المليون بعد المليون ، ولعباراتي الكثيرة المتقطعة اللاهثة ، غير المرتبة ، التي كانت تسقط مني مبعثرة على الأرض في كل الاتجاهات ، فأحاول جمعها وتصفيفها عبثاً . لم يكن كلامي في النزع الأخير لما قبل رحيلك مقصوداً لذاته ، بقدر ما كان تغطيةً على تداعٍ وشيك جداً كان يتسرّب إلى مفاصلي ويحتّ فيها بتسارع

مطرد . أعتقد أنه لسبب ما له علاقة بخبرتي العريضة في استدراج الأحزان والحنوّ عليها واعتياد العيش في مناخاتها المحبطة والمثبطة لم أتداعَ . رجلاي حملتاني حتى مشهد الفراق المنتظر عند بوابة ختم الجوازات . «لا تبكي!» قلتِ لي . «حاضر» ، هززتُ رأسي ، لكن دموعي لم تُصغِ لك . «بحبك» ، قلتِ لي ، وعانقتِني خطفاً . «بحبّك أكثر» ، قلتُ لكِ محاولةً أن أستبقي عناقك . ابتعدتِ . انتظرتُ منك التفاتة توقعين بها لوحة رحيلكِ الثاني كالتفاتتك في الرحيل الأول . لكنك لم تلتفتي ، ولم ترسلي ولو نظرة أتعكّز عليها في تغرّب أيامي وتشرّقها . سعيتُ إلى إقناع نفسي ، من باب تصبيرها على عدم التفاتتك غير المتقصّدة على ما آمل ، بأنك لعلك «أسلمته المحاجر» من بعيد . .

حين وصلتُ البيت ، أغلقتُ الباب ، أدرتُ مفتاحه مرّة ومرتين ، ثم أسندتُ ظهري عليه ، وأسلمتُ روحي للتداعي .

أصطدم برائحتكِ العابثة في البيت . أنصتُ إلى حكيكِ الذي لا يريد أن ينتهي ، ثم فجأة تختفين ، تماماً كما كنتِ تراوحين بين الظهور والاختفاء ، إذ نحكي في المطبخ بينما تعدّين لي كوب شاي بالنعناع . أكون أبحث عن شيء في إحدى خزائن المطبخ حين أرفع رأسي فلا أجدك ؛ فقط الطرف الأخير من حكايتك غير المنتهية يكون معلقاً بميدالية الشاي الغائصة في الماء الحار الموشى بأوراق النعناع بهية الاخضرار . ثم أسمع صوتاً أو ما يشبه مجموعة من الأصوات المتشابكة

بانفعال . فأتخيلكِ تمارسين حكياً حميماً مع خيالك النطّاط .
أنت لا تعرفين أني راقبتكِ مرات في تجليات اختفائكِ المباغت من وسط حكينا . في مرة ، كنتِ كما لو أنكِ تتحدثين مع أحدهم في الفراغ الواقف قبالتك ، ثم انقلبتْ عيناكِ وانتفض رأسك كأنك سمعتِ قصة رُمتها بشوق ، أو تعثرتِ باكتشاف عظيم ، فدُرتِ حول نفسك تريدين تطويق المفاجأة التي ألمّت بك كي لا تطرق كياناً آخر ليس لك . وفي مرة ، وقفتِ على نافذة غرفتك برأس أملتِه إلى الجنب ، مترنّمةً بأغنية لها أصداء غافية في نفسك ، كعجوز تغرف بحذر وانتقائيّة من مذكراتها السرية .

أضع يدي على خدي ؛ «نسيتِ شبشبك الفلّيني المريح» ، أقول لنفسي . بقايا شراب ترنّح في كوب وقف على حافة مكتبك . لقد أدمنتِ الشاي البارد بنكهة الخوخ . قرطكِ الفضي الصغير متروك على طاولة الكمبيوتر . لطالما كرهتِ الأقراط من صغرك . في كبركِ ، غير الكبير تماماً ، ما زلتِ تقاومين إضافة أية تعديلات أو زخرفات على إطلالتكِ النقية ذات التشكيل البنّاتي الطازج الزاهد بترف التصنّع ، الرافض لكذب الكبار التجميلي . للآن ، تكافح إيفي ، خبيرة نتف الشعر الهندية ، لتثبيتك على كرسي التزيين في صالون التجميل كي تشذّب شعر حاجبيك المتروكيْن للطبيعة ، فترفسين وتنتفضين وتطلقين سيلاً من الشتائم ، الخارجة من قاموس غضب الطفولة ، بحقّ المسكينة إيفي : «يلعن أبوها ،

انشالله تموت!» تضحك إيفي التي تستشعر انتفاضتك على الكرسي ثم تحيط بكفيها وجهك الجميل المحمرّ من الحنق وآلام نتف الشعيرات الحساسة . اشتريتُ لك أصابع أحمر شفاه وردية وأخرى شفافة لمّاعة ، فقط لحماية شفتيك سريعتي التشقق بسبب الجفاف ، أو لإضفاء مسحة من لون وبريق عليهما ، لكنك لم تستخدميها وتركتها لتتنشف . اشتريتُ لك مجفف شعر وفراشي تصفيف ، لكنك تركتِ شعرك بعد الحمام للهواء ، حتى إذا ما ثار وهاج ، ربطته دون تمشيط على هيئة ذيل حصان غير مشذّب ، أو ضفرته على عجل في جديلة لا هي في الوسط ولا هي في الجانب . جلبتُ لك دبابيس وبُكلاً وشبرات ملونة وأمشاط تثبيت مرصعة بالخرز والحجارة الكريستالية ملأتِ بها أدراجك لكنكِ اكتفيتِ بالدبابيس المعدنية السوداء ترفعين بها خصلات شعرك كيفما تأتّى ، فلا تسمحين لخصلة متمرّدة بأن تعوق عينيك عن الزحف المتأنّي فوق لوحة بريشة فريدا كالو في مجلد أعمالها الذي ترفضين إعارته حتى لي ، أو بينما تستطعمين مذاق عمل لآندي وارهول في المجلد الضخم الجسور الذي أهديتُه لك في عيد ميلادك الثامن عشر .

لم تخف رغبتكِ في اقتناء الكتاب - المجلد الهائل الذي حمل عنوان «العملاق» ، معترفةً بجذل أنه يقارب نصف قامتك ونصف وزنك . تسربتُ إلى مكتبة السوق ذات مساء دون علمك . راعني حجم «العملاق» كما راعني ثمنه . عدتُ

إلى البيت أنوء به ، وضعته على سريرك بينما كنتِ في الحمام . انتظرتك تُفاجَئين به . انتظرتكِ تصيحين ، كعادتك حين تباغتك اللاعاديات في الحياة ، من منظورك ، بالمسرّات . دخلتِ غرفتك . وقفتُ أنا خارج غرفتك . لحظة صمت ، ثم طارت منك صرخة خرقت آذان السماء . ركضتِ نحوي متقافزة . فردتِ وجودك السعيد من حولي . كنتِ فرحة ، فرحاً لم أقرأه في عيونكِ وفي جسدكِ على هذه الشاكلة من قبل . حملتِ المجلد الضخم بين يديك . ضممتِه إليك . كان ثقيلاً جداً . تقهقرتِ إلى الوراء ثم وقعتِ على ظهرك ، فجثم العملاق على صدرك وغمرك . ضحكتِ . ضحكتِ كثيراً . ضحكتِ طويلاً . ضحكتِ عالياً . ضحكتِ حتى شَرِقْتِ . حينها ، كرهتُ حياتي أقل . حينها ، وحينها فقط ، أحببتُ حياتي أكثر .

أدخل المطبخ ، أشتمّ رائحة بقايا انشعاط في الجو المتغلّظ الحبيس . كنتِ قد أكلتِ آخر ساندويشة جبن مشوية قبل رحيلك . أكحتُ الخبز المحروق وبقايا الجبن الذائب من على المحمصة . كم مرة نسيتِ ساندويشتكِ في المحمصة لأهرع نحو مصدر رائحة احتراق الخبز وسيحان الجبن ، بينما تكونين مستغرقة في متابعة مشهد جمالي أو غرائبي على «اليوتيوب» ، أو قرصنة فيلم «سارق الدراجة» لفيتوريو دي سيكا من أحد مواقع الانترنت ، أو ترجمة أشعار مغناة لـجان فيرا ، نزولاً عند طلب أصدقاء الشعر في «الفيسبوك» . أحمل بقايا «جريمتك»

التي خلّفتِها في المحمصة ، أبسطها أمامك . «شوفي!» أقول لك . «شوفي!» تقولين لي ، وتشيرين إلى صفحة على الانترنت تتوسطها صورة بوبي ساندز بالأبيض والأسود . تحدثينني بشغف المؤمن الذي وقع على فضائل ديانة جديدة حديثاً عن المناضل الأيرلندي ، زعيم حركة الإضراب عن الطعام في العام ١٩٨١ . بعد جوع استمر ستةً وستين يوماً مات ساندز كمداً وظلماً وهزالاً . كان في السابعة والعشرين من العمر . تفتحين عينيكِ على اتساع - بحجم الأفق - وأنتِ تصفين الغضب الشعبي الذي أجّجته وفاة ساندز ، كأنك كنتِ جزءاً من هذا الغضب . أسألكِ عن الساندويشة المحترقة ، فتنضمين إلى آلاف الناشطين التشيليين الذين اقتيدوا صبيحة الانقلاب العسكري ضد الرئيس المنتخب سلفادور أليندي إلى ستاد تشيلي في سانتياغو عام ١٩٧٣ . كان الشاعر والمغني التشيلي فيكتور خارا من بينهم . تقولين بنبرة رثاء لم تتقادم مع الزمن : لقد ضربوه وعذبوه وهشّموا يديه اللتين عزفتا أجمل الأغنيات على غيتاره . تروين لي من قلب الحدث الذي عاشته روحك لحظة بلحظة كيف كان جلادوه يهزأون منه ، طالبين منه أن يعزف على الغيتار وهو ممدّد على الأرض ، فتحداهم خارا بأن أنشد مقطعاً من أغنية «سوف ننتصر» . في النهاية ، أفرغوا صليات رشاشاتهم في جسده وألقوا جثته في الطريق . تقرئين لي مقطعاً من قصيدة كتبها خارا قبيل إعدامه على قصاصة خبّأها في حذاء صديق له كان من بين من قاسموه رحلة الذل في

الاستاد . ينزوي الأمل في صوتك إذ تدخلين في فصول الحزن القاتمة ، ثم تدّعين أن شيئاً دخل عينيك فتفركينهما بينما تسدّين الطريق على سقوط محتمل لدمعة كتمتِها .

- والساندويشة الشايطة؟!

أسألك بعصبية ، فتردين :

- شو يعني؟ خربتْ الدنيا؟!

أحدثك عن أخطاء الثورات ؛ تحدثينني عن جرائم الأنظمة . أحذرك من اعتناق أفكار طهرانية غير قابلة للتلون ، تحذّرينني من ارتداء ألوان لا تناسبني . «طيّب . . شو رأيك بهادا القميص عليّ؟ حلو؟» أسألك ، فتهزّين رأسك غير مبالية . هنا ، علي أن أعترف أنك تقودينني أكثر مما أقودك ؛ تنتشلينني من شروط واقعي الذي استسلمتُ له وترجعينني إلى عصر الأمنيات الباهرة ، ولو إلى حين . لأيام وأسابيع ، تصفحتُ أغنية «إيلاباريسيدو» بكل النسخ المتوافرة . لكن النسخة الأحب إليّ تلك بصوت فيكتور خارا ، حمّلتها من «اليوتيوب» معززةً بألبوم صور لتشي غيفارا في حقب ثورته الدونكيشوتية ، من الحلم إلى الكابوس ، حتى إذا ما أقفلت الأغنية عند صورته مسجى على المحفّة بعد إعدامه ، وقد سدّد إلى جلاديه نظرة المسيح المصلوب إياها ، بكيتُ عليه بقلب متفطّر ، كأنه مات أمس .

أنت لا تحبّين البكاء ، على الأقل ليس أمامي . وإذا ما واتاك الدمع تلجئين إلى أقرب عتمة طلباً للسّتر . لكنك لا

تعرفين أنني أراك ؛ أستبين ماء عينيكِ يخالج وجهك ، أستشعر دمعك يريد أن يحكي لكنك تخرسينه . تهزأين مني ، أنا البكّاءة ، بشهيّتي المفتوحة للدموع في أي وقت وفي كل وقت ؛ أبكي على أغنية ذات لحن ملتاع دون أن أفهم معنى كلماتها ؛ أبكي على فيلم حتى وإن انتهى نهاية سعيدة ؛ أبكي على عامل ينظف السيارات ، بوجه محروق من معانقة شمس الله غير الحانية ، وعينين مصفرّتين من تناسل شظف الحياة في إمارة غنية جداً ؛ أبكي على عجوز ستيني برجْل واحدة وعكاز من خشب متآكل وبنطلون فوتيك من مخلفات خدمة عسكرية بائدة يبيع الولاعات وعلب المناديل الورقيّة الرخيصة والبالونات المشكّلة على هيئة أرانب لا تتقافز وعصافير لا تطير عند مفارق الإشارات الضوئية في عاصمة مملكة سكنتْ فيها كل تناقضات الأرض ؛ أبكي على طفل افترش أمامه على الرصيف بسطة من الميداليات والمحافظ الجلدية الرخيصة ونظارات ريبان مقلّدة وقد أسند كتفه على سور جامع وتهدّل رأسه كثمرة ثقيلة فوق غصن هزيل في مدينة شذّت عن أي سياق تاريخي منطقي وانحشرتْ فيها حفنة ملعونة من البشر في حياة ضيقة . أتخيل الصغير يحلم بأنه ينام على سرير ، مغطى بلحاف عليه صور شخصيات كرتونية في غرفة غاصة بالدمى . أبكي عليه ثم أبكي حلمه الذي تخيلتُه . أبكي على امرأة تقف في طابور الخبز في أحد مخابز القاهرة تجعل مراسل إحدى القنوات الإخبارية الطنانة الذي يستعجل الانتقال إلى

شخص آخر شاهداً على بضعة أرغفة خبز اشترتْها أخيراً بعد ستّ ساعات انتظار، حيث اختلس منها الخباز الدقيق والماء وطعم الخبز. «يرضي مين دا يا رب!» تصفق صاحبة الوجه الطالع من أحد أحياء القاهرة الكالحة الخبزات بعضها ببعض كحطبات ناشفة، ثم تستغفر الرب مرغَمةً، خشية أن يؤدي تكبّرها على النعمة إلى مسخ كوم العيال الجوعانين الذين ينتظرونها في البيت.. «لا حول ولا قوة إلا بالله.. ربّنا على المفتري!» ترفع وجهها إلى السماء. أبكي على بقايا شباشب رخيصة مرميّة باستهتار في أحد أسواق بغداد بعدما غادرتها أقدام أصحابها الذين تفتفتوا في انفجار يومي. أبكي على صور مسلسل مجازرنا الدرامي، متعدد الحلقات والأجزاء، أجمعها في ألبومات خاصة، أعود إليها أكثر كما أعود إلى ألبومات العائلة، وقد أنتظر في اللاشعور وقوع مجزرة معزّزة ومرفقة بصور آية في التمثيل والبشاعة، أترقّبها وأتعجّلها كي أُراكِم أرشيفي في البكاء.

حين وقعتْ مجزرة «الرصاص المصبوب» على الأبدان المفزوعة في غزة، حاصرتني على وجه الخصوص صور القتلى الأطفال، في واحدة من حملات تصفية الجسد الفلسطيني التي تدنّى فيها سقف الحياة بصورة غير مسبوقة. طوّقتْني أكثر، صور الوجوه التي رحلت بعيون مفتوحة، عيون مثُلتْ فيها الغفلة. كنتُ أجمع صور الأطفال الراحلين المفتّحين كمن يجمع طوابع نادرة أو كمن يلتقط أصدافاً ذات تشكيلات

غريبة ، شاذة ، من شاطئ البحر . فقط مثل هذه الصور تثبت أن الله - إذا شاء - يستطيعُ ألا يكون . صورة بعينها لفتاة غزية لازمتني ردحاً من البكاء ، كانت في العاشرة ، أصغر قليلاً أو أكبر قليلاً ، ترتدي بلوزة كمّونية بُقرت من الخاصرة حيث موقع الشظية التي سلبتها زمانها الآتي . تمدّدت على طاولة معدنية في أحد مستشفيات القطاع . أمالت رأسها نحوي ، فكانت تعاينني ، تتأمّلني بعينين بنيّتين استمسكتا ببريقهما حتى بعدما ذوت الحياة الغضة في تشكيل الجسد الذي لم يكتمل تفتّحه . لعلّ الصغيرة استبصرت أن الصورة ستقع في يدي ، وها هي تسدّد لي نظرة عتب وملامة على ذنب أنا واثقة ، قدر ثقتها هي ، أنّي اقترفته .

أنتِ أيضاً بكيتِ ، في غرفتك الجامعية على بعد آلاف الكيلومترات من غرفة نومي التي كنت آوي إليها ، بعد مطالعة صور موتانا بكلّ الهيئات والأحجام ، منهكة من النحيب المنفرد . لقد بكيتِ دون أن تجعليني أو تجعلي أيّ أحد يراك . عرفتُ ذلك من صفحتك على «الفيسبوك» التي صدّرتِها بصورة الطفل الغزّي الذي التحق بمدرسته بعد نهاية موسم حصاد الأجساد الفلسطينية اليانعة ، جلس على مقعده أول الصف وإلى جانبه جلست ورقة مقوّاة حملت اسم زميله الذي رحل . ومن خلفه زملاء جاوروا أوراقاً بأسماء ثلاثيّة ذوت مرة واحدة وإلى الأبد . نكّس الطفل رأسه وغطّاه بيديه . كان يبكي رفيق صفّه الذي كان يتقاسم وإياه ساونديشة الزيت

والزعتر ، وفي الأيام المرفهة ساندويشة اللبنة والخيار . لم يرغب في أن يرى كائن دموعه .

كنتُ في عملي أسرق بعض الوقت العزيز ، أزور صفحتك عندما طالعني رأسكِ المنكّس في الصف وقد غطيتِه بيديك متفاديةً النظر إليّ أو إلى زميلك الذي لم يبق منه سوى اسمه الثلاثي على ورقة مقوّاة . ادعيتُ الإصابة بنوبة عطس مفاجئة . غطيتُ أنفي ونصف وجهي بمحرمة ورقية . من تحت نظاراتي ، سالت دموعي أمام شاشة الكمبيوتر . نكّستُ رأسي ، وغطّيتُه بكفّي . لم أرغب في أن يراني كائن أبكي .

من يدري ، قد تكتشفين أنك بكّاءة مثلي حتى وإن قاومتِ البكاء ، فكما ورثتِ عنادي وتياستي ، لعلك ورثتِ دموعي السهلة ، لكن غير الخفيفة ، وغير المُستخفّ بها . كنتِ شاهدتِني ذات يوم أبكي أمام فيلم «ذكاء صناعي» ، الفيلم الوحيد الذي أحببته لستيفن سبيلبيرغ ، كمخرج لم يكن ليصبح ربّ هوليود لولا يهوديته النقيّة التي جعلته غير قابل للمساس ، حتى وإن قارب موضوعات جدليّة مثل «ميونيخ» على نحو قد لا يدين الفلسطيني تماماً لكنه قطعاً لا يجرّم اليهودي ، الذي يسائل نفسه ويجلدها بعد كل عملية قتل مبررة لفلسطيني تكرّم سبيلبيرغ بأن منحه صيغة حياتية مشروعة تجعله أكثر من مجرّد اسم موضوع على قائمة تصفية . استغربتِ ، لا لأنني كنتُ أبكي فقط ، وإنما لأنها كانت المرة الثالثة أو الرابعة التي أبكي فيها على الفيلم ذاته . كنتُ قد

تعبّأتُ بمشاعر لم آلَفْها من قبل تماماً وأنا أتابع أمنية الطفل الآلي ديفيد بأن تحبه أمه البشرية ، التي تبنّته من مصنع للأطفال الآليين من ذوي المشاعر المطوّرة قبل أن تتخلّى عنه وتتركه في الغابة لمصيره المأساوي بأن يطحنه البشر من ذوي المشاعر الحقيقية ، كونه آلة . عينا الصغير المتشوّفتان للحبّ عصرتا قلبي . تفنى البشرية بعد ألفي عام ، ويظل ديفيد هو الطفل المشوق للحب من أم بشرية ، وهو حبٌّ يتحصّل عليه ليوم واحد فقط ، لكنه يوم يعادل الأبدية . شرقتُ من البكاء وأنا أرى ديفيد ينال الحبّ من أمه التي استُخلقتْ يوماً من أجله ، تقول له قبل أن ترحل في موت عميق : «أحببتك . لطالما أحببتك .» سألتِني ضاحكة :

ـ مش بكيتي على الفيلم من قبل؟ شو يللي اختلف فيه؟

أعتقد أن الأمور اختلفتْ لديكِ أنتِ . أتذكرين تلك الليلة التي جلسنا فيها نتابع فيلم «بيلي إليوت»؟ كنتُ شاهدتُه في السينما ، وحدثتكِ بافتتان عن الفتى الذي فرّط بقفازي الملاكمة كي يختبر حذاء الباليه سرّاً . بالصدفة ، وقع بصري عليه معروضاً للبيع في «كارفور» ضمن عروض الأفلام الخاصة . طرتُ به إلى البيت فرحةً ، مؤمّلةً نفسي بليلة لا تُنسى من البكاء المشترك ، أنتِ وأنا . في البداية ، آثرتِ أن تتفرّجي على الفيلم لوحدك ، ثم كي لا أتهمّكِ بممارسة البكاء خلسةً ، سمحتِ لي بأن أتابعه معكِ ، شريطة ألا أتجسس على عينيكِ ، أو ألحق بهما ، أثناء الفرجة . وسط عتمة غرفة

التلفزيون إلا من إضاءة الشاشة الخجول ، لمحتُ انعكاس بكائكِ على زجاج نظاراتك . جرت دموعكِ حرّى ، حافية ، على خديْكِ المحمرّيْن ، وقد تغبشت عيناك الواسعتان وابتلّت شجيرات رموشكِ الكثيفة من خلف نظاراتك الطبية . بكيتِ حين اضطر والد بيلي إلى تحطيم بيانو المرحومة أمّه ليوقدوا من أصابعه ناراً تدفئهم في شتاء إضراب عمال المناجم في بريطانيا الثمانينات ، وبكيتِ حين قرأ بيلي رسالة أمّه التي تركتْها له قبيل موتها عن ظهر قلب أمام معلّمة الباليه ، ثم بكيتِ حين ضبط الأب الغاضب الذي هزمه الفقر ، ابنه يرقص . عندما انتهى الفيلم ، كانت روحانا قد تنهنهتا من العياط . لم نتكلم . دارينا وجهيْنا عن وجهيْنا ونمنا دون هزّ . لقد شاهدتِ الفيلم مرّات من وراء ظهري ، وفي كلّ مرة كنتِ تبكين من وراء ظهري . كنتِ تنتحبين وتَشرقين وتشهقين وترجفين ، من وراء ظهري ومن أمام روحي التي كانت تستقرئك .

في الأيام التي لا نتعاطى فيها البكاء والعناد والمماحكة بين آرائك النبيلة غير الرشيدة وأفكاري التي عاثت فيها الأيام تقلّباً وانقلاباً نتخاصم ، وقد تكون خصومتنا شرسة نستدرج فيها كل المشاعر العنيفة في العالم ، لنحشرها في المساحة الضيقة بيننا ، في الهواء المشحون بين وجهينا المتقابلين اللذين تلبّسهما الهياج والثورة الملتبسة .

- بكْرهك .

تصرخين في وجهي .

- بكْره نفسي .

أصرخ في وجهك .

حتى إذا أدركنا الليل وأوت الأحزان إلى مخادعها ، أتيتِ إليّ حافية ، وقد هطل نصف شعرك على وجهك ، تفوح منك رائحة عرق طازج ، من أحلام يقظتك المتهوّرة ، وبقايا شوكولاته تتلمّظينها في فمكِ دون كبير شعور بالذنب لأنك خُنتِ حميتكِ الغذائية الهشّة ، وخبز محمّص ، حدّ الاحتراق ، فتافيته ترشم بلوزة بيجامتك . تندسّين في السرير إلى جواري . تتشمّمين ذراعي العارية . تقولين إنك تحبين رائحة لحمي . تقولين إنك تفتشين عنها ، أو ما يشبهها ، في مدينتك البعيدة ، فلا تجدينها . تغرسين أنفك في عنقي ، قائلة :

- إحكيلي حكايتك!

الباب الثاني

.. في مآل المال

بلغني أيتها الملكة السعيدة ، ذات الآراء غير الرشيدة تماماً والأحلام غير الحميدة مطلقاً . .

(١)

أنكِ كنتِ لاوية فمك بتبرّم طوال الطريق من البيت إلى المطار لكثرة حكيي غير المفيد عن الفلوس وآليات توفيرها وتوقيرها والضنّ بها قبل إنفاقها وهدرها وسبل حمايتها وعدم استعراضها والتفريط بها، كما تقتضي الحكمة المتأتّاة من الجني الشحيح.

اعلمي يا مليكتي أنني أنحدر من عائلة عرفت القلّة أكثر مما عرفت الكثرة، وإن كانت ثمة كثرة على الدوام في الهمّ والهموم، علاوة على سوء التقدير وسوء التدبير، دون أن يعني ذلك إعراض الحياة الطيبة عنّا تماماً. لقد عِشنا لاجئين وافدين في الكويت، وكانت الفلوس تتسرّب منا بسرعة تفوق، بما لا يُقارن، وتيرة مجيئها إلينا. لكننا كنا نحمد الله لأننا ننفق أكثر من مدخولنا دون أن ننفضح، ودون أن تتكشّف مؤخراتنا للعالمين، كما كانت أمي تردّد. وإذا ما سألنا أحدهم عن حالنا نقول بآلية: «مستورة»، فإذا ما تمرّدنا على الستر، بوصفه خضوعاً لقدر لم نرده، تعيد أمي على مسامعنا المقولات الاستسلامية إياها ... احمدوا الله على ما أنتم فيه من نعمة،

غيركم محروم من اللقمة ، أو ما نرميه في الزبالة من طعام يكفي لإطعام ستّ وخمسين عائلة! ولا نعرف لماذا تختار أمي رقم ٥٦ تحديداً ، بدلاً من اعتماد رقم دائري أسلس في التداول ، مثل خمسين أو ستين . واحدة من شقيقاتي الكثيرات تسألها مناكفة ، كيف قسّمت زبالتنا على ستّ وخمسين عائلة وكيف حسبتْها بدقة! تلتقط أمي إشارة السخرية الكامنة في السؤال ، فتلطش شقيقتي بطشت الغسيل الفارغ الذي تحمله بيديها بعد نشر وجبة غسيل في البلكونة ، أو قد ترميها بفردة شبشب أو حذاء أو بأي غرض منزلي في متناول يديها ، لكن شقيقتي ، كغالب المرّات ، تتفادى القذيفة المتوقّعة .

لكننا قد نمضي أكثر في طريق التمرّد والغرور والتكبّر على نعم الله الكثيرة علينا ، التي من بينها شهيّتنا المفتوحة على الدوام على الحياة والطعام ، حتى إن أمّي كانت تنغز خواصرنا بكوعها إذا كبّرنا اللقمة أكثر من اللازم أو مضغنا عدّة لقم متتالية بتسارع لكي يتأتّى لنا أن ننهب أكبر قدر من الأكل في أقل وقت ممكن ، أو إذا استفردنا بصحن البيض واللحم المفروم على العشاء وعزفنا عن الأطباق الأخرى «المستورة» والمكررة من زيت وزعتر وزيتون وبندورة مقطّعة على هيئة أهلّة ، وأقراص خيار ذابلة لم يتسنّ استخدامها في طبق سلطة في أوانها واكتُشفتْ صدفة في أحد أدراج الثلاّجة .

وهناك أيضاً من نعم الخالق علينا باعة الملابس الرخيصة

المتجوّلون ، الذين يطرقون بابنا قبل أبواب الجيران فتشتري منهم أمّي جواربنا وملابسنا الداخلية وبيجاماتنا التي نستهلكها كالخبز ، بالتقسيط المملّ ، والصحة الجيدة عموماً والاقتصار في مراجعاتنا الصحية على العيادات والمستشفيات الحكومية دون اللجوء إلى طبيب خاص إلا في ما ندر جداً وللضرورة القصوى ، حتى أسناننا حين تتخلخل تهرّ لوحدها ، فإذا تلكأت ربط والدي السنّ المرتخية بخيط في مقبض الباب وفتحه وسط انبهارنا نحن جمهور المتفرجين بأفكار أبي الخلاقة! كما لم تتعدّ العمليات الجراحية التي أُجريتْ لنا في المشافي المجانية استئصال الزائدة الدودية لثلاثة منا ، واللوزتين لاثنين ، واللحمية لأربعة ، والفتق لأبي ، والبواسير لأبي أيضاً ، إلى جانب ولادات أمي الثماني ، وعمليتي إجهاض رحمتانا من فمين زائدين ، والتحاقنا بمدارس الكويت الحكومية قبل صدور القرار القاضي بحرمان الشريحة العظمى من أبناء الوافدين من حقّ التعليم المجاني ، في عملية استهدفتْ تآكل أرزاق العباد المتآكلة سلفاً . عندئذ ، وإزاء طلباتنا الفاجرة ، من نوع إصرار أحد أشقائي على حذاء «أديداس» أصلي أسود مخطط بالأحمر ، يُصدر أبي حكمه الفصل معلناً : «اللي ما معهوش ما بيلزمهوش» ؛ فإذا ما وكّلنا يأسنا لأمي على اعتبار أنها القيّمة على مصروف البيت ، تضرب راحة يد فوق كف اليد الأخرى قائلة : «من وين يا حسرة؟» ثم إذا ألححْنا عليها أكثر ، تتخنصر وتطعج جسدها المنزلي الصنع مؤكّدة أنه ما من سبيل أمامها

سوى أن تشتغل «تلك الشغلة» ، (تقصد «شرموطة») . لكننا كنا نعرف أن أمي لا تستطيع أن تشتغل «تلك الشغلة» لنقص مريع لديها في التأهيل النفسي والجسدي!

وبما أنّنا يا أبهى الملكات من الكائنات التي تربّت على أن القرش متقلّص بطبعه ، أو بطبع إلهي ، وبالتالي نضع اليد على القلب ونتفقّد الجيب تطيّراً من أن تطير منا الفلوس دون إرادتنا - دون أن يعني هذا أنها تطير منا في غالب الأحوال بإرادتنا - فقد طوّرنا نظرية «المخابئ السرية» في تنويعات عديدة وتصريفات لا حصر لها . بعض المخابئ جاورت تفكيرنا منذ فطرتنا الحياتية الأولى ، فابتكرناها دون أن نلتمس مرجعيّة أو نستأنس بخبرة سابقة ؛ ومخابئ أخرى كأننا توارثناها ، فصادرت سلوكياتنا وأداءاتنا وسيّرت طرائق تفكيرنا ، حتى عندما لا يكون الشحّ هو الحالة الظاهرة أو السائدة ؛ فالطبع والتطبّع يقهران الحياة الأخرى التي نريد .

أعتقد أن خالتي رحمة ، ككلّ الخالات والعمّات ونسوة العائلة الضخمات ذوات الصدور الحانية الفائضة ، كانت الأكثر عمليةً في ما يتعلق بانتقاء مخبئها السري . وخالتي ذات وجود منعش للحياة ، فرداني ومبتكر ، لعلّ حكايتي تعرّج على بعضها إذا ما سمحتْ لي لياليّ المقبلات بقصّها . كانت خالتي تُخبّئ الفلوس في صدرها ، وكنا نحن الصغار نتعجّب من هذا الينبوع الذي لا ينضب من القطع المعدنية الفضيّة اللامعة التي تسقط في أيدينا حبّات مطر عريضة دافئة . كانت خالتي تبدو

مغتبطة وهي تغرف من صدرها بعضاً من ثروتها توزّعها علينا .
في زمن الدهشة البدائيّ ، اعتقدتُ أنني حين أكبر سوف أمطر من ثديي فلوساً ، وإن كنتُ واثقة من أنّني لن أفرّط فيها على غرار خالتي . كنت سأوفّرها لشراء كل أكياس مخدات المارشميلو الملوّنة في العالم ، والعلكة ذات الرسومات التي ألصقها بلعابي على ذراعي كي تنطبع ، حتى وإن عضّتني أمي في ذراعي لاحقاً عقاباً لي على ما تسمّيها وساخة .

كنّا في الصيفيات نحلّ ضيوفاً على بيوت عديدة في الأردن ، كلاجئين من الكويت أكثر رفاهية من لاجئي الأردن ، كما يتعامل معنا الآخرون الذين يغالون في توقعاتهم بشأننا . من بين البيوت الأحبّ إلى روحي المتوثبة في ذاك الزمان العتيق بيت خالتي رحمة الواسع في جبل التاج بعمّان ، الملحق به حديقة صغيرة طرّزتها بمعرّشة عنب وأشجار تين وليمون وتفاح وأحواض نعناع وبندورة وورود من النوع البرّي الذي ينبت دونما جهد . ذات نهار ، طلبتُ من خالتي رحمة بَريزة . كانت وسط معمعة طهو محاشي مع أمي . صرختْ بي أمي كي أنفضّ من حولهما ، لكن خالتي حلفتْ يميناً ، غير قابل للكسر ، بألا أغادر المطبخ قبل أن آخذ البريزة منها . كانت تقتعد الأرض إلى جوار والدتي ، تقوّران الكوسا والباذنجان وقد طويتا ملابسهما حتى أعلى فخذيهما ، كاشفتين عن لحم كثير ، مسترسل ، غير منظم . إذ لم تتوقف خالتي عن تقوير حبة كوسا ظلت تدوِّرها بينما تجرف أحشاءها بالمحفرة وقد تناثر

اللبّ على يديها ، طلبتْ مني أن أفك زرّ فستانها البيتي من الأمام . ترددتُ ، فنهرتني كي أسرع ، ففككتُ الزر الأول ، لكنها قالت إن هذا لا يكفي ، عليّ أن أفك الزرّين الآخرين ، ففككتهما . تلصّص عليّ صدرها المتدفئ ، الذي التمعتْ حبّات عرق على لحمه الأكثر ابيضاضاً من وجهها الذي لفّته سُمرة خفيفة مع احمرار شفقي . طلبتْ مني أن أُدخل يدي تحت سوتيانتها الزرقاء السماوية التي كبستْ ثدييها بإحكام . تجمدتُ ، فصرختْ بي : «يلاّ!» أدخلتُ يدي الطرية المرهوبة تحت أحد كوبي السوتيانة العريضين ، فتحسستُ دبقاً وأوراقاً نقدية . بلعتُ ريقي . ضحكتْ خالتي رحمة ورجعتْ إلى الوراء ، قائلة إنني دغدغتُها ، ثم أشارت بعينها إلى ثديها الآخر ، مستودع القطع المعدنية : «شوفي البزّ الثاني!» . دسستُ يدي في العتمة والرهبة ، واستللتُ بريزتي الساخنة التي استقرت فوق فرشة لحمية غائصة . لكن خالتي رحمة تصنّعت الغضب وهي تريني حبة الكوسا : «اتطلّعي!» كانت قد ثقبت «الكوساية» من الأسفل . ثم أطلقت واحدة من ضحكاتها الصادحة ، المتراقصة ، متراجعة إلى الخلف ، مفرجة بين ساقيها الطويلتين ، زامةً فستانها الذي رفعته بين فخذيها لدنتي القوام .

خالتي رحمة كانت جميلة ، ظلت جميلة حتى حين كبرت ، ففيها ذاك النوع من الجمال المشعّ المختزن ، الذي لا يشيخ مع مديد العمر ، فحُسنها أشبه بفكرة ثابتة ، حقيقة غير قابلة للدحض . منذر زوج خالتي رحمة كان يناديها «يا قمر!» ،

«وشو يا قمر؟» «وهاتي نظرة يا قمر!» . كان يتحرّش بها كما لو كان يتحرش بامرأة غريبة أو كما يتحرش بجارتهم التي هجّ زوجها تاركاً لها خلفة كثيرة مرهقة ، وذلك تحت سمع وبصر عاطفة خالتي رحمة الميتة إزاءه . كانت رحمة ، كما جارتها ، تتجاهل تحرّشاته . لم يكن يزعجها تحرّشه بجارتها . كل ما في الأمر أنها كانت تشفق على جارتها التي شكته لها ذات يوم ، فاقترحت عليها رحمة جادة : «اقتليه . . وريحيني منه!» .

- وبعدين يا قمر؟! صبري عليكِ طال!

فتعطيه خالتي رحمة تلك النظرة التي يفهمها جيداً ، ثم تقول له :

- ما معي ولا قرش أحمر .

- كذّابة!

عندئذ تنفلت عليه خالتي رحمة ولا تسكت ، فتذكّره بما لا يريد أن يتذكّره ؛ بنصيبه من بيت والده الذي بدّده على القمار ، والثلاجة التي سحبها أحد رفاق سهرات الشدّة يوم راهن على قرش لا يملكه ، والتلفزيون الذي أعطاه لأحد ديّانته الكثر . ثم تعايره بأنه بات يعيش على القرش الذي تدخله إلى البيت من كدّها وعرقها . فينقضّ عليها كالمسعور ، يطيحها أرضاً ، ويحاول أن يفتح ياقة فستانها ، فيما تناضل كي تفلت من تحت جسمه الثقيل الخامل ، وسط صراخ بنات خالتي الأربع وهنّ يتدافعن لتخليص أمهن منه . لكن خالتي تنهار مقاومتها سريعاً ؛ يشقّ زوج خالتي فستانها ، يمطّ السوتيانة ،

فيفور ثدياها وينسكبان، ليجمع ما اندلق من فلوس ويمضي خارجاً، قبل أن تنهض متحاملةً على انكسارها، فتغطيّ ما انكشف من لحمها، ثم تطلب من واحدة من بناتها أن تضع إبريق الشاي على النار وأن تساعدها الأخريات في تحضير العشاء.

فاطمة، جدتي لأبي المستدقّة الأعضاء التي كانت تقطن في مخيم الوحدات في عمّان، لم تستطع الاعتماد على صدرها طويلاً، ذلك أنه تهدّل وتسطّح مبكراً في عمرها الطويل نسبياً. لكنها طوّرت مع ذلك تقنية تخبئة مكنّتْها من مجاورة ثروتها واستشعار الأمان المادي في النهارات والليالي. كانت جدتي فاطمة ترتدي سراويل داخلية بيضاء مورّدة طويلة عريضة بدكة، كالشروال الرجالي، تضيق نحو الأسفل، مسوّرة كاحليها. ثمّة سراويل تنتهي بكشكشة أو دانتيل، فتبين من تحت ثوبها حين تجلس أو حين ترفع حافة الثوب عن الأرض كي لا تعلق به غبرة الطرقات. كانت جدتي فاطمة تخيط سراويلها بنفسها، وخلافاً للسراويل الداخلية النسائية المعتمدة، حتى المحتشمة منها، احتوت سراويلها على جيوب كثيرة؛ جيوب في الخلف وجيوب في الأمام وجيوب على الجانبين، وجميعها كانت خفية، كبطانة تحتانية. بعض الجيوب المخصصة للمبالغ الكبيرة كانت بسحابات. ولم تكن جدتي فاطمة تلجأ إلى خزائنها الداخلية هذه إلا للطوارئ. أما للاستخدام اليومي، فكان هناك جزدانها الجلدي الصغير بلونه

البني المحروق ، ذو التجاويف والفتحات المتعددة ، تغرسه في عبّها ، في ما يشبه جراباً داخلياً مفتوحاً خاطته في بطانة صدر الثوب لهذا الغرض . فإذا التممْنا حولها ، نحن أحفادها الكثر ، نطلب منها الشلنات والبرايز لشراء خبز الكعك بالسمسم والبيض أو الكيكس أو بوظة الاسكيمو أو دفع أجرة بضع دورات على مراجيح أبو سعيد في المخيّم ، وهو أقصى ما قد نطمح للحصول عليه منها ، كانت جدتي فاطمة تبدو مبتهجة وهي تتفحّص نظراتنا المتوسّلة ، تتباطأ وهي تدسّ يدها في عبّها ، تغرف منه جزدانها الجلدي ، تفتح بُكْلته المعدنية محدثةً صوت طقة تنبئ بالخير القادم ، ثم تنوس عيناها الصغيرتان بين ثنيات الجزدان الجوانية وجيوبه ، قبل أن تفتح سحاب الجيب الأوسط الذي تكدّست فيه القروش الحمراء والشلنات والبرايز الفضية . نكون خمسة أو ستة ، مشكّلين دائرة تضيق حولها كلما دنت لحظة توزيع جزء من ثروتها علينا . «مين فتح كفّه أول واحد؟» تسألنا بوجه تكشكشه ضحكة تمسح بعض تفاصيل الشقاء في وجهها ، فنبسط الأيدي الصغيرة أمامها متدافشين ، شبه متضاربين ، فتهددنا بأن تعيد الفلوس إلى الجزدان إذا لم نكن عاقلين ، طيّعين . نعود إلى التأدب ، متخذين وضعية المذلّة المؤقتة في حضرتها . توزع جدّتي الشلنات في الأكف ، تضعها شلناً شلناً بعناية ، ثم تغلق الكفّ الصغيرة على الشلن وتربت عليها ، كأنها تريد أن تستبقي الفلوس لنفسها أو لأيام الشحّ المنذرات ، أو كأنها تستعطفنا كي

نكون حصيفين قبل أن نبدّدها على شهواتنا الآنية من كيكس واسكيمو ومراجيح وغيرها من الملذات الأخرى .

لكن جدتي فاطمة ، التي اطمأنت إلى سراويلها الطويلة مخابئ لا تفارقها إلا يوم الاستحمام ، فتبدل «الخزْنة» بأخرى ، تمدّدت ذات مسويّة صيفية ناعمة على مصطبة بيتها بعد صلاة المغرب ، فغفت . حلمتْ - فيما حلمت - أنها خفّت وانبسطت ورقّت ، وأنها حلّقت على ارتفاع منخفض ، قبل أن تهبط فوق أرض طرية ، بشبشت عظامها الناشفة ودغدغتها ، فغدت أكثر ليناً ، وانفرج فمها الضيق عن ابتسامة . ثم شعرت جدتي فاطمة التي ارتفعت في الجوّ أكثر بالبرد يمشي خلسة إلى جسدها ثمّ قرص لحمها من تحت ثوبها ، فمسّتها رجفة . فتحت عينيها ، فرأت ليلاً غامقاً من حولها . كان ثوبها قد ارتفع إلى ما فوق كاحليها . في البداية ، اعتقدت أنه تهيأ لها أنها رأت كاحليها مكشوفيْن . رفعت طرف ثوبها إلى الأعلى قليلاً ، فصرخت . سروالها اختفى . هرعت عمتي نجاح ، ابنتها الوحيدة التي تعيش معها ، على صوت جدتي . قالت لها جدتي التي كان جسدها يهذي ، برداً وخوفاً ، إنها سُرقت . «والسروال؟! وين راح؟!» سألتها عمتي بذعر ، لكن جدتي التي لم يبدُ أنها قلقت لعريها بقدر قلقها على الفلوس قالت إن أحدهم شلّحها سروالها أثناء نومها دون أن تحسّ به . ضربت عمتي نجاح على صدرها . همّت جدتي فاطمة بأن تقدّ ثوبها تمهيداً لإطلاق الولاويل في السماء ، لكن عمّتي نجاح عبطتها ،

ووضعت يدها على فمها ، متلفتةً حولها برعب خشية أن تكون عيون وآذان بشرية ترى وتسمع ، ثم سحبتْها إلى داخل البيت وأغلقت الباب . «هون قتلناه ، وهون دفناه!» قالت لها عمتي .

ـ والفلوس؟ والفلوس؟ والفلوس؟ والفلوس؟!

لم تكن جدتي فاطمة تسأل أو تبحث عن جواب . كانت تضرب رأسها بيديها ، مرة بعد المرة . بالنسبة لعمتي نجاح ما كان يعنيها أن تُدفن الحكاية ، فلا تنفضح جدتي فاطمة . لكن المخيم عرف بأمر السروال في اليوم التالي . تقاطرت الجارات على بيت جدتي فاطمة مستطلعات ، وبعضهن شامتات ، يسألن عن حرامي السروال . اشتبكت عمتي نجاح مع بعض النسوة ، اللاتي تغامزن عيني عينك ، غير مصدّقات أن يقوم أحدهم بتشليح امرأة نائمة سروالها دون أن تشعر بذلك . لكن ما أثار عجب الناس ، أكثر من الواقعة نفسها ، أن سروال جدتي فاطمة كان به ألف دينار موزّعة على جيوبه الخفية . حلفت جدتي على المصحف الشريف أن فلوس السروال لم تزد على سبعة وأربعين ديناراً . لكن أحداً لم يصدّقها ؛ حتى عمي أبو تيسير الذي فار دمه في البداية لسرقة سروال أمه عاتبها لاحقاً بعدما هدأت الحكاية لأنها كانت تحتفظ بألف دينار في سروالها ، بينما يستطيع بالكاد أن يطعم عياله . ألم يكن هو أولى بفلوس السروال؟! تساءل بمرارة .

أما رضيّة جدّتي لأمي ، التي كانت تعتبر نفسها فطينة في شؤون الحياة كما المال ، فكانت الأكثر ابتكاراً وصبراً في ابتداع

آليات إيداع مضمونة ، إذ كانت تقسّم ثروتها وتوزّعها في عشرات الصُّرر الصغيرة ، من القماش الكتّاني الأبيض الذي تخيطه لهذا الغرض ، ومن ثم تضع الصرّة في كيس نايلون تحكم إغلاقه بمطاطة ، ثم تستشعر بطن الصرّة المنتفخة بالفلوس ، التي تشمل أوراقاً ذات فئات ملونة وقطعاً معدنية ثقيلة . أما مخابئها التي كانت تقاربها بعظيم إثارة وكثير سرية ، اللهم إلا عنا نحن الصغار الذين نحوص بين ساقيها ونعمّ وجودها ، فكانت برطمانات الأرز والعدس والبرغل والحمص والفاصوليا البيضاء وكل برطمانات الحبوب الجافة في نملية الحبوب القديمة في مطبخها ببيتها في مدينة الزرقاء . كانت تدفن الصرر المحمية بالنايلون في جوف البرطمانات ، متيقنةً من أنها طُمِرتْ تماماً . كثيراً ما يسمح لها حرصها وتأنّيها بوضع علامة على الكيس أو قد تلصق طابعاً عليه ، لتمييز مبلغ المال المودع في كل صرّة ؛ فصرّة الخمسة دنانير ، غير صرّة العشرة ، وغير صرّة العشرين ؛ وإن كانت جدتي رضيّة - للأمانة - لا تحتاج إلى تعليم الصرر وتمييزها ، فهي تعرف ما بداخلها من نظرة دقيقة تعاين درجة انتفاخ بطن الصرّة ، بل إنها تعرف أن صرّة برطمان الأرز تساوي عشرة دنانير في حين أن الصرّة المدفونة في برطمان الفاصوليا فيها خمسة . حين تنتهي من تكفين الفلوس ودفنها ، تلقي نظرة على البرطمانات المرصوفة بجوار بعضها بنظام ، كشواهد قبور أنيقة ، تعاينها من الخارج بابتسامة ظفر .

أم صبحي ، جارة جدتي رضيّة ، أرسلت صبحي يطلب كمشة عدس . أمي وجدتي كانتا في السوق فتصرّفتُ . لم أفهم لماذا انقضّتْ عليّ جدتي رضيّة حين درَتْ بالأمر . أمسكت بي من كتفي ، وغرزتْ عينيها المستدقتيْن سكّينيْن في وجهي ، صارخة : «كيف أعطيتيها برطمان أبو العشرين؟» نزفتُ خوفاً . هزّتني بعنف وقد مسمرتني في الجدار ، هي الضئيلة ذات الصلابة المهولة ، مع اتخاذ أمي موقف المهدّئة عن بعد ، داعيةً جدتي رضيّة إلى توحيد الله . تخبّط لساني في حلقي وأنا أحاول أن أشرح لجدتي الغاضبة أنني لم أعرف كمية العدس التي كانت أم صبحي تريدها ، فأعطيتُ البرطمان لصبحي على أن يأخذوا حاجتهم منه ويرجعوه لنا . لكن جدتي رضيّة ، التي أخلت سبيلي بصعوبة بعد مقاومة مع أمي ، أمطرت وجهها لطماً متواتراً ، مردّدةً بتتالٍ استهجانيّ استنكاريّ ، وشى بفداحة الخطب :

ـ برطمان أبو العشرين؟! برطمان أبو العشرين؟! برطمان أبو العشرين؟! برطمان أبو العشرين؟!

حين أرجع صبحي برطمان العدس الذي نقص قليلاً ، أخضعت جدتي رضيّة الصبي لاستجواب من نوع : من فتح البرطمان؟ أمك هي التي أخذت العدس أم شقيقتك؟ هل كان عندكم أحد في البيت حين فتحت أمك البرطمان؟ قبضتْ جدتي رضيّة على برطمان العدس بحرص ، ثم فردت كيساً ورقياً على الأرض ، أفرغت فوقه حبات العدس التي شكّلت

تلّة برتقالية صغيرة . جوّفتْ التلة بأصابعها ، تبحث عن صرّتها الخبيئة . لكن الصرّة لم تظهر . أحالت جدتي التلة إلى سهل منبسط ، ثم نثرته بعصبية ، فبعثرته حانقة ، حتى إذا تيقنتْ أن الصرّة اختفت ، اندفعتْ خارجة من البيت بالشبشب وفستان بيتيّ بلا أكمام ، بآثار معجون ربّ بندورة مطرطشة على صدره ، ساحبةً في طريقها من حبل الغسيل في حوش الدار بشكيراً رمته على كتفيها . سألتها أمي : «وين رايحة؟» فأجابتْها دون أن تلتفت إليها : «عند بنت الكلب» . لحقنا بجدتي رضيّة . حاولنا ثنيها عن الاشتباك مع بنت الكلب ، لكن جدتي لم تكن تسمع سوى صوت غضبها الذي تلبّس قامتها طوال الطريق إلى بيت أم صبحي ، على مبعدة بيتين من بيتها . كالعادة التمّت الحارة على المرأتين . حلفتْ أم صبحي برحمة كل الغالين الذين ماتوا أنها لم تأخذ أي فلوس من برطمان العدس ، لكن جدتي رضيّة ظلت تنعتها بالحراميّة الحقيرة ، «دنيّة النفس» ، «الواطية بنت الواطية» . فما كان من أم صبحي التي راعت كبر سن جدتي إلى حين إلا أن كشفت عن أنيابها اللفظية ، لتردّ الشتيمة لجدتي أضعافاً مضاعفة ، فوصفتها بالعجوز اللئيمة ، «النكدية» . ثم إذ تنامى الاشتباك ، خاضت الجارة وجدتي في الأعراض ؛ جدتي رضيّة لأم صبحي : «يا دايرة على حلّ شعرك من بيت إشقع لبيت إرقع!» أم صبحي لجدتي رضيّة : «يللي بتعزمي شوفيرية التكسي يشربوا شاي عندك على الطالعة والنازلة .» جدتي

رضيّة لأم صبحي : «خرا عليك . . صرمايتي بشرفك ، هدول بساعدوني .» أم صبحي لجدتي رضيّة : «يا كرنيبة! يللي بتصبغي شعرك أحمر! روحي شوفي زلمة يلمّك!» جدتي لأم صبخي : «هاي حنة يا داشرة . بعدين ان شاالله مفكرة زوجك زلمة؟! ما هو مثل قلته!»

حتى وفاتها ، ظلت جدتي رضيّة على فرقة وافتراق مع أم صبحي ، فلم تجامل أيّ منهما الأخرى في فرح أو تواسها في ترح . وظلّت جدّتي رضيّة تشرح للجارات أن سائقي سيارات الأجرة يوصلونها إلى البيت ثم يساعدونها في حمل الأكياس الكثيرة التي تعود بها من السوق احتراماً لقدرها ، وقد تطلب من أحدهم أن ينزل معها إلى البيت كي يركّب لها أسطوانة الغاز في المطبخ أو يساعدها في حمل الغسالة ونقلها من مكانها . «حرام يعني إذا كافأت الواحد منهم بكاسة شاي؟!» ملتمسةً من جاراتها ختم الموافقة ، بينما يشربن الشاي ويأكلن الكعك بجوز الهند . ثم ظلّت تريهنّ شعرها المخضب بلون أحمر برتقالي ، ملتمسةً منهن المزيد من المعاضدة : «من إيمتى كانت الحنة حرام يا ناس؟!»

لكن ما لم تعرفه جدتي رضيّة ، وربما أم صبحي ، أن صبحي الذي لاحقتني عيناه لسنوات كلما نزلنا في بيت جدّتي ، ظل أياماً كثيرة يشتري لنفسه ولي ولرفاق كثيرين في الحارة العصائر المثلّجة والشوكولاته الغالية وزجاجات البيبسي ، غير متهيِّب من دفع تأمين لها ، وساندويشات الفلافل بسلطة

الطحينة ، كما اشترى لي علبة مرآة معدنية مزدوجة حملت صورة فتاة جميلة قال إنها تشبهني ، وقد أحببتُ اعتقاده الذي كان في غير محلّه . أهداني أيضاً سنسالاً ذهبياً ، علاه الصدأ بعد أقل من أسبوع من ارتدائي له ، وثلاث زجاجات من طلاء أظافر برّاق . أولاد الحارة أحبوا صبحي . ولأيام مسترخيات ، بهيجات ، كأنها لم تشأ أن تنتهي ، كان صبحي ملكاً سعيداً .

(٢)

خبّرتني الأيام البعيدات الملتصقات جداً في ذاكرة القلب ، أن المخابئ السرية يا مليكتي حياة ، بل اغفري لي قلة حيلتي وضمور خيالي مقارنة بتطرّف خيال الآخرين وسعة حيلة الناس الحقيقيين ممن عانقوا الحياة وخبّأوها في تجاويف الأيام خشية الفقد المباغت المريع ، وسامحيني على جهلي الذي غذته القراءات الجامدة والكلمات المحشورة في دروب الكلام عسرة الارتياد ، إذا بالغت ، وبالغت ، فبالغت أيضاً ، وقلت لك إنّ المخابئ السرية التي تُفضّ بكارات سريّتها هي الحياة ، بالمسرّات المجتزأة والآلام المبيّتة ، بالفرح الحذر والحزن المستقرّ . إنها الحياة التي تمضي على طريقة . . الحياة .

كانت أمي تبدو دائماً حصيفة ودقيقة لجهة مخابئها ، حتى حين تبدو العملية مرتجلة أو وليدة اللحظة ، فثمة تفاصيل لها علاقة بجزئية محدّدة في المخبأ ، وهي تفاصيل تعكس حساسية خاصة اكتسبناها ، بالعادة حيناً ، وبالألفة حيناً آخر ، وبالإكراه معظم الأحيان ، لجهة استبقاء الفلوس بعض الوقت ليس تقتيراً وإنما تطويلٌ لأمان مؤقت ومطٌ لاطمئنان زائف ،

بحيث يظلّ المال غافياً في مخبئه أطول وقت ممكن قبل أن تطوله يد الضرورة ، بتردّد وكثير حذر وشيء من ذنب وقدر من مخافة أن يتهاوى سترنا المتماسك بالحيلة . كانت أمي تضع مبلغاً من المال ، يُفترض أنه مؤجل لحقب الحاجة القادمة ، في الدرج الرابع للشوفنيرة تحت كومة شراشف الأسرّة الآجلة الاستخدام . وهناك مبلغ ، يُفترض أنه مؤجل لكن ليس لحقبة بعيدة تماماً من حقب الحاجة الكثيرة ، وذلك في درج ملابس أبي الداخلية في دفة الخزانة الثالثة إلى اليمين ؛ ومبلغ آخر ، مخصّص لفلوس الجمعية الشهرية تحت غطاء المشمع السميك في الرفّ الثاني من بوفيه كاسات الشاي المذهبة ؛ وآخر لجمعية الفلوس الأسبوعية في درج الكفاكير تحت طبقة الجريدة المصفرّة التي تبطّن بها أدراج غليّة المطبخ ، وطبعاً هناك المبلغ المخصص للطوارئ وحالات الإنفاق المستعجلة الذي يمكن تناوله من تحت إحدى وسائد كنبات الصالون . ومع أن هذه المخابئ سرية ، أو هكذا هي الصفة التي اتخذتها ، إلا أن بشراً كثيرين يعرفون بأمرها . في مرة كانت جارتنا أم معاذ ، أقرب الجارات إلى قلب أمي بنميمتها التي لا تعدم مسحة عجائبية ، جالسة بثقلها على إحدى كنبات الصالون ، حين مدّت أمّي يدها أسفل مؤخّرتها ، قائلة لها بلهجة آمرة : «حركي طيزك»! فرفعتْ أم معاذ طرف مؤخرتها إلى أعلى ، معلّقةً نصفها في الهواء ، ومواصلةً في الأثناء نميمتها التي تستثمر فيها لغة جسدها بكل دلالاتها البليغة ، لتدحش أمي يدها

تحت وسادة الكنبة وتستخرج خمسة دنانير مطوية ، قبل أن تستعيد مؤخرة أم معاذ وضعيتها الأصلية . ثم حين كانت تتخسّف الوسائد تحت ثقل مؤخرات أربع أو خمس جارات مجتمعات عند أمي ، في عصرية شاي ومعجنات ، نابشات سير الخلائق ، متلمّظات الأسرار الزوجية المتهتّكة ، قد تضطر أمي إلى دسّ يدها تحت مؤخراتهن جميعهن ، تُبحبش في العتمة والدفء المحشور عن دينارين نسيت تحت أية وسادة خبأتهما . تتقلّب النسوة في جلستهن ، ويهتز لحمهن المتكاسل على وقع تنبيش يد أمي تحتهن ، فيملن إلى اليمين ويملن إلى اليسار ، وقد ينتفضن على وقع اختراق يد أمي بقوة حين تجد ضالّتها أخيراً .

وأمي لم تكن تألو نحتاً وئيداً في صخر حياتنا الصلب والمصمت لاستخراج القرش ، كما كانت تستمطره من سماوات الكويت الجافّة . على عسرتها ووعورتها ، لم تكن طريقها تنتهي إلى بوار دائماً ، أعانها على ذلك اعتماد تكتيكات فذّة مثل «تلبيس الطواقي» ، فتأخذ من هذا لتعطي ذاك ، أو تخصم من ذاك لتضيف إلى هذا ، أو قد تسحب من ذاك من أجل تلك . ويقيناً كانت «جمعيات الفلوس» مع الجارات استراتيجية ناجعة ، ولو إلى حين ، وقبل أن تصل إلى مرحلة تضطر فيها إلى عمل جمعية ثالثة أو رابعة لسداد الجمعية الثانية التي تكون قد تصرّفت فيها مضطرة أو تحت غياب مؤقت للحكمة والرُّشد . كانت هناك جمعيات أسبوعية

بدنانير قليلة ، وأخرى شهرية بدنانير أكثر . وكانت أمي - في الغالب - المسؤولة عن جمع الجمعيّات وإجراء القرعة وتوزيعها . وقد تلجأ لها الجارات كي تتوسّط في ما بينهن لتغيير مواقعهن وتبديل أدوارهن المنتخبة بالقرعة ؛ فتمُون على أم معاذ كي تتخلّى عن دورها لأم حسام ، وقد تجعل أم محمد تتنازل عن دورها لأم لؤي ، بعدما تتأكد من أن حاجة أم لؤي أشدّ وأبلغ من حاجة أم محمد ، التي قد تقبل خجلاً كي لا تنبذها جاراتها ، وبعد أن تعدها أمي بأن تكون أول من تقبض في الجمعية التالية ، ذلك أن الجمعيات تتتالى في زمانهن ما دام الزمان يستنسخ الحاجة ويعدهنّ بضيق يد لا تنبسط إلا فيما ندر . وفي مطلق الأحوال ، تتبرّع أمي بدورها لأم هناء ، التي تشكو دائماً قلةً أعظم من قلّتنا .

وهناك طبعاً السرقة ، كخيار يائس لا فكاك منه ، أكثر منه استراتيجية ، إذ تُسدّ سبل التصريف في وجه أمي ، فتمدّ يدها التي درّبتها على سَوْق الحجج والتماس التبريرات - حتى باتت لا ترتعش أو تجفل كما لا تستذكر مخافة الله الذي يراها من فوق سبع سماوات طباقاً - إلى الجيب الخلفي من بنطلون أبي ، فتستلّ من محفظته حفنة دنانير لا يثير اختفاؤها الشبهات ، بخفة المؤمنة الواثقة عن حقّ أن للضرورة القاهرة أحكاماً ، دون أن تناقش مع نفسها أفكاراً لها علاقة بسوء المآل والعاقبة غير المرتجاة . بل إن أمّي طورت ، بموازاة ابتكارات لازمة لتصريف الحياة بيُسر ، آلية مقدامة لسرقة أبي تحت سمعه وبصره ،

مستغلّةً في ذلك صفة ثمينة فيه حسدتْها عليها النسوة المطلعات على حالنا، غير السرية، تماماً مثلما أحوالهن مفضوحة لنا. لقد كان أبي نزاعاً إلى النسيان، فينسى مآل الدينار الذي يغادر جيبه في التوّ. تذكّره أمي في الصباح بفاتورة الكهرباء التي يتعين عليها أن تدفعها حين يأتي المحصِّل في غيابه، فينقدها المبلغ بيدها؛ ثمانية دنانير ونصف الدينار، يعدّها ديناراً ديناراً ونصف الدينار. في مساء اليوم التالي، تحذّره أمّي من مغبة فصل الكهرباء عنا لأنه لم يدفع قيمة الفاتورة. لقد جاء المحصِّل، ورجتْه أن ينتظر يوماً. يرفع أبي عينيه في عينيها مستطلعاً، لكن عيني أمي الجريئتين لا تحيدان ببصرهما عنه، لا تتزحزحان عن ادعاء الصدق، ولا يمكن أبداً أن تنكسا أرضاً، تظل نظرتها المستقيمة غائرة في نظرته الحائرة المشوشة، فتنهار نظرته أخيراً؛ ينكِّس أبي عينيه ثم يضع يده في جيبه، يخرج محفظته، فيعطيها عشرة دنانير بتردّد، مستبقياً إياها في يده المتأسّية محاولاً أن يلتقط نظرة أخيرة كاشفة من عينيها تلتقي وشعوراً متقلقلاً في داخله، آملاً في سرّه أن تقع نظرتها فتتهشّم، ويبين ما وراء ذاك الزجاج السميك، فهو يعرف لكنه لا يستطيع أن يكون متيقناً. لكن عيني أمي لا تسقطان من عليائهما، كما لا تتجرّدان من يقينهما المخيف. بعد ثلاثة أيام، تطلب منه أمي عشرة دنانير! فيثور أبي غاضباً، ويخرج ورقة يحتفظ بها في جيب محفظته دوّن عليها تاريخاً يعود إلى ثلاثة أيام مدعوماً بشرح مفصّل

لواقعة تسليمها عشرة دنانير باليد لتسديد فاتورة الكهرباء . يجاهر بيقينه هذه المرّة : «أعطيتك فلوس فاتورة الكهربا قبل تلات أيام . شوفي! كتبت علشان ما أنسى! فكّرتيني خرّفت؟!» فتضحك أمي ، وتغمز له بعينها : «طبعاً دفعت فاتورة الكهرباء . بعرف إنّك ما خرّفتْ لسّة!» ثم تشرح له ، دون كبير اعتبار من جانبها لثورته التي دعّمها بدليل يفترض أن يفضح سرقتها السافرة ، أن العشرة دنانير للمواسرجي الذي سيأتي غداً لإصلاح ماسورة انكسرتْ في جدار الحمام .

ومع ذلك ، شعور بالذنب ظلّ يخز أمّي في العمق ، وهو شعور كان يتكّشف على سطح أحاسيسها كلّما وقف أبي قبالتها تائهاً في مكانه ، يلقي تلك النظرات الزائغة التي تحاول أن تحفر في عينيها التماساً لحقيقة لا ينالها مهما أجهد بصره وبصيرته . كانت أمّي تتفكّر الشعور وتخاطره بعد انسحاب أبي من مواجهته معها مهزوماً . كان الوخز يجيء ويمضي ، كدبوس منسي في صدر فستانها ، لكنه إذ اشتدّ عليها ذات يوم ، أسرّت أمّي لأم معاذ بما يخزها . أم معاذ أعطتها تلك التطليعة المتوقعة من امرأة لديها زوج يعرف طريق كل فلس يخرج من جيبه : متى يخرج ، كيف يخرج ، وإلى أين يخرج . ثم بصوت طوى بعضاً من غيظ وحسرة وحسد لا يضرّ الصحبة أو يفصم عرى الجيرة الطويلة التي وثّقتها الأسرار الخبيثة المتبادلة قالت : «يا ريت أنا ألطش من أبو معاذ بدون ما يحس فيّ!» لكن أمّي بدت مضطربة حقيقة وخائفة ، معترفةً لأم معاذ بأنها في

بعض الليالي ما إن تمدّد جسدها على الفراش حتى تشعر بشيء ثقيل يكبس عليها، فلا تستطيع أن تتنفس.

ـ والعمل يا أم معاذ؟ أعترف لأبو جهاد وأمري لله؟

منذ الأزل، أقنعتْ أمّي نفسها التي تؤنّبها من وقت متباعد إلى آخر أنها على حقّ، أو على أقلّ تقدير أنها مضطرة للقيام بما تقوم به. فالحياة التي تفهمها غير الحياة التي يفهمها أبي، أو يظن أنه يفهمها، علماً بأن ظنون أبي ليست كلّها آثاماً، هو الذي لا يزال مستغرقاً في البساطة، وفي رواية أخرى العباطة، والتفسيرات السهلة، الساطعة التي لا تحتمل تأمّلاً معمقاً وبحثاً مضنياً. كانت أمي تعرف ما لا يعرفه أبي، وما يجب ألا يعرفه، ذلك أنه من الأفضل لأبي أن يظلّ يرفل في نعمة الجهل المحمود كي لا تسبب له المعرفة الزائدة، أو التي لم يطلبها، وجعاً في القلب والجيب.

أبي لا يتخيّل حتى في أشدّ خيالاته إسرافاً أن فاتورة الكهرباء، التي يدفعها ثلاث مرات - وربما أكثر - ومعها فاتورة المياه وفواتير أخرى متلازمة مع وجودنا، تشتري بها أمي حذاءً رياضياً لأخي، وحقيبة مدرسية لأخي الآخر عوض تلك التي اشتراها له أبي قبل شهرين وتفسّخت دون أن تجرؤ أمي على أن تنبئ أبي بما آل إليه واقعها المزري، وحذاءً أنيقاً مشتهى بكعب عال لأختي التي تصغرني لكنّها سبقتني في استحضار المرأة المترصدة في جسدها قبلي، وقميصاً أحمر بكشاكش وفيرة تؤطر ياقته لأختي الأخرى، وبنطلون جينز أزرق كاحتاً لي

تستبدله أمي عدة مرات قبل أن أقنع به أخيراً، ودزينات جوارب لأبي، وملابس داخلية رخيصة من باعة «الفنايل»، بكل الأحجام، مع فانيلات بيضاء مزدوجة الهوية الجنسية لأصغرنا من الصبيان والبنات، وكريمات لإزالة الشعر الزائد في أجسادنا البنّاتية التي تنمو بتسارع قبل أن نكتشف لاحقاً فضائل عجينة السكر والليمون الأكثر فاعلية في اجتثاث الشعر من جذوره، وكريمات جلّ مثبّتة لشعور الأولاد الذين نافسوا البنات في حصتهن الأوفر في المرآة. كما تشتري أمّي لنا تلك المتع الصغيرة من أطواق شعر وأقراط وقلائد وساعات يد رخيصة، ذلك أن عيش البنات لا يكتمل إلا بها.

وأبي لا يمكن أن يتصوّر أبداً، وتحت أيّ ظرف غرائبي، أن دنانيره القليلة الموزعة دونما استفاضة على مناحي حياتنا الفائرة، يمكن أن تنبت لها أجنحة حين يكون في غيبوبة النوم أو منغمساً في تيهه وغفلته ونسيانه الذي استحال مع الأيام الصعبات إلى شرود، كبديل عن تفكّره بما لا يحب أن يتفكّر بشأنه. كانت الفلوس تطير منه بالدنانير المفردة والخمسات والعشرات، وإن كانت الأخيرة تجبُن وتنكمش على نفسها في المحفظة مخافة ألا تحمل أجنحتها الخفيفة الخفية ثقلها. لكنها جميعها لم تكن تحلّق في فضاء الخلاص طويلاً، فتحتال أمّي على القليل الذي تنهبه لتشتري الكثير الرخيص، بعضه يلزم وأغلبه لا يلزم، لكنه يظل لازماً للحياة السخية المتكاثرة من حولها. كانت تقتني خزائن أدراج بلاستيكية متعدّدة

الاستعمالات توزعها في المطبخ والحمام والممر وغرفتنا لاحتواء دلائل وجودنا المتناثر، من كتب وألعاب وأمشاط وزينة شعر وعلب كريمات أغطيتها مفقودة ووصلات كهربائية وثلاثة مجففات شعر، اثنان منها لا يعملان، وألواح صابون معطر وصابون نابلسي، نتموّن منه من الأردن بعد عودتنا منهكين مفلسين من إجازاتنا الصيفية عند أقاربنا الموزعين في المخيمات والمدن التي تحاذي المخيمات، ومعاجين أسنان وليف للجلي وأخرى للجسم وعلب تايد وعلب شامبو ذات العبوات العائلية الحجم. ولا تتورّع أمي عن شراء ستائر من الخرز تفصل الممر الضيق بين المطبخ والحمام عن الصالون اليتيم المفتوح على الخارج، حيث تتقطع الستائر دورياً، إذ لا تصمد طويلاً أمام أيادينا النزقة المتعجِّلة وأذرعنا التي تمشي كأنها ضائعة في جوارنا وأجسادنا المنتشرة التي ترتطم بعنف في كل شيء أثناء تزاحمها للولوج عبر منافذ البيت الضيقة.

لكن نوايا أمي لم تكن كلها مخلصة في تفسير مفهوم الحاجة والاحتياجات التي شرعنتْ سرقاتها، إذ كان لديها ولع خاص باقتناء التماثيل ذات الهيئات البشرية، وهو ولع أشبعته، أو بعضاً منه، مما كانت يدها تصيبه بخفة من جيب والدي. كانت مغرمةً على وجه الخصوص بتماثيل لبشر جميلين أنيقين: طفلات بفساتين زجاجيّة مزوّقة، ونساء جذابات، شبه مشلّحات، مسكوبات في حجارة ميّاسة، ميّالة، في أزمنة حُسن وغواية وجمال لم تدركها أمّي، وقد

تتخيّل إمكانيّة عيشها بخجل وبقدر كبير من التواري عن أفكارها الواقعيّة ، ورجال فاتنين بشقاوة مبيّتة ، يتبعوننا بنظراتهم أينما التفتنا وتفتّلنا بثقة العارفين بوقع ملامحهم الآسرة علينا ، بنواقصنا الصريحة ، الفجّة .

من بين أصنامها الكثيرة ، التي توزعتْ بإفراط في الفراغات القليلة في البيت ، تعلّقت أمي بتمثال خزفي لراقصة باليه هزيلة ارتدت فستاناً زهرياً ، وقد دلّتْ نصف جسمها العلوي إلى الأسفل تسوّي شريط حذائها الساتاني المفلوت ، دون أن تثني ساقيها الناحلتين ، في محاكاة للوحة عالميّة مماثلة . دوناً عن بقية التماثيل الأخرى ، أفردت أمي للراقصة المنمنمة القوام ، التي ثُبتت ساقاها الرشيقتان في قاعدة خشبية مربعة ، طربيزة كاملة لها وحدها . كانت أمي دائمة التطلع إلى الراقصة ، تتأملها في كل مرة كأنها تراها أول مرة ، تلمس عنقها العاجي الناعم ، وتمشي فوق ذراعيها العاريتين ، وقد تمسّد تنورتها الخزفية كأنها تتحسس قماشة حقيقية من الشيفون المبطّن بالتول النافش ، ذلك أن عيني أمّي كانتا تتسعان فجأة كأنهما مسّتهما حياة صحت من سبات الخزف على غير ما هو متوقع . وكانت أمي تتقافز من الغضب حين ترى أبي ، الذي يصلي في الصالون معظم الأوقات ، قد تعمد إقصاء راقصتها من موقعها المميز فوق طربيزة جانبية في الصالون ، فينيمها على الكنبة ، أو قد يسترها بأي غطاء يقع في يده بحجة أنها تعوقه أثناء الصلاة ؛ فكلّما رفع رأسه من السجود ، طالعته مؤخرتها

التي بالكاد تسترها التنورة القصيرة جداً ، فكان تركيزه يتشتت ، وعقله يذهب إلى أمور من غير اللائق أن يذهب إليها .

ثم انشطرتْ الراقصة نصفين . لم تكن صلاة أبي هي السبب . كانت أمّي تمسح الغبار عن أطراف راقصتها الرقيقة حين انزلقت من يدها ، فوقعت على الأرض وبُترت من الخصر . بكت أمي . كانت تعضّ يديها ، وكانت تجهش في عياط مر . تداخل عياط أمي مع قهقهات إحدى شقيقاتي التي كانت تتابع مشهداً من مسرحية «العيال كبرت» على التلفزيون . اشتبك الضحك بالبكاء ، ثم تفوقت الضحكات الهانئة على البكاء الحانق . ركضت أمي إلى غرفة المعيشة . كانت شقيقتي منبطحة على الأرض ، تقرقر لا تزال ، حين ارتدت أمي وجهاً غير وجهها الذي نعرفه ، ثم داست برجلها الحافية على بطن شقيقتي . تتالى دهسها ، ثم ركلتْها ، بينما كانت تحمل في يد نصف راقصتها العلوي ، وفي اليد الأخرى نصفها السفلي الذي ظل مغروزاً في القاعدة الخشبية . بصعوبة ، تمكنا من تخليص شقيقتي من هجمة أمي ، فيما كانت شقيقتي تحاول أن تستوعب ما حدث أو أين أخطأت ، صارخة باحتجاج :

ـ شو سوّيت؟! شو سوّيت؟!

حين رأينا الراقصة المشطورة بين يدي أمي ، تفهمنا الأمر .

وهكذا ، قرّرت أمي بعد أن شاورت أم معاذ والتمستْ

رأيها ، أن تذهب إلى إمام الجامع القريب ، بعد صلاة المغرب ، لتتبين منه حكم الشرع في أمر سرقاتها التي لها ما يسوّغها تماماً ، باسطةً حجتها وحاجتها بين يديه . في الطريق ، استحضرت في عقلها نقاط دفاعها التي رتبتها بعناية ، مسترجعةً أسبابها التي صاغتها في وجه قرار «التحريم» المحتمل ، والمدعومة بأمثلة سيرقّ لها قلب الإمام ، وقد ينهار معه منطقه الصارم لجهة أنّ الحلال بيّن والحرام بيّن ، فثمة دائماً ما بين بين ، وكثيراً ما ينزلق هذا على ذاك ، أو يتقاطع معه لزوم الحياة .

لكن أمي لم تصل الجامع ، كما لم تستأنس برأي إمامه . رجل فاتن على غير العادة غمزها . خطف قلبها من النظرة الأولى . كان شاباً ثلاثينياً وسيماً ، يرتدي بزة خزفية سوداء ويستند بشيء من الميلان المثير على عمود إنارة عاجي ، واثقاً أن امرأته ستمرّ عليه بعد قليل ، وقد ثبت يده على حافة قبعته المشاغبة مبتسماً من خلف الواجهة الزجاجية لمحلّ التحف الذي تتبضع منه أصنامها . قرأت أمي بطاقة السعر المثبتة على قاعدة الرجل الخشبية . كان بتسعة دنانير ونصف الدينار .

على سفرة عشائنا السخية ، بالأيدي الكثيرة المتقاطعة المتسابقة ، ذكّرت أمي أبي بأن يعطيها عشرة دنانير للمواسرجي ، الذي سيأتي لإصلاح ماسورة انكسرت في حائط الحمام . حكّ أبي دماغه محاولاً أن يتذكّر ما إذا كان قد أعطاها أول أمس عشرة دنانير للغرض نفسه أو لغرض مشابه ؛

يتلمّس في محيط من الحيرة والتيه والعمى ، لكنه لا يستطيع أن يتذكر .

في الأثناء ، تواصل أمي تناول طعامها بارتياح ، كما لو أنها ملكة سعيدة ، بل كما لو أنها أسعد مخلوقات الله على الأرض .

(٣)

مهلاً يا ملكة أيامي الذاهبات والآتيات . . مهلاً . .

إيّاك وأنْ تغرّكِ نفسكِ الطرية لاعتقاد ما لا يجوز اعتقاده ، والسماح لعواطفك حديثة التكوّن وآرائك التي في طور التقسّي - حيث الحقّ والحقيقة بيّنان وقاطعان - بأن تصوِّر لك أنّ أبي يجنح إلى الحرص المقيت الذي يُشارف الشحّ ويقارب البخل ، أو أنّه مقتّر لأسباب تستدعي التقتير ، فالوفرة ، ما خلا وفرة العيال وما استتبع الأمر من وفرة في الاحتياج ، ليست من خصال وجوده ، كما أن السعة لم تكن أبداً من حسنات حياته ، دون أن تكون حسنات حياته حسنة تماماً .

ربما عليّ أن أشرح لك ، كي لا يذهب فكركِ إلى غير ما أردتُ أن أبيّنه لك ، وكي لا تكون العبرة غابت عنكِ في النقطة التي توقفتُ عندها في ليالي الحكي الماضيات . كلا ، وأبداً . أبي لم يكن يضمّ يده ، رغم ضيق يد الله المبسوطة فوقنا ؛ والمال القليل الذي يمطر عليه قطرات متباعدة ، لم يكن يروي أرضنا الظامئة ، كما كان يتبخر ما إن يلامس سطح حياتنا ، ذاهباً في أحايين كثيرة في أوجه ليست هي الأوجه

الواجبة ، وفي تصاريف ليست ملحة ، وفي قنوات ليست ضاغطة تماماً ، مخالفاً مبدأه الجوهري «يللي معهوش ما بيلزمهوش» ، ومناقضاً في أوقات شدّتنا المتكرّرة تفسيره السلفي للضرورة . وفلوسنا الناقصة منذ المبتدأ كانت تنقص حتى قبل أن تصل إلينا ، فالحياة لم تكن لنا وحدنا وحيوات آخرين كثيرين ، بقدريّة مجحفة ، ارتبطت بحياتنا . بل إن كرم أبي - في غير وقته - أوشك أن يهزّ عماد بيتنا ، المتماسك بصعوبة ، مرات لا محدودات .

هل حدثتكِ عن تلك الليلة التي هجمتْ فيها أمي على أبي ، فعضّته من خده ثم طوّقت يداها اللتان تشرّبتا كل الغيظ والقهر في العالم عنقه؟ كاد أبي يموت خنقاً وانسحاقاً تحت جسد أمّي ، الذي ثقّلته كثرة الخلفة واحتيالاتها على العيش ، لولا أننا تدخّلنا ، ففككناها عنه بصعوبة . اسمعي إذن :

كان أبي يعمل فنّي كهرباء في دائرة صيانة مباني وزارة الصحة الكويتية . راتبه لم يزد باطّراد يتناسب وزيادتنا عدداً وطولاً وعرضاً وطلبات وتطلّباً وحلماً واحتلاماً ونقمة . إذ بلغنا نصف عددنا ونصف حياتنا التي آلت إليها في ما بعد ، باعت أمي مصاغها وأعطته لأبي ليتشارك مع زميل له في الدائرة في فتح محل صغير في حولّي لتصليح الأجهزة الكهربائية من تلفزيونات وثلاجات ومسجلات ثم أجهزة فيديو .

وإذن ، في ليلة غير رومانسيّة ، ترسّبت في ذيلها الذي كنس الشوارع شقباءات نهارية كثيرة ، وارتفع فيها شخير أجهزة

التكييف النافرة من جدران الصناديق البشرية - المسماة مجازاً «شقق» - رأى أبي كياناً متكوّماً على الرصيف . كان عائداً من المحلّ . سيّارته تعطّلتْ كالمعتاد ، فركنها - كالمعتاد - في أول فراغ صادفه ، قاطعاً ما تبقّى من مسافة إلى البيت سيراً على قدميه . في الصمت المكلّل بإضاءة شارعية باهتة ، ارتفع صوت يشبه بكاءً محشوراً . اقترب من الكيان . كانت عجوزاً ترتدي ثوباً شديد الشبه بثوب أمه ، وحذاءً أسود ممسوح الكعب ، يشبه حذاء أمه الذي تقطع به طرقات المخيم المتعرّجة برشاقة ، رغم الكرب الكثير الثقيل الذي يبّس جسمها . كأن العجوز ، التي تشبه أمه في وجهها المثلث ، وملامحها الناطقة بحياة مستلفة في ما تبقى منها ، كانت تنتظره يسألها عن حالها . حدّثته ، دون أن يسألها ، عن أشياء عديدة ؛ عن الأراضي التي دشّروها في البلاد ، عن فرس بيضاء اعتلتها وهي عروس ، عن ليرات ذهب جديدة بلمعان فائق ارتصّت على جبينها العريض ، حتى إذا تمايلت فوق الفرس كانت كأنها الشمس نازلة من السماء ؛ حدّثته أيضاً عن بنادق علّمها المرحوم (افترض أبي أنه زوجها) كيف تنظّفها وتشحّمها ؛ عن سجادة من أشجار الزيتون مفروشة حتى آخر سحبة العين ؛ عن تلال من شوالات الدقيق والحبوب ؛ عن خير كثير في الجرار ؛ عن زيت فوّاح ؛ عن هواء سيّاح نيّاح . ثم تعثّر صوتها الجريح في حلقها .

توقّف أبي ليستجمع أجزاء الواقعة الليليّة . تحايل على بضع دمعات كي تظل حبيسة في عينيه . كانت أمي لا تزال

في وضعية انقضاض محتمل ، حيث انقسمنا إلى فريقين : الأول ، وأنا معهم ، للجمها ؛ والثاني الذي تألّف جلّه من النصف الأصغر من الأشقاء ، لحماية أبي من تبعات غضبها الذي لم تسكن عاصفته بعد . ما فهمناه من أبي ، الذي غاض صوته في ماء حلقه ، أنه فهم من المرأة التي تشبه أمّه أنها أرملة تقيم مع ابنها وزوجته وعيالهما الستة ، وأن ابنها «تفنّش» من عمله في إحدى شركات الشحن البحري قبل بضعة شهور ، وأنهم يعيشون على الإحسان اليسير ، وأنهم يقيمون في ملحق من غرفتين في عمارة ، وأن مالك العمارة يدقّ عليهم الباب ، كل يوم وكل وقت ، يتوعّدهم بأن يرميهم في الشارع إذا لم يدفعوا الأجرة المستحقة عليهم منذ ثلاثة شهور . غطت المرأة التي تشبه أمه وجهها المثلث بكفيها تداري خزيها من زمان أقعدها على رصيف في ليل ترنّخ بالرطوبة ورواسب نهار شقيّ في بلد ليست كالبلاد ، ثم بدأت تشدّ وجهها بأصابعها الناشفة ، فركع أبي عند قدميها ومدّ يده إلى جيبه وأخرج تسعين ديناراً ، هي كل ما معه ، وضعها في حضن العجوز التي تشبه أمّه ، ومضى .

مسح أبي دموعه التي تململتْ في عينيه براحتي يديه ، ثم رفع وجهه نحو أمي :

- بس لو إنك شفتيها! يا الله قديش بتشبه أمّي!

ارتخت أمي . شعرنا ذلك من جسدها الذي تراجع إيقاع غضبه وتضاءل تشنّجه . بعينين زجاجتين ، لم تحملا أيّ

معنى ، لم تنطويا على سطوع أو حتى انطفاء ، كما لم تبيّنا أي شعور من أي نوع ، نظرت أمي إلى أبي قائلة بتشديد بيّن على كل حرف :

ـ كُس أمّك!

يُفترض أن الفلوس القليلة التي يجنيها أبي مقسّمة على ما يستلزمه وجودنا الكثير ، الفضفاض الفياض ، فتغطّينا دون أن يكون التكشّف غير وارد . دخله من محل تصليح الأجهزة الكهربائية لم يُدخل فرقاً جوهرياً على حياتنا . بل كثيراً ما يكتفي المحل بالصرف على نفسه فقط ، وبشقّ النفس ، فتمسح أمي ذراعيها العاريتين ، وتحرّكهما في الهواء ، بشيء من الهزّ وشيء من التّرقيص ، استحضاراً لبريق ثمين بعيد وضجيج معدنيّ يلمعان في ذاكرتها ، مذكِّرةً أبي - الذي لا يريد أن يتذكر - أنه للآن لم يعوّضها بدل السوار عشرة كما وعدها . إلى جانب تلبية شروط وجودنا الغزير ، كان جزء من فلوس أبي يذهب لجدتي فاطمة وعمتي نجاح . ولم يقتصر الأمر على مصروف المرأتين : إحداهما تنتظر ختاماً حَسَناً - بأخف ما تبقى من الأضرار الحياتية وأقل الأمراض الممكنة - وأخرى تستعجل خاتمة لعزوبيّتها القهرية . من وقت مباغت لآخر ، كان أبي يرسل لجدتي فاطمة مبلغاً يفترض أن يُستثمر في «تزبيط» زواج محتمل لنجاح . كانت جدتي تنطلق إلى مكتب البريد في المخيم ، تجري اتصالاً مدفوعاً من الطرف الآخر - الذي هو أبي - وتطلب منه بصوت عابق بالانشراح ، يؤمل بدنوّ الخاتمة

السعيدة المرتقبة لنجاح ، أن يرسل لها مبلغ مائتي دينار . في مرة طلبت جدتي ثلاثمائة دينار! كان العريس المأمول رزق الذي يعمل مهندساً في السعودية . نتفت جدتي شارب عمتي نجاح الظاهر وسالفيها الزغبيين ، وجعلتها تفرد شعرها البنيّ بتموجاته الكثيرة بسبب تضفيره الدائم ، واشترت لها قلادة حلبية وسوارين وقرط ثريا من الذهب ، كما اشترت لها فستانين جديدين ، وذلك كي لا تظن أم رزق أن نجاح على باب الله ، أو أنها تنتظر كسوة العريس ومصاغه . بل إن جدتي ألمحت إلى أن العريس ابن الحلال التقيّ الرضيّ الذي يخاف الله في نفسه وفي أهل بيته «ينشرى» بالمصاري . وأم رزق كانت تثنّي على كلام جدتي وتمسح بيدها على شعر عمتي نجاح في كلّ مرة تزورها فيها جدتي ونجاح ، التي كانت هيئتها تشي بالجِدّة والفرح ولمعان المعدن الثمين غير المستهلك في زمن الفرج المفاجئ . في نهاية مشاوير الرواح والمجيء ، قدّمت أم رزق لجدتي ولنجاح حلوى النوغة المعجونة بالمكسرات ، ابتهاجاً بخطبة رزق ، على ابنة خالته .

كذلك ، لم تعدم الأيام الضيقات اضطرار أبي إلى أن يرسل مالاً متقطعاً لعمي أبو تيسير الذي تنقّل بين كل محال بيع الخضار في مخيم الوحدات ، كبائع اشتهر بنوبات غضبه المستعرة ، خصوصاً إذا جادله زبون أكثر من اللازم - وفق تصوّره لما ليس لازماً - فيقدح رأسه كبابور محشّر كاز قبل أن يشتعل ، وغالباً ما ينتهي الأمر بأن يضرب رأس الزبون بكيس البطاطا

الذي وزنه للتوّ إذا ما جادله بأن الميزان لم يسجل ثلاثة كيلوغرامات مكتملة : «شو رأيك هلأ؟ حاثث (حاسس) أنه تلات كيلو بطاطا خبطتْ راثك (رأسك)؟» كان عمي أبو تيسير يلثغ بحرفي السين والصاد فيلفظهما ثاء . وقد لا يتحرّج في التطاول على النسوة اللاتي يفرين الروح ويُسمِّمْن البدن بمماحكتهن ومفاصلتهن وانتقائهن الخضار بالحبة ، وسرعان ما يفقد صبره معهن ، هو غير الصبور في المبتدأ ، فيقترح بعد كثرة برم من طرفهن وتبرّم من طرفه على الواحدة منهن بأن تنضبّ في بيتها أو تنقلع من وجهه قبل أن . . . ويترك بقية الوعيد لعينيه اللتين تلتهبان في تجويفيهما حنقاً . بل سُجِّلت واقعات عديدة عمد فيها عمي أبو تيسير إلى التهجّم على صاحب المحلّ نفسه إذا تنرفز عليه الأخير في موضع لا يوجب النرفزة ، حسب اقتناع عمي ، أو طلب منه شيئاً بنبرة بدتْ له في غير موضعها ، وفق تفسيره الضيق للتنبّر ، أو بدا له متطلباً وتجرأ أكثر من اللزوم ، على اعتبار أن كونه صاحب المحلّ لا يمنحه الحق في التطلب ، فما بالك بالتجرّؤ! وكثيراً ما استدعى الأمر تدخّل الباعة في المحلات المجاورة للفصل بين عمي أبو تيسير ، بجثته السميكة التي تشيع الرهبة في النفوس التي تجهله قبل أن تتكشف طيبته - أو هبله كما تصفه جدتي فاطمة - وبين صاحب المحل الذي ينكمش رعباً في موضعه . فإذا انتحى الرجال بعمي أبو تيسير بعيداً ، وقد يستدعي الأمر أن يحمله رجلان أو ثلاثة خارج المحل ، انتفش صاحب المحل ثانيةً ، وقد

زال الخطر ، مكتسباً حجماً وهمياً أكبر من حجمه الطبيعي ، ليلحق بالرجال الذين يحملون عمّي أبو تيسير ، صائحاً بثقة الآمن من الخطر :

ـ ما بدّي أشوف وجهك في المحل .

يكون عمّي أبو تيسير ، الذي يحمله ثلاثة رجال ، وتداً مغروساً في فضاء أعلى من فضاء الرجال كأنه يقود تظاهرة في الشارع ، فيردّ على صاحب المحل بصوت هادر :

ـ لطيزي!

بالنسبة لأبي ، فإن العالم لم يتغيّر بين الأمس واليوم ، حتى وإن كان الأمس عمره عشرون عاماً أو تزيد . أيُعقل أن ينام ويصحو ليجد أن الدينار لم يعد يشتري اليوم ما كان يشتريه البارحة؟ في إدراكه الواضح الخالي من أية تعقيدات ، الراقد في ماضٍ هانئ يلحق بالحاضر ببطء ودونما تغيير يُذكر ، كان عُهر أمي التي تطالبه بما يفيض عن ضرورات الحياة سافراً . بربكم ، أي حذاء هذا الذي يساوي عشرة دنانير؟ «فجْرتِ والله» ، كان يقول لأمي في وجهها حين تستعرض أمامه حوائجنا ومستلزماتنا الملحّة لحياتنا . ويكاد يقسم متشكّكاً وضائعاً ، وقد التبستْ عليه أفكاره واختلطتْ المشاهد والوقائع في رأسه ، أنه أعطاها قيمة فاتورة الماء ، لكن أمّي تقسم بإيمان أغلظ من إيمانه أنها لم تأخذ منه فلساً أحمر . يعود أبي إلى جيوبه ، شبه الفارغة ، كي يتأكد مما لا يستطيع أن يتأكد منه ؛ يعود إلى حقيبته السامسونايت المقلّدة التي يحبّ أن يحملها

حين يذهب في العصر إلى محله لتصليح الأجهزة الكهربائية . في الحقيبة إيصالات قديمة وقوائم تسوّق بخط أمي الطفولي ، وأوراق غير ذات أهمية يوحي وجودها حين يفتح الحقيبة أول مرة بشيء من الأهمية وجدّية عمله ، وكتالوغات أجهزة كهربائية ، وشبشب جلدي محشور في أحد جيوب الحقيبة الداخلية ينتعله في المحل حين تبدأ الحرارة والرطوبة تفترس أصابع قدميه التي أكلتها الفطريات داخل الحذاء ، إضافة إلى قليل من مال يخبّئه معه في أيام اليُسر الشحيحات جداً للأيام كالحات السواد رفيقات المجهول ، ضامناً ، ما دامت الحقيبة معه ، أنها بمنأى عن يد أمي المتطاولة ؛ فأمّي - لمن لا يعلم - لم تكن تكتفي بالاقتيات على ذاكرة أبي المنخليّة وجيوبه المستباحة ، بل كانت تتجاسر على حقيبته السامسونايت في المرات القليلة التي كان يتركها في البيت ، فاكة شيفرتها السرية المؤلفة في العادة من ثلاثة أرقام ، وهي أرقام كان يتعمّد أبي أن يجعلها سهلة التذكّر ، وسهلة التوقّع ، إدراكاً منه لطبيعة ذاكرته المخرّمة ، كأن تكون ثلاثة أصفار مثلاً أو رقماً متسلسلاً مثل : ١ ٢ ٣ ، ما يجعل أمي تصيب الرقم السري بعد محاولات قليلة ودونما اجتهاد يُذكر .

أبي لا يعرف أننا نكبر بسرعة ، وأن قمصاننا وبنطلوناتنا وفساتيننا وأحذيتنا ، وحتى ملابسنا الداخلية ، التي نتوارثها تتقلّص على أصغرنا قبل أكبرنا ، وإذا ما اتّسع ثقبٌ في الجاكيت أو استطال فرطٌ في البنطلون ، فذلك لأن كيمياءنا

تمارس هي الأخرى تبدّلها وتقلّب أمزجتها ، فكيف لأبي أن يقدّر أو يستوعب الحقيقة أن أجسامنا الشرهة تأكل ملابسنا ؛ تعضّها ، تشقّها ، تمزعها ، فينتهي عمرها الفعلي قبل عمرها الافتراضي ، فلا تعود قابلةً للتوريث أو للتكييف؟! ثم كيف له أن يفهم أن أقدامنا التي تعرَض بين عشية وبضع عشيات أخرى لا يمكن أن تظلّ محشورة في قوالب الأحذية إيّاها إلى أبد الآبدين؟! أبداً ، لم يكن أبي بخيلاً أو مقتّراً ، كل ما في الأمر أن قراءته لعدّاد الحياة لم تتغير ، فنحن أبناؤه نظل خلْقه الجميلين ، كائناته التي لا تكبر مهما كبرنا رغم استهلاكنا كميات مهولة من الطعام . ولعلّ أبي كان مهدراً رزقنا الشحيح بطريقته ، خصوصاً حين كان يغزو «شبرة» الخضار يجرجر نصفنا وراءه لمساعدته في حمل سحّارات البندورة والباذنجان والكوسا والقرع والفلفل الأخضر والخيار والليمون وشوالات البصل والبطاطا وصناديق موز تشيكيتا والتفاح الأميركي الأحمر ذي الأسطح القانية اللمّاعة والبرتقال والمندرين والبوملي والكيوي والكاكا - فاكهة أمي المفضلة - والسفرجل الذي تصنع منه أمي مرباها الذي تشتهر به ، والبطيخ العراقي والجبَس الحلبي والعنب بألوانه المتدّرجة بين الأخضر والأحمر ، والصبر والبلح البرحي ورؤوس جوز الهند بعصيرها الحليبي . وفي حال تشهّينا فواكه في غير موسمها ، جال أبي على المحال التي تستورد الفاكهة المعزّزة المكرّمة ، ذات الهندسة الطبيعية دقيقة الخلْق ، تعرضها حبات منتخبات في أطباق مغرية مغلّفة

بالنايلون . أما الجمعيات التعاونية فكانت مسرحاً لغزوة أسبوعية لنا ، فنعبّئ عربتي تسوّق من المجمّدات والمعلبات والأجبان والألبان واللحوم المبرّدة وكل ما يُشترى بالدزينة والعبوات العائلية وعروض التوفير كشراء طبقي بيض بسعر طبق ، أو ست كاسات جبنة كرافت دهن معاً بثمن أربع كاسات مفردة . وبما أن ثلاجتنا الـ٢٢ قدماً لم تكن تفرغ ولم تكن تستوعب طعامنا الكثير ، الذي «يا دوب» يشبع قبيلتنا الجائعة على الدوام ، اشترينا مجمدة وضعناها في الممر الواصل إلى المطبخ والمفتوح على غرف البيت الثلاث ، تتّسع لأكياس مكدّسة من الخضار والدجاج وأكياس لحم مقطع في عبوات متساوية تشكّل في مجموعها خروفاً هو حصتنا الشهرية .

كان الطعام ، وتحديداً إطعامنا ، متعةً بالنسبة لأبي . والمتعة الأعظم عنده أن نفترش الأرض بعد عودته من المحلّ لنتعشى ، فينادي علينا بالاسم ، ولا يطيب وجوده الذي يبدأ بنا وينتهي بنا حتى نغمره جميعاً بوجودنا المسهب في مساءات خالية من مسحة أفول ، ثملة باحتمالات الحياة حتى مع هناتها . يتابعنا بعين راضية ونحن نمدّ الأيدي النهمة إلى الأطباق الكثيرة . يقشر البيض المسلوق للأضأل حجماً بيننا كي لا نضيع وقتنا في عدم الأكل ، أو كي لا يسلب الأضخم منّا حصة الأصغر ، ويقرّب الأطباق المترفة ، كالجبنة البلغارية البيضاء ولحم البولوبيف المقلي مع البصل والمرتديلا والزيتون الأسود اليوناني «الكالاماتا» للأيدي الأقصر . يتخلّف أبي عنا في العشاء فلا

يبدأ إلا بعد شوط من بدايتنا . وحتى حين يمدّ يده ينتقي الأطباق غير الرغيدة أو تلك التي تتأبّى عنها نفسنا الانتقائية . يكون أبي سعيداً لأننا نأكل ، نأكل كثيراً ، فنسمن تحت سقفه ، في مساحته المتقلّصة جغرافياً الشاسعة عاطفياً . بحسب قناعات أبي الراسخة ، نستطيع أن ننام عراة ، لكننا لا نستطيع أن ننام جائعين .

عينا أبي تتابعان هجْمتنا على الطعام بحنوّ وحبّ . يكون يا مليكتي ملكاً مغتبطاً بشعبه الذي لا يريد لهم أن يشبعوا .

(٤)

أمّا أنا يا ملكة الملكات ، فأنا هي أنا : ابنة أبي الحائر ، دون نيّة صادقة من جانبه لتبيّن طريق الهداية الوجودية ، وابنة أمي المتحاذقة على حيرة أبي ، المُقتاتة على ضلاله ، المتحايلة على الحياة ، بقدر ما يسمح لها ذكاؤها الفطري وتعليمها المحدود والاجتراحات المتأتّية من الحاجة . لقد كبرتُ على انتشار لحم بشري وافر في بيت ضيّق ، واصطدام الطلبات وتشابك الأمنيات ، وطعام كثير لم يُسمنّي كثيراً ولم يُغْنِني عن رغباتي الشرهة ، واحترازات أكثر من مآل لا نبتغيه للمال ، حيث احتمالات فقده مؤكّدة ، حتى وهو مزمومٌ ومصرورٌ ومضمومٌ في دخلات المخابئ السرية وانعطافاتها .

توقفتُ عن تخبئة وريقات المال في طيّات الكتب ، بعدما شكّلت مرجعاً - لا يُقرأ بالضرورة - لشقيقاتي في البيت ، اللاتي وقعن ذات صدفة لم أحتط لها ، على خمسة دنانير في رواية «سرد أحداث موت معلن» ، تهاوت من يدي حين غفوتُ أثناء القراءة . كنتُ طويتُ ورقة الدنانير الخمسة في الصفحات التي كان سانتياغو نصّار لا يزال يملك فيها فرصة للنجاة رغم

العنوان غير الملتبس . منذ ذلك التاريخ ، استغنيتُ عن صفحات الكتب كمخابئ نبشتْها شقيقاتي ومعهنّ أمي سطراً سطراً ، واكتفيتُ بحقيبة اليد التي كانت تحمل كلّ ثروتي أينما ذهبتُ ، ساعدني في ذلك أنّ ثروتي لم تزد في أحسن الأحوال على بضعة دنانير وفراطة معدنية . في البدء ارتحتُ للحقائب النسائية الكبيرة ذات الجيوب الداخلية الكثيرة ، أوزّع الفلوس في كلّ جيب فأترك القليل للجيب القريب وأخبئ الأكثر ، الذي يظل قليلاً أيضاً ، في المخابئ الجوانية جداً ، مع استخدام جزدان للفراطة ، لا لمداراة فلوس عن أخرى ، وإنما لتأخير إنفاقها ، وبالتالي دفش الشعور بالحاجة مسافة أعمق في اللاشعور ، وحمايتها من إمكانية أن تُفقد ضمن إحساس بالفقْد ، فقْد كلّ الأشياء الساكنة والمتحركة ، استوطن فكري ولازمني في كلّ تنقلات حياتي ، أنا التي لم أحاول أن أعثر على شيء بقدر ما كنت أخشى فقدانه .

ثم استحسنتُ حقائب الكتف الجامعية الطابع ، التي توحي بإطلالة شبابية مرتخية ، بطيّات داخلية وأخرى خارجية لا متناهية ، تؤوي مسرحيات ويليامية صعبة الهضم مثل «هاملت» شكسبير و«حبّ من أجل الحبّ» لكونغريف ، ضمن مقرر الدراما الإنجليزية الإلزامي ، ومقالات أدبية مقصوصة من ملحق ثقافي ، معلّم على مقاطع منها بقلم أحمر ، ومجلة «الآداب» مثنيّة يبين عنوانها الجليل من إحدى طيّات الحقيبة الخارجية ، وقصاصات ملونّة تضم كتابة ذات أفكار مُحدثة ،

على غرار النعمة المُحدثة لا الحداثة ، وأقلام رصاص كثيرة فقدتْ ممحاتها أو مُضغتْ أطرافها بفعل أفكاري التي كانت تجعجع في رأسي دون أن تعطي طحناً له قيمة ، وذلك ضمن توهّم عجيب من جانبي لا مرجعيّة له في الأيام البعيدات أن الكلمات العظام قد تتنزّل عليّ من عوالم الإلهام في أية لحظة ، وبالتالي عليّ أن أتمتّع بجهوزية عالية ، فيكون وعائي الكتابي حاضراً لتلقّفها ، دون أن يعني ذلك أنني استفقتُ اليوم من أوهامي ، كما أنني لم أتلقّف الكثير القيّم من الكلمات المُنزلة . وما نزل عليّ لم يمنحني سعادة أو فهماً أو إشراقاً ، بل في أحيان كثيرة كلماتي ذاتها زادتني قتامةً وضياعاً وضلالاً .

علّمني أبي من خبرته المستفيضة في الضياع والتضييع مراعاة احتياطات وقائية لازمة ، كأن تكون الحقيبة بذراع طويلة تسمح بتعليقها من جهة وتتدلّى من جهة أخرى فلا يكون من اليسير نتشها من اليد في بلاد غريبة لا نعرفها ولا نعرف متى قد تتلقفنا . كما تعلّمتُ أن أوزّع الفلوس في المساحات القليلة المرافقة لوجودي المُرتحل ، فلا تكون حقيبة اليد هي الخزينة الوحيدة المتنقّلة . تجنبتُ إيداع الفلوس في جيوب الملابس الخارجية الظاهرة للعيان ، سهلة النفاذ إليها من الأيدي الخفيفة ، ودسستُ بعضاً من ثروتي في تجاويف أحذيتي المظلمة وقد لففتُها بمناديل ورقيّة كي لا تنتقع برائحة العرق المتخمّر لقدمي ، كما غفتْ بعض الدنانير في النهارات الخدرة على فرشة ثديي اللذين أدركا الأنوثة في موعدهما الطبيعي ،

لكن حصافتهما - حتى في مرحلة تالية - لم تبلغ أبداً حصافة ثديَي خالتي رحمة بالغي الاكتناز، بليغي التعبير، هائلي النشور، فائقي السعة: سعة الحنان وسعة المال. وبكل يقين، فإن خبرتي في هذا المجال لم تضاهِ خبرة الخالة. في بعض الأوقات، يتخدّر إحساسي بمالي النائم في عبّي الفتيّ، ويأخذني الحكي الحماسي شبه الثوري على الحياة والمدرسة - الجامعة، كمؤسسة نظامية رسمية، والله الذي أحاول أن أفككه، والآباء، الوجه الآخر لله القادر كما العاجز، فأتكلّم كثيراً ويتكلّم جسدي. أتأمّل قليلاً، ويسكت جسدي على مضض، محاولةً أن أستوعب كلام الآخرين أو أدّعي ذلك. ثم أجلجل ضاحكة على نكتة بذيئة. في الأثناء، ترتفع نبرة اللحم القليل المحشور في صدريّتي ثم ينبز طرف ورقة نقدية من فتحة بلوزتي، تفلت من الصدرية بضجر، ترمي عنها دفء الثدي في غمرة انفعالاتي غير المنهجيّة، فتلتقي وعيون الزملاء والزميلات ورفاق النقاش الذين يصيبهم المنظر بدهشة، تُستعاد معها حكايات الخالات والعمّات مع خزائن الأثداء الموصدة. أما أنا فكنتُ خالة خائبة، كما تضاحكوا علي.

في لياليَّ التي لم تسمح بكثير شرودٍ أو أي أفعال سرية من مقتضيات النمو العاطفي والتفريغ الجسدي، بسبب الكثرة الإنسانية المتنافسة على حيّز منكمش، أدفن المال تحت فراشي. في أماسي الشتاء التي يصفع فيها المطر نوافذنا المسترقّة، كانت أصغر شقيقاتي تطير من سريرها لتحطّ على

سريري ، متكوّمةً بلحمها إلى جواري ، معابثةً مساحتي بأعضائها اللطيفة . يظلّ المطر يصفق حوائطنا من الخارج ويكون على وشك أن يخزقها ، وأحلم بأنّي أتقلّب في شراشف بَحْرية يزيدها ماء السماء بللاً ، حتى إذا استيقظتُ تفقدتُ فلوسي التي انتقعت بشخاخ شقيقتي الذي لم يتوقف عن الهطول طوال الليل . أقف عند نافذة المطبخ ، ألتمس صباحاً وقفت الشمس على حدوده ، وقد خفّت أعراض الشتاء ، وشلحت السماء سحبها بياقاتها الصوفية الداكنة . أفرد الوريقات على حافة النافذة أنتظرها تجفّ ، بينما أشرب القهوة الساخنة التي يتداخل بخارها الشهيّ مع رائحة صنّة صباحية عارمة مبعثها بيجامتي ، والفلوس التي يمسحها هواء غير آثم يعلن بدايات اليوم .

ثم إذ زادت الفلوس - دون أن تزيد كثيراً - وزادت احتمالات الفقد ، طوّرتُ مخبأً مضموناً بدا لي حصيفاً ، واعتمدته سنوات في عمري الذي حملته أكثر مما حملني . فقد اشتققتُ مفهوم خزنة سريّة متنقّلة من خلال تحويل فردة جورب صغير إلى جراب أضع فيه الفلوس ، ثم أثبّته بدبّوس داخل سروالي الداخلي . وهو مَخبأ لا فضل لي في ابتكاره ، بل أشارت عليّ به مريم ، معلّمة اللغة العربية وزميلتي في المدرسة التي عملتُ فيها ست سنوات في الرصيفة في الأردن . راقتْ لي رفقة مريم من اليوم الأول ، كانت مؤمنة مفترضة - ككلّ المعلمات - وملتزمة بحجاب اجتماعيّ

متكامل لكنها كانت أقل تمنّناً على الله وعلى الخلق من غيرها بإيمانها، فلم تدْعُ لي بالهداية اللازمة، ولم تر في حملي لقب مطلّقة مبكّراً سبباً يدعو للحذر النسويّ مني، كما كانت أقلّ يقيناً وأكثر تساؤلاً في طبيعة العلاقة بينها وبين الله من جهة، وبينها وبين الشعائر الكثيرة المفترضة من جهة ثانية؛ فما حاجة الله العاقل المتدبّر أمره دوننا لكل هذه الشكليات التعبديّة؟! لكنه حين يرتفع صوت القرآن في فضاء قريب من فضائها، معلناً موت أحدهم، تجزع مريم، فتستغفر ربّها كثيراً، وتقبل على كل الطقوس والشعائر، السنن منها قبل الفرائض، حتى إذا ذوى الخوف وتراجع ذكر عذاب القبر وتهاويل جهنم في جلسات التحريض على الإيمان والتوعد، عادت مريم إلى عادتها القديمة في التساؤل ومجانبة اليقين. كانت ظريفة، مرحة ولمّاحة، بضحكة لا تفارق وجهها الفلاّحيّ البياض إذ تغشاه حمرة فطرية لم تهذّبها مستحضرات التجميل العصرية. اعترفتْ لي بأنها تتوقف عند بسطات بيع الكتب المستعملة في السوق لشراء روايات، تدخلها البيت من وراء ظهر زوجها، وأنها تحب اقتناء الصحيفة من الدكان في الصباح، ذلك أن رائحة الورق تثيرها. سرّبتُ لها كتباً أخرى غير الروايات، فكانت تقرأها بنهم، ثم تأتي إليّ تناقشني في ما فهمت أو تحاول أن تفهم، مدونةً ملاحظات على دفتر صغير مدسوس في دفتر تحضير الدروس.

حين توطدتْ علاقتنا، وسط استغراب الزميلات من

مشي المؤمنة والسافرة معاً ، فتحت لي مريم أسراراً قديمة تصدّأت ، عن رجال أحبتْهم ، وعن كلمات كتبتْها ، وخواطر ظلت عالقة في حبال خيالاتها التي تقطعتْ . كانت تسخر من نفسها قدر سخريتها من الناس ، ولم تظهر حماسة لمهنتها التي أقبلت عليها بوصفها الخيار الوحيد المتاح لامرأة يُراد لها العمل في بيئة حريمية متآكلة عقلياً والزواج والحبل وتوقيت الإنجاب أثناء شهور العام الدراسي ، متجنبةً المواقعات الزوجية التي تقود إلى حبَل في غير وقته وإنجاب عبثي في إجازة الصيف الطويلة ، وحساب الأيام بالدقائق والأصابع حتى موعد تقاعدها المبكّر المأمول ، كي تتفرغ لتربية بناتها الثلاث والصبي الوحيد الذي جاءها أخيراً لإسكات نقّ حماتها عليها ، وربما إنجاب صبي ثان مراد ، وثالث لمزيد من الرضا . اكتفت مريم بتقديم الحدّ الأدنى من المنهاج متكئةً على حكمة مفادها : «الخاري والكاري(*) واحد» ، وتوقفت - كما معظم المعلمات - في العطاء المكرهة على عطائه عند مرحلة أو مرحلتين دراسيتين ، فكانت تخرج من معركة توزيع جدول المعلمات في بداية العام الدراسي منتصرة بصعوبة ، محتفظةً بالصفين السابع والثامن دون تبديل منذ التحاقها بسلك التدريس ، وسط ملحمة من الصراخ والشجار والعراك والشتم الذي ينتهي ببكاء معلّمات تلبسن غصباً عنهن صفوفاً دراسيةً أعلى ، تتطلّب تحضيراً واطلاعاً على

---

* الكاري : أي «القارئ» باللهجة القروية الفلسطينية .

منهاج جديد عليهن ، وقد تتطلّب استدراك علم فقدنه ، هذا إن كنّ امتلكنه من حيث المبدأ . كنتُ أكثر إقبالاً على مهنتي من مريم ، واكتشفتُ لاحقاً - دون أن يكون اكتشافي رائداً - أن التعليم وظيفة حكوميّة متيسرة جداً في الأردن لـ«فلسطينية» مثلي .

تصالحتُ مع مهنتي كمعلّمة في الكويت ، ثم في الأردن . وحاولتُ أن أكون فخورة بها . تقمّصتُ هيئة الاختلاف من أجل الاختلاف وأشياء أخرى . لقد رمتُ التغيير وفي داخلي أردتُ التثوير ، بل حلا لي أن أقنع ذاتي التي تورّمت قليلاً حين أُسندتْ إلي صفوف التوجيهي أنّي قد أصنع جيلاً ، وظللتُ على تورّمي حتى حين تبيّن لي أنّ التوجيهي دمّل في المؤخرة يتحاشاه غير الموهومين . في أحد أقاليم اليأس في الأردن ، حاولتُ أن أنفض العثّ من رؤوس الطالبات فيما كنّ ينفضن العث وحبات النفتالين ورائحة البالات العالقة في معاطفهن الشتوية الرخيصة ، محرضةً إياهن على التنصّل من موروث الآباء والأشقاء ، وتمزيق وصايا نساء بيئاتهن اللاتي أقبلن على التعليم بصعوبة ، وفي حدّه الأدنى ، ما دام يُفضي إلى شهادة تفتح باباً للعمل الحكومي ، أي عمل ، وقد يوسع خيارات العرسان فلا يكون الخيار الأكثر ترجيحاً هو صبي الميكانيكي بالشحم الذي يكسو ذراعيه وعنقه ، أو «كونترول» الحافلات المتهالكة بأظافره المحشوة بالتراب والخراء الناشف الذي يتبعهن بنظراته وتعليقاته في الطريق إلى المدرسة . اكتشفتُ أن المدرسة

تشكّل تربية قهرية امتداداً لتربية البيت ؛ فحين أستدعي في مرات قليلة أمهات طالبات لا يظهرن تحسّناً في أدائهن للتشاور وإياهن في الأمر ، فإنهن ببساطة يوكلن إليّ معالجة المسألة ؛ «اكـــسري راســهــا» أو «ادعــسي على بطنهــا» ، يقلن لي . ويصاحب الدعوة الصريحة وصف تمثيلي ، كأن ترفع الأم قدمها في الهواء قليلاً ثم تخبط بها الأرض بعزيمة في إشارة على الدوس ، ولمزيد من الغلّ تحرك قدمها على الأرض إلى اليمين وإلى اليسار علامة السحق ، بينما تشدّد على كلمة «بطنها» ، التي تصطفي لها الضمة على الباء كنوع من التأثير الصوتي . وقد يُعطينني رخصةً مفتوحة بالقتل : «طخّيها يا أستاذة!» إحدى الأمهات لم تتورّع عن اقتراح آلية قتل ابنتها : «حطّي رصاصة في نص صباحها يا ستّ!» استفسرتُ من مريم عن مغزى القتل بهذه الطريقة ، خصوصاً أن الأم تمثّلت العملية بسُخط مستنفرة كل ملامح وجهها . فضحكت مريم وهي تشرح لي أنه في بعض الثقافات القروية ، فإن القتل بتسديد رصاصة في منتصف الجبين عملية إعدام منتخبة للشرموطات .

لكنني لم ألجأ إلى الدوس أو الطخّ ، واعتقدتُ أن الشذوذ عن المنهاج الدراسي بدرجة مغفور لها قد يفتح الرؤوس دون حاجة لكسرها . شرحتُ لهنّ أن رواية «مزرعة الحيوانات» المقرّرة عليهن لا تدين الشيوعية ، من حيث الجوهر ، كما أراد واضعو المنهاج النظاميون لأهل التربية والتعليم الإيحاء به . لقد كان جورج أورويل مؤمناً بالاشتراكية الديمقراطية ، وكان مناهضاً

للستالينية كنظام حكم شمولي، وبالتالي فإن الرواية تبني ديستوبيا خيالية بهدف إدانة الأنظمة الشمولية أينما وُجدت، حتى وإن وُجدت هنا.. هنا.. نعم.. هنا أو في أي مكان آخر، تحت مسمّيات صوريّة من نوع نظام ملكي أو جمهوري؛ الوجه الآخر للأنظمة الملكية في عالمنا العربي. فالمسمّيات والتوصيفات لا تعكس الواقع، بل قد يكون القصد منها أن تخفيه. والستالينية وَرَثتها أكثر من الهمّ على قلوبنا التي أصبحت تنهار في عزّ نبضها بسبب جلطات القهر. «زوج مِس عبلة، معلمة التاريخ، مات العام الماضي بسبب جلطة وعمره ٣٨ سنة. كان في المعتقل، ولما طلع من الحبس ما اشتغل. ضل بدون شغل أربع سنوات. كان يفطر ويتغدى ويتعشى على السجاير.» قالت طالبة بنبرة أسى واستدراك كأنها وقعت أخيراً على سرّ وفاة زوج مِس عبلة. عرفتُ أني استحوذتُ على انتباههن، وأن قشرة رؤوسهن المتحجّرة قد تشقّقت من تحت إيشارباتهن السميكة حين صببْن عيونهن نحوي مستفسرات: ما هي الشيوعية يا مِس؟ شو يعني الاشتراكية الديمقراطية؟ شو ديستوبيا يا مِس؟ وما هي الستالينية؟

- إنتِ مع الملكيّة يا مِس؟

سألتني طالبة بابتسامة ملتبسة وشمت نظراتها، يمكن أن تُترجم فضولاً ويمكن جداً أن تُترجم نية مستبطنة. فأجبتُها بعينين ثبتُّهما في عينيها:

- طبعاً! أنا مع الملكية الدستورية.

«شو يعني؟» تشابكت أصوات الطالبات . انطلق جرس نهاية الحصة . «كيف راح نعرف الجواب؟» فكتبتُ ثلاث كلمات على السبورة باللغة الإنجليزية ، رتّبتها عمودياً بحيث أن كل كلمة تقود إلى أخرى : سؤال ، بحث ، جواب . نظرن إليّ ضائعات . بعضهن كن خائفات ، أخريات متحفّزات ، وكثيرات ناقمات على معلمة اللغة الإنجليزية التي تقف أمامهن برأس حاسر ، وبنطلون قماش رجالي القصة وقميص حريري تبين من تحته خطوط صدريّتها ، ولا تُشاهد في مُصلّى المدرسة مع بقيّة المعلّمات اللاتي يتقوّلن عليها . كنتُ أخاطب الناقمات تحديداً ، مذكِّرةً إياهن بأول كلمة مدوّنة في النص القرآني . نظرنَ إلي ناقماتٍ أكثر . وضعتُ الطبشورة على حافة السبورة ، مُلتفتةً نحوهن أثناء مغادرتي الفصل :

ـ اقرأن!

في اليوم الثاني ، استدعتْني الست عايشة مديرة المدرسة . رمتني بابتسامة معوجة شبيهة بابتسامة طالبة «الملكية» . بعد صمت تلوى بيننا ، تخلّله اشتباك نفسي حذِر بالنظرات ، شرحت لي أن منهاج التوجيهي لأي مادة طويل ومرهق على الطالبة والمعلمة معاً ، وبالتالي على المعلّمات ألا يضيعن الوقت في كلام لا علاقة له بالمنهاج ، وهو كلام قد يسبّب ضرراً . «ضرر لمين؟!» سألتها ، متتبّعة بعيني وجهها الذي كان يتحوّل من الصبر إلى النزق . أخذت رشفة أخيرة من فنجان قهوتها ، ثم طبّت الفنجان على الصحن . أنامت خدّها على كفّها قائلة

في صيغة سؤال ليس بقصد التساؤل : «ليش بتتغيبي عن طابور الصباح كل يوم؟» كانت المسافة من بيت العائلة في الجبل الأبيض ، القريب من قلب الزرقاء ، إلى المدرسة الكائنة في الجبل الشمالي في الرصيفة المتطرفة ، تحتاج إلى ثلاث مراحل مواصلات في مشوار قد يستغرق مع الانتظار أكثر من ساعة . كنت اتفقتُ مع الست عايشة على أن أستلم صفوف التوجيهي بعدما اعتذرت عنها بقية المعلمات بشدة ، وذلك لقاء إعفائي من الحصة الأولى . «لكن إعفاءك من الحصة الأولى مش معناه التغيب دايماً عن طابور الصباح» ، ارتخت على مقعدها الجلدي القديم ، ثم ارتدت نظاراتها الطبية متلبّسة هيئة انكباب جدّي على معاملات إدارية ، متمتمةً دون أن ترفع بصرها :

ـ ممكن أرفع كتاب لمديرية التربية أشرح فيه إنك بتتعمدي تغيبي عن طابور الصباح علشان تتهربي من تحية العلم .

لا أفهم هذا الإصرار على حبّ الوطن ، أقول لمريم ؛ لماذا لا يكتفي الوطن بأن يحبنا هو من طرف واحد؟! أليس هو الأب الحكيم العاقل ، المتفهم ، الذي يستوعب شرود أبنائه وتمردتهم وكفرهم أحياناً؟! حين صدر قرار تعييني في وزارة التربية والتعليم ، تعيّن عليّ إتمام معاملات إجرائية شكليّة من بينها أداء يمين الولاء الذي لم أكن قد سمعتُ به من قبل . في مبنى المديرية ، أُدخلتُ مكتب أحدهم يُخاطَب بـ«عطوفته» ، كان مستغرقاً في حديث غاضب على الهاتف حين أشار إلى كتابين

يشبهان مجلّدين ، مغلّفيْن بتجليد كحلي ، وُضعا على طرف مكتبه . لم أفهم ما يريد ، أو ما حاجتي للكتابين . للمحة اعتقدتُ أنهما المنهاج المدرسي . علّق سماعة الهاتف في الهواء غير معني بأن يسمع الطرف الآخر حديثنا ، وسألني ما إذا كنتُ مسلمة أم مسيحية ، ثم ناولني أحد الكتابين : القرآن ، فأدركتُ أنّ الآخر هو الإنجيل ، وطلب مني أن أردّد وراءه اليمين الذي تلاه على عجل ، وهو لا يزال ممسكاً السماعة : «أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً للملك والوطن . . .» ، فرددتُ نغمة الكلمات دون أن أنطقها في ما يشبه البربرة ، بينما كان عطوفته ينهي المكالمة مقسماً بالله أنّه لن يتنازل عن قرش واحد من ثمن الأرض! وضع السماعة بعصبيّة ، ثم نظر إليّ يستنطق سريرتي «الخبيثة» ، طالباً مني أن أتلو اليمين ثانية لأنه لم يسمعه جيداً ، أو ربما لأنّي بدوتُ له «أبربر» ولا أتكلّم فعلياً ، كما قال متذاكياً ، جاذباً أحد سالفيه المصبوغين ، مضيفاً أن هذه الحركات ، أي حركات البربرة ، لا تنطلي عليه . رفضت . فتوعّدني :

ـ بإمكاني يا آنسة أرفع كتاب للوزير أقول له إنك رفضتِ أداء يمين الولاء!

سحبتُ بأصابعي خصلات شعري المتناثرة على جبيني إلى الوراء ، ونفضتُ رأسي في الهواء قائلة :

ـ وبإمكاني عطوفتك أرفع كتاب للوزير أقول له إنك خليتني أقسم يمين الولاء من غير ما تسمعني لأنك مشغول على التلفون ببيع قطعة أرض إلك في الجبيهة!

حـذّرتني مـريم من الاسـتـهـانة بـ«عـيّوش» ، الاسم الذي أطلقته على الست عايشة من قبيل الاستصغار ، فهي تتمتّع بقـدرات سـبق اخـتـبـارها على الإيذاء ، ولطالما افـتـرت على معلّمات ، متسبّبة في إيقاع عقوبات تأديبيّة بحقّهن ، ونقلهنّ إلى مـدارس في المنافي . وقـد ترفع فيّ تقريراً يعجّل باستـقـدام خبري . لكن «عيّوش» قد تجد نفسها مضطرة لاحتمالي ، كما خلصت مريم ، لصعوبة توفير معلمات توجيهي ، سيّما أنني حزتُ خلال أقل من شهرين رضا الطالبات والأهالي ، وقد ذاع صيت معلمة اللغة الإنجليزية «الشاطرة» التي تشبه الأجنبيات ببنطلوناتها الرجالية وقمصانها الضيّقة ، وتتحدّث إنجليزي «لبلب» ما شاء الله!

ثمّ بدأت فلوس المعلمات تختفي . تنزل المعلمة بعد انتهاء الحصة متعفّرة بالطباشير ورتابة الدرْس وانقراض الشغف إلى حجرة المعلمات ، فترى حقيبتها التي تركتها على الطاولة مفتوحة ؛ تنفل جيوب الحقيبة بهستيريا ثم تلطم على وجهها أو تشدّ جلبابها باكيةً ، حالفةً بأن الخمسة دنانير أو العشرة التي راحت هي كل ما في البيت حتى آخر الشهر ، الذي لن تحلّ آخرته قبل عشرة أيام . أمّا إذا كانت تتحلى بإيمان متين بالقدر ، وبأن لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، فتكتفي بأن تقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ، وتبكي بخفوت الصابرة وحياء التقية الإلزامي ، ثم قد لا تستطيع التحكم بمسار بكائها ، فتخلع تقواها – إلى حين – وتنتحب وتنشج ، مقتفية مسار زميلاتها

الأقلّ ثباتاً والأقل تشبثاً بالقدريّة الخرساء الصمّاء ، فتلطم وجهها مهسترة ، مولولة . أما العرض الأكثر ترويعاً فكان يوم فقدت الست منال ، معلمة التربية المهنية ، سواراً ذهبياً ، طراز الكمثرى ، كانت تحمله معها في حقيبتها ، وكان يفترض أن تأخذه إلى الصائغ بعد نهاية الدوام المدرسي لتبيعه وتدفع ثمنه لتجديد رخصة باص زوجها ، الذي ينقل به - لحسابه الخاص - أطفال روضة إلى جانب عمله موظفاً في البلدية . لم تتكلم الست منال ، لم تصرخ ولم تبك . انقلبتْ محتويات عينيها ، ثم شهقت وأغمي عليها .

في غضون شهر ، تعرّض أكثر من نصف المعلّمات للسرقة . دبّ الفزع في المدرسة ، وأجرت الست عايشة حملة تفتيش مسعورة شملت خزائن المعلمات وحقائبهن وجيوب جلابيبهن ، فالمديرة أعلنتْها صراحة أن اللصة واحدة منا ، نحن المربيات الفاضلات ، وأنها - أي اللصة - أدرى بظروفنا وحقائبنا وجدولنا ما يجعلها تتحيّن الفرصة المناسبة كي تضرب ضربتها . كما شملت الحملة تفتيش حقائب الطالبات ومراييلهن وأدراجهن مرتين يومياً : عند بدء الحصة الأولى وقبل نهاية الحصة الأخيرة . استصدرت الست عايشة قرارات طارئة في ظل حكمها العرفي ، فمُنعت الطالبات من دخول حجرة المعلمات تحت أي سبب ، كما تعيّن على المعلمات اللاتي يجلسن في الحجرة - المسرح الرئيس للسرقات - في حصص فراغهن أن يبلغن عن أي حركة مشبوهة تقوم بها زميلة لهن ،

في ما وصفنها بـ«فتنة شرعية» ، وتمّ إقرار توصية بحمل حقائبنا معنا إلى الفصول ، وهي توصية لم تبدُ مناسبة إذا سلّمنا بأن الطالبات مشتبه فيهن ، وبالتالي نكون قد جلبنا لهنّ الغنيمة بأنفسنا .

قرأتُ الغضب المجنون في وجه مريم حين رمت دفتر تحضير الدروس على الطاولة التي نجلس عليها في غرفة المعلمات ، فتطاير غبار طباشير في الجو ، واقشعرّ بدن ماء الشاي العكر في الأكواب . استعرَت الحُمرة الفلاحيّة في وجهها ، وفارت بضع خصلات شقراء نحاسية من تحت إيشاربها الرمادي . نفثتْ عيناها الزرقاوان المحوّرتان بالعدسات اللاصقة حمماً ، وأخذت تصفق بيديها كأنها تردح في طوشة مع جارة . كنت أصحّح أوراق امتحان حين رفعتُ رأسي مستوضحة .

ـ الخرية «عيّوش» بتشكّ فينا .

لم أفهم ما ترمي إليه . فتحتُ عيني طلباً لمزيد من الإيضاح ، فشرحت لي بعبارات سريعة رصّعتْها بكل الشتائم التي طالت شرف الستّ عايشة وشرف أهلها ، أن المديرة تتناقل مع «عميلاتها» من المعلمات ، هزّازات الذنب ، كما تصفهن مريم ، أنها تعتقد أننا ، مريم وأنا ، وراء السرقات التي طاولت معظم حقائب المعلمات . لم يبدُ لي الأمر منطقياً . تساءلت :

ـ علشان ما انسرقْنا؟

عديد من المعلمات لم يتعرضن للسرقة ، فلماذا تتهمنا نحن؟ أعطتني مريم تلك النظرة نصف الغامزة التي كأنها تقول

من خلالها : «يا لك من غبية» أو «متغابية»! لم تنتظر مني أن أصل إلى التفسير المنطقي الوحيد من وجهة نظرها، فقالت بلهجة نمّت عن نقمة مبيّتة :

ـ علشان أنا وإنتِ فلسطينيات .

ـ لكن نص المعلمَات تقريباً فلسطينيات .

نفضت مريم رأسها غير مقتنعة :

ـ هدولة متأردنات!

لم أقتنع بأن الست عايشة يمكن أن تتّهمني أو تتّهم مريم بالسرقة فقط لأننا نجاهر بفلسطينيّتنا، هذا إذا اعتبرنا المجاهرة تهمة . في داخلي كنت أعرف أنها مدفوعة بكراهية شخصية لنا ومشاعر مختلطة من الغيرة والرفض، فمريم كانت صدامية، بنوايا علنية، ومشاعر غير توافقية أو تصالحية مع الإدارة وكل ما يمثلها، كما كانت جميع المعلّمات، ومعهن المديرة، يخشين لسانها الحاد متحاشيات استفزازها، مبتعدات عن الشرّ الذي تقذفه عيناها الزرقاوان بأي ثمن . أما أنا فلم يطب للست عايشة خروجي عن النص في الفصل وخارج الفصل . لم يعجبها شكلي خارج سرب المجلببات، خصوصاً حين صددتُها من أول محاولة قامت بها لهدايتي . ثم حين عرفتْ أني مطلّقة وغير آبهة بالمسمّى، متندرةً على الكلمة علناً بحذف الشدة من اللام وتسكين الطاء تنرفزتْ مني أكثر . وبكل تأكيد لم تعجبها أفكاري التحريضية التي لم تمانع أن أحتفظ بها لنفسي، وقد تتسامح نوعاً ما مع الأمر إذا ظلّ التحريض في الصف، أما

تحريض المعلمات في «سفينة باونتي» التي تدير دفتها ، فلم تكن لتتساهل معه ، وكانت تزأر في فضاء المدرسة الواطي إذا ما اكتشفت أن خروج معلمة عن النص الذي حدّدتُه هي لها إنما بإيعاز مني .

يجب أن نمسك السارقة ، هذا ما خلصنا مريم وأنا إليه . على الرغم من أنّني لم أتعاط بجدية مع شكوك الست عايشة ، لكنني في داخلي لم أستطع أن أطرح الشعور بانعدام الثقة ؛ الثقة بأني أستطيع أن أبدّد هذه الشكوك باعتماد استراتيجية اللامبالاة ، كما حاصرني الضيق من أن تتحوّل الشكوك إلى تهمة قائمة ، وربما جريمة مثبتة . ثم إن نظرات المعلمات التي حوّطتنا ، منذ تناقل الشكوك وتوسيع دائرة تداولها ، جعلتني في موقف دفاع ، بينما عزّزت من سلوك مريم الهجومي ، فإذا ما قرأتْ ، ولو بطريق الخطأ ، تصرّف إحدى المعلّمات محرّفاً عن غايته الفعليّة ومعناه ، اشتبكتْ معها كلامياً ، وطعنت خنجر لسانها فيها . في ذاتي ، ألّبتُ نفسي على نفسي ، وخفتُ أن يكون إصراري على القبض على اللصة له علاقة بما استنتجته مريم من أن اتّهام المديرة لنا له علاقة بمجاهرتنا بفلسطينيتنا . لم تتوقف السرقات ، فانسحبت المعلمات من طاولتنا ، مريم وأنا ، تباعاً وكففنَ عن مشاركتنا شرب الشاي العكِر في حصص الفراغ المشتركة ، متعمّدات كلما رأيننا ندخل غرفة المعلمات أو نغادرها القبض على حقائبهن قريباً من صدورهن .

كنت أزور جدتي رضيّة أجلب لها الصبغة التي أوصتني

عليها لشعرها عندما لمحت الغمامة الطافية على وجهي . شرحتُ لها المشكلة ، فسخسخت من الضحك ، مطبّلةً على بطنها ، مستذكرةً حادثة شبيهة شهدتْها حارتها منذ سنوات بعيدة ، إذ سُرقت كلّ بيوتها تقريباً قبل أن يتم القبض على السارقة . كانت واحدة من الجارات ، كما كان يُتوقع ، تعرف البيوت وأصحابها . سألتُ جدّتي رضيّة كيف أمسكوا بها ، فنهضت من الصوفا التي كانت تتربّع عليها في الصالون ، واختفت في المطبخ دقائق ، تبعبش في نمليّتها الخشبية الضخمة المليئة بالبرطمانات ، ثم عادت بكيس ورقي صغير به بودرة حمراء .

ـ شو أسوّي فيها؟

سألتُها ، معاينةً البودرة القانية ، فحوطتني جدّتي رضيّة بنظرة تكشف الحجاب عن حلّ سحري :

ـ صبغة لِفْت . . سرّها في الميّ!

اغتبطت مريم للحل ، رغم مكابرتها المبدئية بأننا لسنا مضطرتين لدحض التهمة التي ألصقتْها بنا عيّوش . كان علينا أن نقنع الست نبيلة ، مساعدة المديرة ، أن تُعيننا في تنفيذ مخططنا فوافقت تحت ضغط إلحاحي ، ثم تجنباً للسان مريم الجارح ، فدعت المعلمات للاجتماع في مكتبها في الحصة الأخيرة ، بحيث تُستثنى المعلمات ممّن لديهن درس من حضور الاجتماع . حين دقّ الجرس معلناً الحصة الأخيرة ، ذهبت بعض المعلمات إلى فصولهن ، وتوجّهت البقية إلى مكتب

المساعدة حاملات حقائبهن ، فيما تركتُ حقيبتي في غرفة المعلمات بعدما وضعتُ في الجيب الداخلي خمسة دنانير غمّستها ببودرة صبغة اللفت . بعد مضي عشر دقائق ، لمحنا الآذنة أم بكر تقطع الممر بسرعة باتجاه المطبخ . ناديتُ عليها فوقفت دون أن تلتفت إليّ . كانت تضمّ ذراعيها إلى صدرها ، زامّة كفيها وقد أخفتهما تحت إبطيها . تلاقت عيناي عيني مريم ، فمشينا نحوها . مشت أم بكر بسرعة ، ثم ركضت . ركضنا ، مريم وأنا ، بينما كانت المعلمات يراقبننا باستغراب . ثم نطّت مريم على أم بكر وطرحتها أرضاً . حاولت مريم أن ترفع أم بكر من كتفيها ، لكن أم بكر غرست جسدها الثقيل في الأرض دافنةً ذراعيها تحتها . بدوري ، ساعدتُ مريم في قلب أم بكر على ظهرها وجلستُ فوقها . تجمعت المعلمات حولنا يتفرّجن على المشهد ، وشاركتهن الفرجةَ طالباتُ ومعلماتُ الفصول التي تطل على مسرح الاشتباك الجسدي الثلاثي في الممر المكشوف : أم بكر ومريم وأنا . أقبلت الست عايشة نحونا هائجة ، صاحت فينا كي نترك أم بكر . لكننا لم نلتفت إليها . حاولت أن تشيلني من فوق أم بكر لكنّني أزحتُها بيدي بعيداً ، ثم عضضتُ إحدى يدي أم بكر وسط صراخ الأخيرة المتصّل إلى أن فتحتْها ، فوجدتُ صبغة اللفت قد طبعت راحة كفها ، لكنني لم أجد الدنانير الخمسة . عضّتْ مريم يدها الأخرى ، ففتحتْها أم بكر متألمة ، فلم نجد الفلوس . نادت مريم على الست نبيلة كي تحضر كوب ماء . اختلط صياحنا مع زعبرة الست

عايشة التي توعدت بإحالتنا، مريم وأنا، إلى التحقيق. ارتفع صياح البنات المتفرجات على المصارعة الثلاثية: «أيوه يا مِس! أيوه يا مِس!». ثم لاحت لنا آثار البودرة الحمراء عند صدر أم بكر، فما كان من مريم إلا أن شقت جلبابها. كانت الست نبيلة تقف قبالتنا كالبلهاء تسأل مريم ما إذا كانت تريد أن تشرب ماء. أخذت مريم كوب الماء وسكبته على صدر أم بكر. سال جدول محمر من صدرها إلى عنقها. ارتخت أم بكر مستسلمة، ففتحتُ ما تبقى من أزرار جلبابها، كنتُ ما أزال رابضة فوقها. من تحت سوتيانتها البيضاء التي حلحل الاحمرار عليها، طُلتْ الخمسة دنانير التي لم تنم طويلاً في فراش ثديها المصطبغ بالكامل بالأحمر.

ما لم تعرفه الست عايشة والمعلّمات من شتى الولاءات أنّنا، مريم وأنا، ومنذ التصاعد الدرامي لأحداث مسلسل السرقات، اكتفينا بحقائبنا التي نحملها معنا إلى المدرسة منظراً، أو للمفاتيح والساندويشات والتوافه من الأمور، بعدما أشارت عليّ مريم بجورب الفلوس، الذي استلهمت فكرته من عمّتها، حيث ثبّتناه في سروالنا الداخلي بدبوس مشبك. كانت مريم تنحني عليّ، تمسح على سروالها، وتوشوشني بجذل خافت:

- هاد هو الشي الوحيد يللي مش ممكن نشلحه إلا بإرادتنا!

حملتُ جورب الفلوس السرّي في سراويلي، حتى حين تركتُ المدرسة وتركتُ المدينة والبلد الغريب عني وخلفتُ

حيواتها ورائي . قطعتُ به مطارح الغيابات . اختلقتُ بفضله شعوراً بالأمان المؤقت ، متحسّسةً انتفاخته الهامدة في طرف سروالي كلّما أطلّ الإحساس بالضياع من حقيقة شتاتي . وإلى حين حلول موعد الشتات المتجدد ، نجلس مريم وأنا على طاولتنا المعتادة في غرفة المعلمات ، نرفع سيقاننا على الطاولة ، نأكل مناقيش زعتر ، ونناديي على الآذنة المُعيّنة حديثاً أم ليلى ، نستعجلها في إعداد الشاي . تقول لها مريم إن أم بكر ، الله يسهّل عليها ويذكرها بالخير ، كانت أشطر منها وأخفّ حركةً ، ثم نفرقع قهقهاتنا في سماء الغرفة ، فيما تجمع المعلمات عارهنّ العالق بجلابيبهن ، متحاشيات النظر إلينا .

لقد كنّا ، مريم وأنا ، ملكتيْن فلسطينيتيْن سعيدتيْن ، نرتشف هناءات موسمية مع الشاي العكر .

الباب الثالث

.. في أسمائنا غير الحُسنى

بلغني أيتها الملكة السعيدة ، ذات الرغبات
الجارفة والأفكار الجانحة . .

(٥)

أنّك لا تحبّين اسمكِ ، ولا تتوسّمين نفسكِ الفخمة ، دون تفخيم ، في فخامته وجلالته ، وأن إيحاءه عظيم التكوين لا يروق لكِ ، بل تسرّين للآخرين ، في فراغات وجودي الحادثة في وجودك ، أنّ اسمك يُرهبك ، خاصة إذا ناداك أحدهم ، فتتلفّتين متهيّبة ، وتدارينه مداراة ، كأنك تستكثرينه على نفسك .

فاعلمي جلالتك أن الأسماء ، كالأديان ، لا نختارها . وإذا كنّا قادرين ، بفكر مدرك لاحقاً وبشقّ الوعي ، نزع دين القبيلة فإننا لسنا بقادرين على نزع الاسم ، لأنه يصبح شيأنا ، جزءاً من خِلْقتنا . وقد تستغربين كم أننا نستحصل معنانا ، حتى العكسيّ منه ، من اسمنا الذي يُشْكَل بلحمنا بقدر ما أثناء تشكّلنا ، بقدر أكبر في خضم إشكاليّة حياتنا ، وبقدر أعظم في الشكل النهائي الذي نؤوله . لا نكتفي يا مليكتي بأن يكون لنا من الاسم نصيب ، بل هو النصيب وإن خذلنا ، وقد يصيب أكثر إذ يكون معناه في معناه المضاد . فهو القدر ، وإن جاء خلافاً للقدر المُراد . إن أسماءنا هي وجوهنا الأخرى ، هي ما وراء الوجوه التي نقابل بها العالم .

لكن الاسم إذا كان تعدياً على القوة التي تكبرنا، يستحيل عبئاً علينا ويغدو همّاً متوطّناً، وقد تشقى معه حياتنا. واسألي أمي عمّا أصاب عمّتها قديرة! أمي روت لنا حكاية عمتها قديرة، كما روتها لجاراتها، وروتها لنساء غريبات جاورتهن في جناح إقامتها في مستشفى الولادة ذي الستة أسرة، في ولاداتها الثماني، كما قصّتها على نساء غريبات تشاركهن الانتظار في عيادات تطعيم الرضع، وحكتْها لكل رائح وغاد في أيامها. كانت قديرة في الخامسة عشرة من عمرها حين تزوجت. مرت خمس سنوات على زواجها دون أن تحمل. لفوا على الدايات والحكماء، من بينهم طبيب ألمانيّ مشهور له عيادة في وسط البلد بعمّان، فلم يُعرف سبب جليّ لتمنّع بطنها عن إيواء بذرتها. أم قديرة، التي خشيت أن يعاف صهرها ابنتها، بحثت وسألت، فدلّها أولاد الحلال على شيخ يُقال له الشيخ العربي، تتحطّم في يديه أصفاد الأسرار، حتى تلك المدفونة في أعمق نقطة في بحر متلاطم. حين دخلت أم قديرة عليه منادية على ابنتها: «تعالي يا قديرة!» نهض الشيخ العربي من فوره مستغفراً الله، نافضاً هالته الطيبة من شياطين الأسماء الملعونة التي قد تحوم فوقه، فاكاً سر اللعنة دون إمعان تفكير أو كثير تدبير؛ فاسم قديرة جلب عليها الجدب فأصاب رحمها المحل؛ ذلك أن فيه تعدياً على قدرة الله وحده القادر على كل شيء، وحده القدير المقتدر، ووحده صاحب القدرة. كتبت قديرة اسمها على ورقة خمس مرات أفقية وخمس

مرات متعامدة، كما طلب منها الشيخ العربي، ثم حرقت الورقة، وجمعت الرماد وذوّبته في طاسة بها ماء، وحملت الطاسة بنفسها إلى أرض قطعتها في سفر، وسقت بماء اسمها المحترق صحراء لا زرْع فيها ولا ضرْع. ثم أسبغ عليها الشيخ العربي «خضرا» اسماً جديداً لها. وخضرا حبلت، ورحمها لم يجفّ كما لم يسترح، فأنجبت من الصبيان والبنات ما عجزت عن إشباعهم. وفي النهاية، تزوّج زوجها عليها لأنه اكتشف أنه عافها منذ زمن كامرأة لا لمحْل رحمها. بيد أن العبرة المتوخّاة في حكاية عمة أمي قديرة أنها ظلت تلبس اسمها أو ماضيه، وظللنا نناديها: عمّة أمي خضرا التي كان اسمها قديرة.

ربما كان أجدر بجارتنا أم معاذ أن تغيّر اسمها كما تمازحها أمي؛ ذلك أن اسمها أقرب ما يكون إلى سخرية قاسية من حياتها. فأم معاذ أسبغت عليها أمها «محظيّة» اسماً لها، مع قلب الظاء إلى ضاد، ابتغاء ليُسر الكلام، فصارت «محضيّة». على الأرجح أن محضيّة لم تعرف معنى اسمها أو تاريخه، ولم تتوقف يوماً أمام الدلالات الشهوانية له. حين تزوجت محضيّة ابن عمها أبو معاذ، وكان صبيّ نجار، ترك العريس البيت وعاد إلى بيت أهله في ليلة الدخلة حرداً. لم يكن سراً أن فايز، قبل أن يصبح أبو معاذ، كان متيماً بشقيقتها هدية الأجمل منها بكثير، لكن أهلها أرادوا لهديّة نصيباً أحسن من صبي نجار، فلبّسوه محضيّة بمهر لم يزد على دينار وحملوها له جاهزة مجهَّزة. لكن قلب فايز ظل معلقاً بهدية، التي تزوجت طبيباً

بيطرياً ، ثم هاجرت مع زوجها إلى أستراليا ، وأنجبت ثلاثة أبناء ، واشترت العائلة مزرعة هناك ، وواظبت هدية ، التي خلعت الحجاب وصبغت شعرها بلون أشقر وأصبحت ترتدي بنطلونات قصيرة وباتت تعرف في البلد الجديد البعيد باسم هاديا ، على إرسال صور عائلية مبهجة لها ولزوجها وأبنائهما بهيئاتهم الإفرنجية ، يلهون في مزرعتهم التي يملأ خضارها العين ، من النوع الذي يصلح لطبعها على البطاقات البريدية .
يُقال ، والعهدة على الداية ، إنّ محضيّة تعرضتْ للفحة قوية عند ولادتها ، ما تسبب في انحراف طرف فمها وارتعاش إحدى وجنتيها ، فيما يشبه الومض المتتابع ، وضيق إحدى عينيها وارتفاع أحد حاجبيها على نحو يجعلها تبدو دائمة الاستغراب وعدم الفهم . تغيب محضيّة في ضحكة فارطة لا تخجل معها من الكشف عن فراغ جانبي داكن بسبب سقوط اثنتين من أسنانها جراء لكمة تلقتها من أبو معاذ الساخط دائماً ، وتروي لأمي كيف أن المسكين فايز غطّ قلبه حين رآها بالمكياج في ليلة العرس ، فأحمر الشفاه جعل فمها المائل أكثر انزلاقاً عن وجهها ، كما أنّ تحديد حاجبيها جعلها تبدو كما لو كانت تسخر منه . عرفت محضيّة فيما بعد أن أمه صفعته بالبابوج وعيّرته بأن المرأة هي التي تجفل من الفراش لا الرجل ، فرجع إلى فراش محضيّة مكرهاً ، وظل أكثر من أربعين يوماً لا يقربها . أخيراً هدّده عمّه بأن يأخذ ابنته إلى بيته ، ومعها مصاغها وعفش البيت ، فاضطرّ فايز إلى ركوبها ، لكنه مهّد

للأمر بأن ورّم بدن محضيّة بالخيزرانة ، فاقتنعت محضيّة بأنّ أبو معاذ يُستثار من ضربها .

محضيّة لم تغير اسمها ، لكنها انفصلت عنه . ولو لم تفعل ذلك لكان من الصعب أن يظل فمها مفتوحاً على قهقهات وفيرة وإغماءات جمة من الضحك ، رغم تناقص أسنانها تباعاً . بل إن محضيّة استنتجت معاني غير مقروءة في اسمها ، خارج إسقاطاته التاريخية ، إذ تقول لأمي ، كأنها شامتة بأبو معاذ : «أنا نكِتْ بَخْتُه لفايزا!» ثم يكون من الصعب على محضيّة ، كما أمي ، أن تمسكا بتلابيب ضحكهما .

خالتي رحمة من ناحيتها لم تنفصل عن اسمها ، لكن اسمها شاء أن ينفصل عنها ، مع أنها ظلت تطلب رحمته . كانت رحمة قد طورت بيزنيس منزلياً مكّنها من تحييد زوجها منذر ، مادياً على الأقل ، من حياتها وإن لم يحد هو عنها . كانت تبيع البازلاء والفول الأخضر ، تفرطها وتعبئها في أكياس لفرزنتها ، كما كانت تشتري أرطال الملوخية الخضراء ، فتبيعها إما ناشفة ورق أو ناشفة مفروكة ، أو مفرومة مفرزنة ، حسب التواصي . واشتهرت في حيّها بأنها أفضل من تعد أكلة المفتول التي تضيف عليها تحويجتها الخاصة . ثم تطوّر نشاطها إلى استلامها أرطال الكوسا والباذنجان من الجارات ، فتحفرها بسرعة ودقة دون أن تبقر خاصرة كوساية أو تخزق مؤخرة باذنجانة . وأخيراً ، أصبحت خالتي متعهدة طعام فعلياً تطبخ ما تطلبه منها نسوة الحي والأحياء المجاورة ، وقد تعد «بوفيه» عشاء

كاملاً أو موالح أعياد الميلاد ، من معجنات وورق عنب وكبة مقلية ، لنساء يفدن إليها بتأفف الأحياء الاستعلائية في عمان الغربية ، لا يغادرن سياراتهن القاتمة ، ويكتفين بإطلاق زمامير مستعجلة تهرع على أثرها خالتي رحمة وبناتها بأطباق الطعام المغطاة بورق القصدير . لم تنج خالتي رحمة من سَلْبَطة زوجها منذر على مالها ، وتعدّيه على روحها وبدنها ، أمام بناتها اللاتي يقفن حواجز غير منيعة تماماً بينه وبين أمهن . سماح ، أصغر بنات خالتي ، كانت تعتلي ظهر أبيها ، فتغرس مهمازي كعبي قدميها في خواصره ، وقد تعض رقبته فتشلّه عن الحركة مؤقتاً قبل أن يقذفها بيديه الشرستين على الأرض ، فيما تتلقّى شقيقاتها عن أمّهنّ الكم الأكبر من رفساته وركلاته .

جدتي رضيّة تقول إن خالتي رحمة شارية الهمّ ، أي زوجها ، بالمصاري وأنه كان أجدر برحمة أن ترحم نفسها وألا تنتظر رحمة الله في السماء لأن الله ، كما ترى جدتي رضيّة ، «مش فاضي يلاحق عباده في كل كبيرة وصغيرة» . جدتي رضيّة لم تدخل بيت خالتي رحمة منذ سنوات بسبب زوجها منذر ، الذي تصفه بصرماية عتيقة ، معبّرة عن عدم رضاها على خالتي رحمة لأنها اختارت أن تُضرب وتُهان وتُنهب من الصرماية العتيقة على أن تحمل لقب مطلقة . خالتي رحمة ، التي تصرّ على زيارة جدتي رضيّة مع بناتها ، تحاول أن تلين قلب أمها مشيرة إلى خِلفتها اللاتي كبرن ولم يدق أحد بابهن بعد : «علشان البنات!» .

لكن جدتي رضيّة كانت غير راضية عن أشياء كثيرة في حياتها هي . فقد أصرت على الطلاق من جدي عمران ، رغم ولهه بها . تقول إنه جاء زمن صحت فيه فلم تجد نفسها تحبه . وظلت ، حتى حين سطا «ذاك» المرض على جسدها ففتتها بقسوة ، تنظر إلى المرآة ، تفتش عن جسد منسي وشعر غزير هفهاف ووجه بعيد لطالما سحر رجال حارتها ، تأخر كثيراً قبل أن يشيخ ، بفضل الكريمات المطرية التي أدمنت استخدامها . جدّتي رضيّة ظلت تشتاق على الدوام لأشياء كثيرة راوغتها ، مشت بالقرب منها ثم تجاوزتها ، فعاشت غير راضية ورحلت عاتبة على الحياة .

لكنّ أبي كان راضياً بحياته ، أو هكذا صُوِّر إليّ . أبي هو نعيم ، والـ«نعيم» ليست حاله وإنما اسمه الذي رُكِّب عليه عنوة ، فنعيمه بالكاد غطّى عورته وعوراتنا ، تماماً كما أن عمّي أبو تيسير هو موفّق ، بالاسم الذي تُخاتل فيه الصفة ظاهرياً ، لا بالحياة الواقعية التي جافاه التوفيق فيها . وأمّي هي روعة بقامتها المربّعة مع ميل إلى الاستدارة ، وساقيها القصيرتين السمينتين ، وضحكتها العريضة المستطيلة التي تقسم وجهها إلى نصفين واضحين . لكنّ المشهد تتكامل فيه الأسماء بمعانيها ، متراكبة ومندغمة بطريقتها ، حين يسلّط نعيم عينيه سيفاً غير بتّار في عيني روعة النافذتين ، الصغيرتين جداً قياساً بوجهها المفلطح ، يسألها عن مصروف الشهر الذي تبخّر قبل نصف الشهر ، فتتخنصر له - رغم أن خصرها اختفى فعلياً -

قائلة بلهجة تنمّ عن سخرية في وصف النعيم الذي تعيش فيه مع نعيم : «والله ، صرفته كلّه . . يوم على الفطور في الهوليداي إن ، ويوم على الغدا في الشيراتون ، ويوم تعشيت أنا والجارات في الهلتون .» ثم تسترسل في سخريتها أكثر : «آه! واشتريت كمان عقد ألماس!» وتتحسّس رقبتها الخالية إلا من كتلة لحم ملزوزة . يرفع أبي يديه إلى السماء موكلاً أمره لله علّه يسخط المخلوقة ، التي هي أمي ، فلا تخشى أمي عاقبة دعواه ، مقيسة قامتها بيديها القصيرتين على عجل أمامه ، قائلة بضحكة مستفزّة : «يسخطني أكثر من هيك؟!» ثم يحلف أبي أنه بدءاً من الشهر المقبل لن يوكل إليها مسؤولية إدارة مصروف البيت ، وهو يمين تتعاطى معه روعة ككل مرة باستخفاف - يبلغ حدّ الاستضراط بالمعنى المجازي والمعنى الفعلي إذ تُخرج ريحاً ملحّنة ، تضبط إيقاعها على وقع وعيد نعيم - نائحة على الثروة التي ستضيع منها ، متحسِّرةً على النعيم الذي ستفقده بعدما قرر نعيم مصادرة مصروف البيت . «راحت أيام البغددة والنغنغة!» ، تندب في أداء مسرحي هزلي ، فيهزّ نعيم رأسه من باب إمهالها لا إهمالها ، حتى وهو يعرف تمام المعرفة استناداً إلى مواقف سابقة موثّقة أنه بعد أيام من حفلة الغضب الهادر ، سوف يُقبل على روعة ناخاً ، ملتمساً العطف والرأفة من صاحبة الأفكار الاحترازية والتدابير الذكية ، علّها تسعفه باليسير مما تحتفظ به في مخابئها السرية ، لتصليح عطل متوقع في سيارته أو سداد دين تأخر بعد التأخير المعتاد ، حتى وإن

ادّعتْ بأن لا وجود للمخابئ ؛ فروعة لبؤة ، كما يقول نعيم ، و«بيت اللبؤة - كبيت السبع - لا يخلو من العظام!» ثم سوف يضع المصروف بيده أول الشهر في يد روعة طائعاً وربما مهتبلاً حنكتها في مطّ الفلوس المتقلّصة فوق وجودهم المبثوث في كل الاتجاهات ، حتى وإن رُوِّع بين لحظة ذعر وأخرى بتسرّب فلوسه من جيبه في مسلسل سرقات أو ضياعات غير قابلة للتفسير .

لا يقطع اشتباك نعيم وروعة سوى رنين الهاتف . أردّ عليه ، فيأتيني صوت مهذب يسألني ما إذا كنّا نوافق على تسجيل المكالمة على حسابنا ، فأحزر أن المتصل جدتي فاطمة أو عمّي موفق . تطلب جدتي فاطمة من نعيم أن يرسل لها مائتي دينار . «هذه المرة العريس مضمون» ، تبشّر جدتي فاطمة نعيم . في كل اتصالاتها تبدو جدتي واثقة أن النجاح «هذه المرة» من نصيب نجاح ، وأن العريس «هذه المرة» سوف يطلب يد نجاح خلال أيام . أحد العرسان كان مستعجلاً أكثر من كل العرسان «المضمونين» ؛ فهو يعيش في أميركا ويحمل جنسيتها ، لديه محل سوبرماركت هناك ، جاء في زيارة أهله في المخيم ، إجازته قصيرة ، يريد أن يتزوج خلال شهر كي يتمكن من إنجاز معاملات العروس في السفارة الأميركية بسرعة قبل أن يأخذها معه . لكن ما الذي يجعل أميركياً يفكر بالزواج من نجاح؟ لم يستطع نعيم أن يخفي تعجّبه ، فهو يعرف - كما نعرف جميعاً - أن احتمال تهافت العرسان على نجاح ضئيل جداً . تقرّ جدتي فاطمة بتأفّف أنّ العريس كبير في

السن «شوي» ، ويتبيّن أنه يكبر نجاح بخمسة وعشرين عاماً ، وأنه كان متزوجاً هناك بأميركية أنجبت له ابنين قبل أن يطلقها ، لأنه بعدما كسب الجنسيّة والدولارات ، اكتشف أن «بنت بلده» تحفظ عرضه ونسله أكثر من الأميركية . لكن العريس الأميركي الكبير «شوي» لا يطرق باب نجاح ، التي تعشّمت «هذه المرة» أكثر من كل المرات السابقات ، على قاعدة رضينا بالهمّ . ما عرفه نعيم في ما بعد أن العريس الأميركي اكتشف أن جنسيّته ودولاراته تُنيله صبيّة من المخيّم أصغر من نجاح ، أحلى منها وأينع .

وقد يكون عمّي موفّق على الخط ، فيحدس نعيم أن شقيقه النزق أصبح من جديد بلا عمل ، فصاحب محل الخضرة «الثرماية ابن الثرماية» الذي يعمل لديه طرده ، من أجل زبون «ثرماية» مثله لا لشيء إلا لأنه ، أي موفّق ، رمى زبون بسحّارة البندورة التي أمضى الزبون أكثر من «ثاعة» وهو يقلب ويفتّش في الحبّات حتى «فغّثها» . وفي النهاية لم يشتر بندورة . يُحاول نعيم أن يشرح لموفق أن عليه أن يتخفّف من عصبيّته ، فيصرّ مَوفّق ، ككل مرّة ، أنه على حقّ «هالمرّة» . يبحث نعيم معه إمكانية الوساطة لدى صاحب المحل كي يعيده إلى العمل ، إذا لم يكن من أجله فعلى الأقل من أجل أولاده ، لكن موفّق يهدر من بعيد أن الشغل كلّه على «ثرمايته» ، فكرامته أولاً ، وهي «مثألة» - أي الكرامة - غير قابلة للتفاوض أو خاضعة للتنازل . ثم يطلب من نعيم أن

يُرسل له مبلغاً من المال ، لـ«تشريف» الحال إلى حين يجد عملاً .

يقرأ نعيم الوقائع الآنية والمستقبليّة غير المبشّرة لحاله وحال موفّق ، فيلمح غيمات رماديّة تمشي متثاقلة مقلّصة احتمالات حياته . يعود إلى جيوبه الظاهرية وجيوبه الخفية وتلك السريّة . يحسب ما لديه ، ما قد يأتي وما قد يدخل جيوب أيامه ؛ مال قليل ، عزيز ، متردّد ، بركة منقوصة ونعمة تتعجل التسرب من ثقوب حياته الواسعة ، وما قد يضيع منه ، وهو كثير ، يبدو له جارفاً بلا قيمة كمطر يسقي صخراً ولا يروي تراباً عطشاً . عندئذ ، تحتشد الغيمات المتسربلة بسواد الوقائع في تفكيره ، فيجلس على الكنبة هامداً ، كأنه طالع من هزيمة منكرة ، يسحب أنفاساً متلاحقة من سجائر خشنة يتكدّر معها وجهه وتحمرّ عيناه الغائرتان ، بنظراتهما الضائعة . تدنو منه روعة التي تلين ملامح وجهها ، فتغيب ضحكتها المستطيلة المستخفّة ، تنفرج عيناها اللتان تبسطان فوقه ملاءة من نظرات عطوفة ، تضع يدها التي تفوح منها رائحة بيت صغير مستور ، كثير الأغراض والمشاعر والبشر ، وطبيخ لا يعرف البيات لكثرة النفوس ذات الشهية المفتوحة في موعد الطعام وفي غير موعده . تطبع روعة قبلة على جبين نعيم ، قائلة :

ـ بتتدبّر يا أبو جهاد .

(٦)

تاق أبي لولد يكون بكره . أراد الصبيّ بشدّة ، أعطاه الاسم قبل أن يراه ، وامتشق صفة الاسم المُبتغى قبل أن يتزوّج . «أبو جهاد» ، هو اللقب الذي انتخبه لنفسه في أيّام عزوبيّته القابضة على الأماني المتضخّمة . حين هلّلتُ ، ثمرته الأولى ، لم يُخفِ أبي خيبته ، لا لأني بنت وإنما للاسم الذي خشي أن يتأجّل أو يفقد وقعه وسط رفاقه الذين حملهم على اعتناقه ، مقراً بينه وبين نفسه أنه حين كانوا ينادونه بـ«أبو جهاد» ، كان يشعر بأنه يسير إلى قمة العالم وأن قرع طبول مدوياً يرافقه في سيره .

ظللتُ خمسة أيام بلا اسم . تلقيتُ نقوطات وفساتين وقلائد ما شاء الله من ذهب وخرزات زُرق هدايا المولودة الأولى . وتبارت الأيدي التي تناوبت على حملي في اشتقاق أسماء مبهجة تليق بطفلة موفورة الصحّة . في اليوم الأول من عمري ، أرادت أمي أن تسمّيني نجلاء على اسم الطبيبة التي ولّدتها . «شو رأيك؟» سألت أبي ؛ لعلني أكبر وأصبح طبيبة . لكن أبي لم يعط رأيه . في اليوم الثاني ، اقترحت عليه أمي

«مرام» . سألها أبي : «اشمعْنى؟» قالت له إنها سمعت امرأة في الشارع تنادي على ابنتها مرام فأعجبها الاسم ، «شكله حلو» . تأمل أبي وجهي يفتش عن مرام فلم يره . طيّب . . ما رأيك بـ«أمل»؟ اقترحت أمي في اليوم الثالث ، وظلت طوال اليوم تتدرب على مناداتي به . وحين انتهى اليوم ، تلاشى الأمل . في اليوم الرابع ، كان أبي يتفرّج على فيلم «حبيب العمر» لفريد الأطرش . خارج أي سياق له علاقة باسمي المعلّق ودون غرض مسبق ، قال لأمي إنه يحب رقص سامية جمال . فقالت أمي إنها لن تسميني سامية ، لكن أبي لم يكن يفكر بالاسم ليلتها . في اليوم الخامس ، ظللتُ دون اسم مقترح .

وفي اليوم السادس ، صحا أبي صائحاً :

ـ جهاد!

قاومتْ أمي الاسم . استماتت كي لا أُسمّى به . بكت ، فلم يضعف قلب أبي . صرخت فيه ، هدّدت بأن تأخذني وتترك البيت ولن تجعله يعرف لنا أرضاً . فلم يتزحزح عن قلعة إصراره . رجته بأن يؤجل جهاده للولد . وإذا لم يأت الولد؟ تساءل خوفاً على غياب الاسم لا غياب الولد . اقترحت عليه أن يسجّلني في شهادة الميلاد باسم آخر ، ويناديني جهاد أو حتى «خرية» ، فأعلنها بصورة قاطعة :

ـ جهاد وبس!

رضخت أمي . لكنّها حقّقتْ نصراً جزئياً حين انتزعت

تعهّداً من أبي أن يترك لها أسماء البنات الأخريات المحتملات لها ، في حين يكون الأولاد وأسماؤهم له .

وجاءت بنت ثانية بعدي بعام ونصف العام . «شفتي؟ مش قلتلك؟! ما إجا الولد!» ، قال لأمي كما لو كان يشمت بها . ثم جاءت بنت ثالثة ، بعد عامين من الثانية . هنا اغتبط أبي لحكمته التي امتلك ناصيتها من البداية ، فـ«جهاد» كان سيتأجل كثيراً وربما كان سيغيب . بعد عامين آخرين ، جاء الولد أخيراً . فسماه جمال . فرحت أمي بالولد المنتظر ، وأخرست ألسنة العائلة التي كانت تخشى أن يكون بطنها جلاّباً فقط للبنات . لكن الولد كان سبباً لخصومة لم تتوقّعها أمي مع أبي . «أبو جمال!» نادت عليه في أول صباح بعد جمال ، فعالجها بتطليعة تحذيرية :

ـ أبو جهاد!

كافحتْ أمي كي يُكنّى أبي بالولد ، كحال كل الآباء ، لكن أبي استمسك بجهاده .

جاء الولد الثاني بعد أربع سنوات من الأول ، تخلّلها حمل مجهض وبنت . فأطلق عليه أبي اسم ناصر ، استكمالاً لاسم جمال . عاش جمال وناصر الحياة على هامشها ، أخذا منها في حدود العادي في كل شيء ، فمضت حياتهما بسلاسة غريبة حدّ السوريالية ، مجسديْن دورة العيش المتكاملة التي تقوم على النمو والتناسل وحرث الوجود ضمن الحدّ الأدنى من المجهود مقابل نيل درجة مقبولة من الاستمرار على البسيطة ، دون

إحداث ثورة ، دون المشاركة في ثورة ، ودون التأثّر بثورة . كلاهما تزوج في العمر البيولوجي والاجتماعي المتوقع لزواج الذكر ، بعد أعوام قليلة من تخرجهما والتحاقهما بوظيفتين حكوميتين خاملتين . جمال درس الاقتصاد في جامعة اليرموك في الأردن وتعيّن في دائرة محدودة العمل ومعدمة الإنتاج - تقريباً - تتبع وزارة التخطيط ، وتزوج امرأة لم يعرفها قبل الزواج ، بوساطة إحدى نسوة الحارة ، وجد فيها المقاييس التي كان يبحث عنها ؛ امرأة تعمل في وظيفة إدارية حكومية ، تشاركه طموح شراء أرض بواسطة قرض إسكان يحصل هو عليه من وظيفته ، وبنائها بقرض إسكان آخر تحصل هي عليه من وظيفتها ، وشراء سيارة مستعملة بالتقسيط . أما ناصر فتخرج من قسم المحاسبة في جامعة مؤتة ، وتعين في دائرة الأراضي ، وتزوج فتاة دلّه عليها أولاد الحلال ، لبّت الكثير من شروطه وتطلعاته ، وشاركها ولع السفر سنوياً إلى السعودية لأداء العمرة ، في نزهة تنتهي بهما إلى النزول في جدة ، معقل أهل العروس ، الذين يدللون ابنتهم وزوج ابنتهم بأطايب الطعام وغالي العبي والعطور الشرقية والجلابيات . جمال أنجب أربعة أبناء ، مع توقعات بزيادة العدد النهائي ، وناصر رُزق بثلاثة مع توقعات ألا يزيد العدد كثيراً لأن ولادات زوجته تمت كلها بعملية قيصرية .

عبّر جمال وناصر عن تديّنهما أكثر من أبي الذي ظل يجاور الدين ويحاذيه ، آخذاً ما يجعله غير قابل للنّبذ من محيطه الأسري ، ومحيط معارفه . وظل أبي يفصل بين ما

للرب وما لقيصر، متأرجحاً في المنطقة الوسطى من الإيمان. وقد يتساءل ويتشكك علناً في ما بات نصاً وقاعدة إلهيين غير قابلين للمساءلة، فينبري له جار أو صديق أو زميل يعنّفه لأنه تساءل في ما لا يخضع للمساءلة، وشكّك في الثابت والمثبوت بما تخطاهما العلم والمنطق، فيرتدع أبي عن التساؤل والتشكيك، ويؤتي الفروض في حدّها الأدنى، حتى إذا سرُق شبشبه من المسجد أثناء صلاة الجمعة في تقليد شبه أسبوعي، عاد إلى البيت حافياً حانقاً، بروح معفّرة ولسان يخابط يميناً ويساراً، لاعناً - في سرّه - الخَلْق والخالق.

حين جاء الولد الثالث والأخير في الذكور المشتهين بعد ثلاث سنوات أجهضت أمي خلالها مرة ثانية، كان أبي لا يزال يعيش أوهام التحرر والاستقلال. فاختار للمولود أحمد بن بيلا، كاسم مركّب لم يسمح بانفصامه. حاولت أمي أن تعترض. لكن أبي ذكّرها أنّه لم يتدخّل في أسماء البنات، التي لم يوافق عليها أصلاً. تحايلت عليه، وجاءته بالحُسنى. فلان جزئياً، وخيّرها بين اسمين: أحمد بن بيلا أو هواري بومدين، فاختارت أمي أحمد بن بيلا، كأهون الأمرّين، متوقعة بحسبة منطقية أن يسقط بيلا من الاسم مع الوقت، ويصمد أحمد. لكن ما حدث - شأن مسارات الحياة الطبيعية - هو أن أحمد لم يستقم من الأساس. فناديناه، كما كل الناس، بيلا. وكنا نستحلي الصراخ في البيت والشارع على الولد الصغير الذي جنّنا بشقاوته، بل تسبب في جرجرة أبي

إلى مخفر الشرطة غير مرة ، من بينها يوم سرق مفاتيح السيارة وهو في العاشرة من العمر ، فاصطدم بسور عمارة وحطّم السيارة ، وكادت الحادثة تنتهي بمأساة دهس لولا لطْف الله العالم بالحال .

ـ بيلا . . بيلا . . يا بيلا!

وحين لا يستجيب للنداء ، ترفع أمي يديها إلى السماء تعبيراً عن قلة حيلتها ، قائلة :

ـ بلاء ياخذك!

كان بيلا أقرب أشقائي إليّ ، رغم فارق العمر بيننا الذي تخطى الثلاثة عشر عاماً . ولو خُلقت ولداً ، كما تمنيتُ ذلك في بعض عصور عمري ، لكنته هو . أحببتُ بيلا ، ولطالما وهبتُه ظهري حاجزاً وستاراً يختبئ وراءه هرباً من أمي أو أبي عند ارتكابه واحدة من آثامه الكثيرة . أحب تربية الحمام منذ سني طفولته الأولى في الكويت ، مستغلاً بلكونة المطبخ في الشقة لتربية بضع حمامات ، بعدما توسطتُ له عند أمي . أقنعتُها بأن تربية الحمام ستلمّه من الشارع وتجعله تحت عينها معظم الوقت ، فارتاحت أمّي للفكرة ، وإن ندمتْ في ما بعد على الأمر حين بدأ خراء الحمام يمعطنا . عند نزوحنا إلى الأردن ، بعد أم المعارك العراقية في الكويت ، وجد بيلا في سطح بيتنا في الزرقاء مساحة مثالية لبناء بيت حمام في هوس لم ينفك منه بسهولة . اقتنى عشرات الحمامات ، متبحراً في أنواعها وأنماط سلوكياتها وسبل كشّها وإغوائها إلى مملكته ، متحولاً في

فترة وجيزة بخبرة ذاتيّة محضة إلى كشّيش حمام معتبر ، لا يتورع عن إطعام حماماته - عشية بيعها - الخبز المنقوع بالماء كي تسمن فتغري بشرائها ، قبل أن تهزل في اليوم التالي لبيعها . ظل أهل الحارة يشكون بيلا وحماماته ، وحجارته التي يتقاذفها على السطح ، متسبباً في تهشيم نوافذ الجيران في أكثر من حادثة . وفي يوم ، طرق بابنا كشيش حمام ، متهماً بيلا بأنه سرق حمامتيْن منه! بمطرقة حديدية هائلة ، حطمت أمي بيت الحمام على السطح وصبت عليه كازاً وأحرقته ، وطيّرت الحمامات ، وقذفت تلك التي حاولت العودة بحجارة غاضبة . «ما كان ناقصني غير لصّ حمام!» كانت تصرخ بحنق فيما تنزل يدها بالمطرقة بكل عزيمة على الرفوف الخشبية . بكى بيلا كثيراً ، نائحاً على كائناته . سخن من الحزن على طيوره وقعد طريح المرض أسبوعاً . جاءته أمي بالكلمة الطيبة . حاولت أن تُفهم الولد الحرون أن كشيش الحمام لا تؤخذ بشهادته في المحكمة ، وأن الناس لا يقبلون تزويج بناتهم «للكشيشة» أمثاله . فقال بيلا من وسط بحر دموعه :

- بدّي حماماتي . . ما بدّي أتزوج!

راحت الحمامات وأيام الحمامات . تأخر بيلا قبل أن يفيق من فقد كائناته ، لكنه أفاق أخيراً . لسنوات ، خبأتُ عنه وقائع ذاك الفجر البعيد ، بعد شهر من تدمير بيت الحمام وقيام أمي برش السم على أرضيّة السطح لاغتيال كل حمامة تسول لها نفسها العودة . يومها ، صحوتُ على أصوات ملتبسة سحبتني

من فراشي إلى السطح . على هيكل هوائي التلفزيون المنصوب في الزاوية ، وقفت عشرات الحمامات على الأذرع المعدنية . كانت تهدل بشجن . كانت تنوح شخصاً عزيزاً .

للبنات ، ركبت أمي موجة الأسماء الهشّة ، شحيحة الأحرف ، ذات الإيقاع الناعم ، خفيفة الوطء على الأذن ، ليّنة التأثير في النفس ، فجاءت رانيا وريما بعدي ، ثم رولى بين جمال وناصر ، وأخيراً استقبلنا رشا ، أصغرنا بعد نحو خمس سنوات من ولادة بيلا ، فقد كانت أمي التي ادّعت أن الحمل حدث بطريق الغلط قبل أن نكتشف أنها تعمدت التفريط بشريط حبوب منع الحمل ، تأمل أن تعادل عدد الذكور بالإناث ، فتفوقنا عليهم أكثر . أبي لم يحب أسماء بناته ، رآها ماسخة مائعة ، لكنه التزم بتعهده بعدم التدخل أو الاعتراض عليها ، بعدما انتزعني من الخفة ووهبني الجهاد . كذلك ، لم يفهم أبي إصرار أمي على توحيد الحرف الأول في أسماء بناتها ، في ما وصفها بتقليعة عبيطة ، مقتنعاً أنها بدعة نسوية ، جنباً إلى جنب مع بدعة الأسماء المتناهية في الضآلة ، مبتورة الحروف ، عديمة المذاق ، فلا تترك في اللسان عند نطقها طعماً يُذكر .

وكانت لأمي ابنة عم متزوجة ؛ وهي قريبتها الوحيدة في الكويت . وكانتا تتزاوران بانتظام ، في الأعياد والمباركات الإنجابية ، حيث كانتا تخوضان سباق ولادة ، فلا تخرج واحدة من مستشفى الولادة إلا لتدخل الثانية ، بل في مرة تجاورت

الاثنتان في غرفة الولادة نفسها . لكن ابنة عم أمي أنجبت سبعة ذكور ، وهو ما أكسبها نقاطاً نوعية على حساب أمي . هي الأخرى ، شأنها في ذلك شأن النساء العبيطات ، اختارت حرفاً أولياً موحداً ، هو الطاء . فأطلقت على بكرها طايل ، ثم أردفته بطارق ، فطلال ، وطاهر ، وطامح . زرناهم للقيام بواجب المباركة يوم أنجبت الولد السادس . كان أبي يقوم بهذا الواجب مكرهاً ، فهو لم يحب ابنة عم أمي كما لم يحب زوجها «السِّقع» ، كما يصفه ، الذي «يَتَخرْيِن» على العالم بوظيفته كمدير مالي في شركة تأمين . اشتكت الوالدة الفخورة بنتاجها لأمي من أنهم إلى الآن لم يسمّوا الولد ، إذ لم يعثروا على اسم ذكر مناسب يبدأ بحرف الطاء . ولم تكن تطرح الموضوع كمشكلة أو تعبيراً عن استيائها بل إمعاناً في مجاكرة أمي ، إذ لم تتخيل - على حد زعمها - أنهم عندما اختاروا الطاء أن ينجبوا كل هؤلاء الأولاد ، الذين ضاق الحرف بهم . وبما أن ابنة عم أمي مؤمنة ، فلم تتوقف عن بسط كفها أمامها طيلة كلامها عن صبيانها ، تطبع أصابع يدها في الهواء من باب التخميس الاحترازي ، لدرء الحسد المحتمل لأمي التي تبذر البنات .

في واقع الأمر ، لم يكن أولاد ابنة عم أمي مدعاة للحسد أو الغبطة ، سواء لنا أو لأي أحد آخر ؛ فقد كانوا ثقالاً ، بطيئين ، فاترين ، بسمنة جماعية تشكل الوجه الآخر لسوء التغذية ، متربّين ومتربربين على الخبز بالحليب وقوالب الجبنة

الدسمة والأرز المطبوخ بالسمن وشحم اللحم الذائب على «وشّ الطبخة» ، وهو ما انعكس في قاماتهم الدهنية الشحمية ، ذات الهندسة الجذعية المصْمتة غير القابلة للذوبان . إلى جانب بدانتهم المريعة ، كانت وجوههم تنضح بلادة ، حتى لكأن الغباء اختار أن يعبّر عن هيئته من خلالهم ، فكانوا رمزه وشعاره غير الجليل بنظراتهم الهامدة التي ترزح تحت ثقل أجفانهم شبه المنسدلة ، إذ يجاهدون كي يتابعوا حديثاً أو حواراً دون أن يبدو عليهم أنهم يفهمون أو حتى يحاولون . حين حمل أبي الوليد الجديد لحرف «الطاء» العزيز ، عاين وجهه المنتفخ المتأهب لاكتساب مزيد من السمنة والبلادة ، فراعه أن يكون نسخة أصغر قليلاً فقط من أشقائه الثقال . وبما عُرف عن أبي من ميله إلى المزاح الثقيل الخارج عن الذوق وعدم انتخابه نكات لائقة ، وتمتّعه بحس دعابة عديم الإحساس في معظم الأحايين ، قال إنّه وجد الاسم الأنسب للوليد . تطلعت إليه العيون ، حتى البليدة منها ، مستفهمة فأعلن مسروراً :

ـ طبل!

أحببتُ أسماء شقيقاتي ، وفي المرات الكثيرة التي كان اسمي يخذلني فيها ، كنت أتشّهى اسماً من أسمائهن . لكنني لم أُفتن بالراء كما لم تفتني المعاني . أُخذتُ بالمدّات في نهايات الأسماء التي تتحيّن للتفلّت ، ماضيةً إلى أبعد مما يستطيع الصوت أن يقطعه ، حتى عندما تصرخ أمي عليهن كي

يلبين لها أمراً فيتقاعسن ، يظل الحرف الأخير لشدة الشوق يطير ، متشبثاً بأجنحة الفضاء كأنما لا يريد أن يحطّ في أحرفهن ثانية ، كأن المَدّة استكبرت على نفسها البقاء في كنف أرواحهن القزمة . وحين تعود المَدة ، أو نثار صداها ، إليهنّ أخيراً تسقط منكسرة .

شقيقاتي لم يكنّ على قدر أسمائهن ، حيث خذلن مَدّاتهن . طوين حروفهنّ وأغلقنها ، وبوعي مجحف سكّنّها . كنّ يشبهن بعضهن كثيراً ، يتبادلن الخبرات الباهتة والقناعات السديدة نفسها ، نافضات ضغائث خيالاتهن دون تهاون ، متقاسمات مشاعر تأخر نضجها كثيراً لديهن ، حائرات في تفسير الحب إذ يدركنه ، أو في إدراك الحب من الأساس إذ لم يفهمن لامشروطيّته ، في ما استحال في نهاية الأمر إعاقة عاطفية وخمولاً جسدياً . ويوم نهضت أجسادهن ، ومعها رغباتهن التي كان لزاماً التعبير عنها ، أحببن خطفاً ومنحن أجسادهن بتقنين لا تضيع معه فرص الصفح الإلهي . ثم تزوجن ، كما أملت الحكمة المرعيّة لذوات الرغبات المُعلبة ، أول طارق دون مفاضلة ومفاصلة ، مترقبات انتفاخ البطون والتهادي بثمرة الأمومة ، متخنصرات ، متدلعات ، مقتنعات تمام الاقتناع أنهن بلغن غاية الحياة وتمثّلن أسبابها ، وفي النهاية لم يجزَعنَ إذ ذابت أسماؤهن بمدّاتها ، وتوارت الحروف الناعمة وراء تشكيلات أجسادهنّ التي تدوّرت كثيراً انسجاماً مع استحقاقات ألقابهن الأمومية العزيزة ، حيث الحياة سالمة آمنة ،

لا تحتمل انحرافاً في الرغبات .

وأنا ظللتُ أنا . . جهاد ، بتسكين الحرف الأخير ، بعد مدٍّ يحاول أن يمتدّ أكثر . ولم يكن في تسكين حرفي الأخير أمانٌ أو سلامة . التسكين لم يضمن لي أن لا أخطئ .

(٧)

لم أناقش اسمي - مع نفسي أقلّه - في بدايات تخلّقي . مع اختلاقات الحياة طغى اسمي عليّ . استطال ظلّه إلى جواري ، ثم ابتلعني . عبثاً حاولتُ أن أخرج من جوفه .

أنا يا ملكة ماضيّ وراهني جهاد . أنا الجهاد الذي لم أختره . أنا الجهاد الذي لم أطلبه .

رغم ذكوريته الطاغية ونبرته الاعتدادية ونفسه القتالي ، لم يبدُ اسمي ، بالنسبة لي كما للآخرين ، مقحماً وغريباً . كانت هناك «جهادات» كثيرات في جيلي ، ممن أسقط علينا آباؤنا ، جيل النكبة الأول ، توقعاتهم الجهادية وقراءاتهم الحالمة لثورة نبيلة ، نقيّة ، مخلصة ، متعففّة ، مشفّاة من الدسيسة ، محميّة من الاختراق ، معصومة من انقلاب ذاتها على ذاتها ؛ وهي توقعات زيّنت لها المنافي وبلاد الشتات المغالاة . ولقد كسبت زخماً خاصاً في الكويت ربما لأن مؤسسة الثورة الفلسطينية احتضنت رجالاتها الأوائل هناك ، فاعتقدنا أننا قريبون جداً من فلسطين . في المدرسة ، عرفتُ في سني اللهو والعلم الموحد والثقافة اليسيرة ومسايرة وعي الآخر ، أكثر من جهاد . كانت

الصفوف تفيض بأسماء ثائرة دالة من نوع : نضال ، كفاح ، فداء ، انتصار . وكان ثمة اسم جازم إزاء نتيجة الثورة الحتميّة ، مرّ عليّ مرةً واحدة على الأقل : تحرير ، التي تحرّرت من المدرسة بعد شهادة المتوسطة وتزوجت . وزاملتُ يافا وبيسان اللتين لم تعرفا موقع مدينتيهما على الخريطة . كل ذلك قبل أن يأتي الجزْر على جهادنا وكفاحنا وفدائنا ، كما تراجع منسوب نقاء ثورتنا فحلّت في صفوف المدرسة - والحياة كذلك - بعد حقبتنا ، التي غذّتها الأوهام ، أسماء مجردة من الوهم ، مطهّرة من التوقعات غير العقلانية ، أقل ثورجية وأكثر ارتهاناً للقوى الغيبية من فصيلة دعاء وإسراء وآلاء وآية وآيات ؛ إذ استسلمن ، كما أسماؤهن ، لله القادر وحده على أن يعيد لنا فلسطين من النهر إلى البحر ، وهو وعد مشار له في كلامه العزيز .

في الصفوف الثاني والثالث والرابع متوسط ، لازمتني فلسطين . كانت محجبة وبشعة ومتأخّرة دراسيّاً ، أي «اجتمعت فيها كلّ العلل» ، قالت لي أمي همساً حين رأتها . لكن أبي بحس دعابته إياها الفاقدة لكل أصول اللياقة لم يُخف ذعره حين التقى فلسطين أول مرة ، معلناً في وجهها : «لو كانت فلسطين بتشبهك لفكّر اليهود مرتين قبل ما اغتصبوها!» افتعلتُ ضحكة كي أقطع الطريق على فلسطين كي لا تفهم الدعابة السمجة ، لكن فلسطين لم تتوقف عند المغزى غير الفكه ، أو لم تشأ أن تفهم . كانت فلسطين قد التصقت بي رغم محاولاتي اليائسة للتملّص من رفقتها . وكانت تبدو

سعيدة ومنطلقة حين تزورني ، بل كانت تتحرّر مؤقتاً . فكانت تتكلم كثيراً ، بخلاف سكوتها المتواصل الذي يستفزّ معلّمات المدرسة ، اللاتي كن يختبرن سكوتها بتوجيه إهانات لفظيّة لها من نوع : «يا تيسة» و«يا بهيمة» و«يا معاقة» ، لكنها لم تكن تردّ ، كما لم تكن تروي غليلهن بأي انفعال من جانبها . كانت تأتي عندنا مرة أو مرتين في الأسبوع ، وفي الغالب في عطلة نهاية الأسبوع كي يتسنّى لها قضاء وقت أطول معنا . كانت تحب بيتنا كما تقول . أحبتْ أمي وأحبتْ أبي ، رغم تعليقاته التي تجعلنا جميعاً نبحث عن جُحر ندفن فيه أنفسنا الكاشّة خجلاً وحرجاً . كان يسألها في كل مرة عن سبب الحروق المنتشرة على وجهها فتوضح له بأنها ليست حروقاً وإنما خلقة الله! ثم يظل يسألها عن سرّ مشيتها كما لو أنها ترقص ، فتظل تجيبه - دون أن تبدي انزعاجاً من تكرار السؤال والجواب - بأنها تُعاني عرجاً طفيفاً في إحدى ساقيها . ثم قد يطيل النظر في وجهها قبل أن يُطلق تعليقاً لا يستلزم رداً بقدر ما يستدعي إطلاق رصاصة في فمه من نوع : «من قال إن الله جميل يحبّ الجمال؟!» في مرة واحدة سألتُها عن سبب ارتدائها الحجاب ، رغم أن شقيقاتها لم يكنّ محجبّات ، فشلحت إيشاربها وأبانت عن مساحة عريضة من رأسها كانت جرداء اللهم إلا من زغب قليل متناثر . ثم تخلّت فلسطين عن حجابها في بيتنا غير متحرّجة من الكشف عن بقع الصلع التي وشمتها لمعة احمرار سطعت تحت إضاءة اللمبات الراعشة في البيت .

كانت فلسطين تسكن في حينا في النُّقرة ، على بعد أربع عمارات منا . وكانت تتحجج أمام أسرتها بالمذاكرة كي تأتي عندي . وكانت تجرجر معها شقيقها الصغير عامر الذي ما إن يدخل بيتنا حتى يصرخ : «جوعان!» فتعدّ أمّي له ولشقيقته ساندويشتين ، فيلتهم ساندويشته وساندويشة شقيقته . سألتُها عن حرصها على القدوم مع شقيقها الذي تظل تتناقر معه طيلة الجلسة ، فصارحتني أن أهلها يبعثونه معها رقيباً عليها . كان عامر يتركنا ثم يحوص في المطبخ بين رِجْلي أمي يسألها عن شيء يأكله ، ويمنح نفسه رخصة فتح الثلاجة أو تفقّد طناجر الغداء فوق الموقد ، فتطعمه أمي كي تلجم فضول بطنه ، واصفةً فمه بالبلاعة التي لا ترفض شيئاً رغم تقلّص حجمه . وقد يحمل أحد أصنام أمي يقلبها على أوجهها فتركض أمي نحوه مذعورة خشية أن يقع الصنم من يده فيتحطم معه قلبها ، كما تحطم مرات كثيرة . في إحدى زياراته المفروضة علينا كما على فلسطين ، تأمّل راقصة الباليه قبل أن تلقى حتفها معلقاً أمام أمي : «خالتي! عيبها مبيّن!» ، فنهرته أمي : «عيب تتفرّج على عيبها!» بعد أن اطمأن أهل فلسطين إلينا ، وعزز اطمئنانهم قيامي بزيارتها في بيتها وحدي دون أن يرافقني أيٌّ من أشقائي ، تحررت فلسطين من مراقبة عامر ، فأصبحت تأتيني وحدها . في تلك الساعات العزيزة جداً على قلبها ، كانت تتكلم كثيراً وكانت تضحك أكثر ، وكانت تجلس معنا على العشاء ، منتظرةً دورها كي يقوم أبي بضرب جبينها ببيضة

مسلوقة ثم يقشّرها لها ، وتناولها أمي حبات الفلافل وشرائح المرتديلا التي لا تطولها يدها القصيرة والخجول . فإذا ما حلّ وقت رحيلها كتم وجهها وانطفأ كلامها ، وانسدلت فوق عينيها ستارة كآبة .

تعودتُ على فلسطين في حياتي . وفي داخلي لعلّي أحببتُها دون أن تكون هناك قواسم أو قاسم وحيد مشترك بيننا كما تشترط نظرية الحب الإنساني . وهو حبّ لم يشارف الإشفاق أو يتماهى مع عطف يحاذي الدونية . كان حباً يُصنّف كحالة خاصة ، يقف لحاله بحاله . كنتُ أترقّبُ زيارتها . فإذا تأخرت عن الموعد ، شعرتُ بالخوف من أن أكون فقدتها . احتمالُ فقدها مثُل في فكري جلياً بعد أن رسمته هي لي بثقة ، مسرّةً لي أنها حين تكبر سوف ينبت شعر في رأسها وسوف تنتظم مشيتها . كانت تؤكد أنها سوف تترك البيت ، سوف تصفق الباب وراء أمها المنسحبة من أيامهم وأبيها الذي يجعل وجوده مشيتها أكثر عرجاً كما تستفزّ يده التي تنهال عليها وعلى من في البيت في أيام «نقصه» الكثيرة يدها ، فتزحف تحت الإيشارب لتنتزع شعيرات أُخريات من مساحة غير جرداء تماماً من رأسها . وعدتني بأنّ المسألة مسألة وقت - وإن طال قليلاً - قبل أن تعرف أشياء كثيرة وترى وتفهم . قالت إنها لا تفهم الآن لأنها لا تريد أن تفهم . قالت إنها لا تعرف لأنها تخشى إذا عرفت أن تكره نفسها وتكره حياتها أكثر مما تكرهها الآن . أقسمتْ أنها سوف تعرف أشياء كثيرة

قريباً ، وقد تعرف كل شيء في ما بعد ، وهو أمر لن يكون بعيداً جداً . ويوم تعرف لن تكون هي . . هي .

في السنة النهائية من المرحلة المتوسطة ، تحسّن أداء فلسطين في المدرسة - بمساعدتي - وانحسرت إهانات المعلمات لها ، لكنّها ظلت تدّعي أنها لا تفهم كثيراً ولا تعرف إلا ما يُراد لها أن تعرف . أصبح وجودها في وجودنا شبه يومي . والدها غدا أكثر إيغالاً في عنفه ، وبات الهرب المؤقت عندنا حاجة لفلسطين لا خياراً . من يوم لآخر ، يأتي شقيقها عامر معها لا لمراقبتها وإنما ليحتمي بنا هو أيضاً ، وإن ظلّ يغيظ أمي إذ يقلب أصنامها متلصصاً على عوراتها . ثم انضمت بعض شقيقاتها إليها يحتمين بوجودنا مرة في الأسبوع . استقبلت أمي فلسطين وشقيقاتها بحنان ، فاردة ذراعيها اللتين تفوحان لحماً وبصلاً مقلياً نزّ نكهته السكرية ويخنة معشقة بالبهار فوق أنفاس الجميع ؛ فوسّعت دائرة الأكل على السفرة المفروشة على الأرض ، وتقاطعت الأجساد والأذرع الجديدة مع أجسادنا وأذرعنا ، مفسحين لها المجال كي تسبقنا إلى صحن الحمّص وميسّرين لها الوصول إلى زيتون الكالاماتا اليوناني . أبي وجد في الرغبات الجديدة وشظايا الانكسارات القادمة التي أضيفت إلى رغباتنا وانكساراتنا مؤقتاً فرصة لاستعراض سرعته ومهارته في كسر البيض المسلوق على الجباه الجديدة . فيأكلون ويضحكون ، ونأكل ونضحك ونعرف أن مالاً قليلاً تبقى ، حتى في المخابئ السرية ، لكن هذا لا يمنع أن نفرش غداً ويوم غد

واليوم الذي يليه عشاءً يكفي لرغبات أكثر ويزيح الانكسارات من الطريق إلى حين .

ثم كما هجست ، فقدتُ فلسطين . غادرت مع عائلتها بيتهم الضيق في النقرة إلى بيت ليس أكثر اتساعاً في الفحيحيل ، كمنطقة سكنية مستجدة متطرفة ، في ما يشبه المنفى بالنسبة لنا . واستتبع انتقالهم إلى الفحيحيل التحاقها بمدرسة جديدة . فأصبحتُ أقطع طريق العودة من المدرسة إلى البيت وحدي ، دون فلسطين إلى جواري تستعجل الوصول قبلي إلى بيتنا الصغير ، وطهونا اليومي ، وصخبنا الذي يمتشق الحيطان ، وشلالات السيفون في الحمام التي لا يهدأ هديرها ، مبتسمة في وجه أبي إذ يستقبلها مذكراً إياها بخلقتها البشعة ومشيتها العرجاء واحتمالات الاغتصاب غير المبرر لها . زرتُها في بيتهم الجديد مرة أولى وأخيرة ، فلم تتكلم كثيراً ولم تضحك . والدها توحّش أكثر وأمها أمعنت انسحاباً ؛ عامر وشقيقاتها تواروا في جنبات الشقة التي فاحت منها رائحة أثاث متقادم فقد إنسانيته ، كما فقد تماسكه أثناء عملية الانتقال السريعة والظالمة من النقرة إلى الفحيحيل . لكن عيني فلسطين بدتا أقل تيهاً وأكثر مضاء . ضمّتني إلى كيانها الذي اصلبّ ، عند الباب مودعة . لم أكن سأراها بعد اليوم ، هي وأنا أدركنا ذلك ، لكنني كنتُ مطمئنة ولم أكن تعيسة أو متألمة تماماً ، ذلك أن فلسطين أزاحت طرف إيشاربها فأرتني جانباً من رأسها ، مشيرة بشيء من الاغتباط إلى شعيرات بدأت تغطي المساحات الجرداء .

وطريقانا لم تلتقيا . مشيتُ في طريقي أحمل اسمي عبئاً ، وجسماً مفصلاً بمسطرة ، كأنه تكيف مع الاسم الذكوري دون التباس فاستقامت استداراته واستوت انتفاخاته ، منزلقاً في البنطلونات الواسعة العريضة براحة . وخشية أن تمضي ذراعاي إلى غير ما أريد ، انكفأتا إلى جانبي وانغرست كفاي في جيبي بنطلوني ، فارتفعت كتفاي لتأخذ مشيتي طابع ولد استدرك أنه لم يعد طفلاً ، فأراد أن يلحق بالكبار شكلاً لا مضموناً . كان شعري نصف طويل ونصف ناعم دون هوية ، وكان بتموجات هزيلة غير مثيرة وغير ثائرة . لم أعرف كيف أشكّله ، فاكتفيتُ بربطه على هيئة ذيل ناحل قزم حُرم خاصية النطنطة ، كما لم يستثرْه تحرْكُش النسائم به . في أوقات كثيرة كنتُ أرفعه وأثبته في منتصف رأسي من الخلف على هيئة كعكة ، وكنت أضع فيها دبابيس سوداء كثيرة دون مراعاة إخفاء منظرها الشاذ ، لكن ما إن ينتصف اليوم حتى تكون معظم الدبابيس قد أمطرتْ على كتفي ، لتتداعى الكعكة ككتلة رملية فقدت جَلَدها على التماسك ، ولم تكن تفيد معها في معظم الأحايين محاولاتي اليائسة للملمتها وتوضيبها . ظلّت الكعكة تستفزّ أمي سنوات طويلة . على الباب وأنا في طريقي إلى المدرسة ، ثم إلى الجامعة ، ثم إلى العمل ، كانت تستوقفني :

ـ شيلي هالخرية من على راسك!

كنتُ أنا بكر أبي وأمله . نجحتُ في الثانوية العامة بمجموع

تخطى التسعين في المئة ببضعة أعشار . حلّقت زعاريد أمي من النافذة وتردّد صداها في العمارة . شاركتْها الجارات الزغاريد ، فاشتبكت لعلعة أصواتهن الملحنة مع أغنية عبدالحليم حافظ «وحياة قلبي وأفراحه» التي تصدح سنوياً من حناجر الراديوهات في البيوت . وكانت بيوت العمارة قد شرعت أبوابها لالتقاط الفرح أو توزيعه مع حبات الملبس والشوكولاتة المرتجلة . البيوت المغتمّة ظلت أبوابها خرساء . أم هناء لم تشارك أمي فرحتها لأن ابنتها هناء كانت راسبة . وأم حسام فتحت بابها بمواربة لأن حسام نجح بمعدل اثنين وخمسين في المئة ؛ فلم تعرف ما إذا تعيّن عليها أن تفرح أم تبكي ، لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تزغرد له ، وإن جاملت أمي بأن أطلقت زغرودة من أجلي ، تقطّعت في نهاياتها بسبب انحشار الدموع في صوتها . واست أمي أم حسام ، وإن تلت في سرّها آية «قل أعوذ برب الفلق» خمس مرات متتاليات أتبعتها بآية «قل أعوذ برب الناس» خمس مرات متتاليات أيضاً دفعاً لعين أم حسام التي قد تصيبني بشرارة الحسد غصباً عنها من فرط انقهارها دون أن تنوي شراً حقيقياً بي! ارتجلنا حفلة في البيت ، فتحزّمت شقيقاتي ورقصن بقمصان النوم والبيجامات . أبي رقص كما يحبّ أن يرقص في مناسباتنا المفرحة على شحّها . كانت رقصته أشبه برقصة الحصان حين يرفع قائمتيه الأماميتين بالتناوب ، لكن الحصان - بدون أدنى مقارنة - كان أكثر ثباتاً ، كما كان أكثر رشاقة وهيبة وسموّاً ؛ إذ لم يعرف أبي

كيف يتبع مساراً محدّداً في حركته ، مستقيما أو دائرياً ، وعندما يرفع ساقيه بالتناوب ، يميل أثناء تقافزه إلى أحد الجانبين ويوشك أن يطيح ، فيرفع إحدى ذراعيه في الهواء للتعويض عن اختلال توازنه الذي يسببه رفع إحدى ساقيه ، مقوّساً ظهره طازّاً مؤخّرته كي يتوازن ؛ فيبدو في النهاية كحيوان أعرج أو جريح يحاول أن يفلت من مرمى إطلاق نيران .

انتهى الفرح سريعاً ؛ أبي أعلنها : «الكويت أو البيت» ؛ فمعدّلي وفّر لي مقعداً في كلية الآداب في جامعة الكويت في الوقت الذي حصلتُ فيه على قبول في كلية الهندسة بجامعة اليرموك في الأردن . لم يكن الالتحاق بجامعة الكويت التي اشترطت معدلات تعجيزية لقبول الوافدين بالأمر الهين أو المتيسر لمن مثلنا . بالنسبة لأبي كان القرار محسوماً ، ولم يكن الأمر يحتمل تفكيراً ثانياً أو يستدعي حسبة معقدة ؛ فالكويت «ببلاش» والأردن «بفلوس» . وما يتحصل عليه من فلوس تطعمنا ، لا تكفي أبداً لتعليمي ، لا في الأردن ولا في غيرها ، واثقاً بأنه لن يصيب مالاً وفيراً فجأة ، وأنّ عمّاً له لن يظهر من صفحات الأيام المجهولات يموت في كولومبيا ويترك له مصنعاً لإطارات السيارات ، كما حصل مع زميل له سوري في العمل ، ترك الوظيفة وترك نفط الكويت لأهل الكويت وسافر إلى كولومبيا لمتابعة معاملات استلام مصنع عمه . لم يشأ أبي أن يقلّب في رأسه الأقاويل التي تواترت ، مجرِّدةً الحكاية من فتنة السحر الأوّلية ، بأن زميله انتهى به المطاف مُحتجزاً لدى إحدى

عصابات الجريمة والمخدرات في كولومبيا ، انتقاماً من عمّه الذي ظلت حسابات له معهم معلقة ، وأن الحكومة الكولومبية صفّت مصنع عمّه وباعت موجوداته لسداد بعض قروضه المصرفية ، وأن بعض أهل الخير تحاططوا ولمّوا مبلغاً من المال أعان زوجته على السفر مع أولادها إلى سورية في انتظار زوج تناقصت احتمالات عودته أو حتى نجاته . لقد اكتفى والدي بالاغتباط بالجزء الفانتازي من حكاية زميله وإرثه من عمّه الكولومبي الذي طلع من خرافة الآمال المستحيلة ، ملتمساً منها في مناماته المتهورة احتمالات قدرية بعيدة قد تطرق أبواب الفرج المقفلة .

ولماذا يذهب أبي إلى كولومبيا؟ فالحظّ - كما برهن له - اعتاد أن يقفز عنه في أماكنه وشوارعه بل وفي ما يستوجب أن يكون عقر حظّه ، كما قفز عنه إلى صديق الطفولة عثمان فتح الله الذي جاوره في مخيم الوحدات ، فتآخيا فقراً وتعليماً في مدارس الأونروا ، قبل أن يفتح الله على صديقه عثمان فتح الله بالعلم والمال والرِّفعة ، متخصصاً في ألمانيا في مجال طبي نادر وملتحقاً بمستشفى في السعودية كخبير ألماني . ظلا لسنوات يختاران يوماً للقاء في إجازات الصيف المتباعدة في مخيم الوحدات ، الذي شهد طفولتهما ، يقطعان شوارع المخيم ، يطرقان أبواب البيوت التي ألفتهما ، ثم يجلسان في مقهى في السوق فيما يلوكان تفاصيل غربتيهما ، التي يخفّف أبي من قحطها وقسوتها فيما يُشفّي عثمان فتح الله بعضاً من فَتْحها

عليه ويُسْرها . اعتاد أبي أن يشتري ورقة يانصيب من بائع بسطة بالقرب من المقهى ، الذي بات مع تعريشة اليانصيب المعروضة لشاري الآمال والحظوظ من معالم الشارع الثابتة . أفلت عثمان فتح الله ضحكة رفرافة عندما اقترح عليه أبي أن يشتري ورقة يانصيب لنفسه! أعلنها الخبير الألماني أنه لا يؤمن بالحظ ، واصفاً إياه بذريعة المتخاذلين ، وحاول أن يجر أبي إلى الكفر المنطقي ببدعة الحظ من خلال مقاربة منطقية للموضوع ، لكن أبي الذي لم يستطعم الربح بيانصيب الحياة عموماً لم يشأ أن يعتنق هذا الكفر . بكياسة الأوروبي الجديد الذي تطور برهافة في شخصه ، اشترى عثمان فتح الله ورقة يانصيب كي لا ينفصم نفسياً وفكرياً عن صديق طفولته الذي هو أبي ، بل أعطاه شرف انتقاء ورقة الحظ بما أنه خبير شراء أوراق يانصيب ، فكرّس أبي خلاصة حظّه المتعثّر في اختيار ورقة ، متمحّصاً متفحصّاً متفكّراً في التوليفات الرقمية للأوراق قبل أن يسحب ورقة بعينها من كدسة أوراق نوّرت في عينيه ، إذ ارتسمت الإمكانات الخفية للأرقام فيها . كان أبي يعرف أن عثمان فتح الله سيفوز ، وكان أن فاز عثمان فتح الله بخمسة آلاف دينار ، هي قيمة إحدى فئات اليانصيب . صدحتْ ضحكته مديداً على الهاتف حين بشّر أبي . أبي فرح لفوز عثمان فتح الله بحق ، وهو ما أغضب أمي بحق أعظم ، مضيفةً هذه الواقعة إلى سلسلة وقائع كثيرة تندرج تحت مسمى «سمّة البدن» تستعين بها للتدليل على مصيبة جاءتها من حيث لم تحتسب يمكن

إيجازها بكلمة واحدة هي «نعيم»! لقد أعاد فوز عثمان فتح الله لأبي ثقة أصابها العرج منذ زمن، بأنه قادر على تصيّد الحظ حتى وإن كان لغيره، فظلّ لأيام يستجلب مذاق الفوز في نفسه التي عاشت فيها البهجة خيلاء مؤقتة. أما أمّي، فراعتْها فرحة أبي وروّعها أكثر أن يكون هو من اشترى ورقة اليانصيب لعثمان فتح الله. «يعني شطارتك ما شاالله ما شفناها إلا للناس!» ظلت تبرطم طوال الوقت دون أن تصيب رماح مرارتها كبرياء أبي التي تعاظمت على غير العادة. ثم بلغ غضب أمي زُبى غير منظورة حين أقر لها أبي - وما كان يجب أن يقرّ - بأن عثمان فتح الله عرض عليه أن يتقاسما قيمة ورقة اليانصيب كونه صاحب الفضل في اختيارها، لكن أبي الذي بدا مفتوناً بذاته، مختالاً بها، رفض العرض السخي وبشدة. هنا، تقمّصت أمي شخصيتها اللبؤية ونطّت على أبي، فارتميتُ على أبي في محاولة عبثية كي أنتشله من تحت مخالبها وأسنانها، إذ خرمشتْ رقبته وعضتْ طرف أذنه. وحين أفلح أبي - بمساعدتي - في الإفلات منها أخيراً، لملم ذاته التي تغضّنت ورفع سبابته في الهواء، صارخاً:

- اسمعي! كرامتي فوق كل اعتبار!

فما كان من أمّي إلا أن رفعت إصبعها الوسطى في وجهه، قائلةً بحنق شفطته من كل جسمها المهتاج وصبّته في لسانها وعينيها:

- كرامتك ادْحَشْها في طيزك!

عشية أوّل يوم دوام لي في جامعة الكويت، أخذني أبي في مشوار، رتّب له بحرص، ليناقش معي أمراً مصيرياً يصعب - كما قال - أن يتساسر معي بشأنه في البيت، حيث أمي التي تلتقط حفيف النظرة وإخوتي الذين يبعثرون وجودهم في كل ثقوب بيتنا. قبل ذلك، ولثلاث أمسيات خانقات لروحي، كان قد جرّني إلى البلكونة، يحمل دفتراً وقلماً وجملاً اعتذارية شفاهية طويلة ومهلهلة بعضها لم ترتجِ معنى مفيداً وإنما جاءت لتفريغ شحنات صمتي. بخط بالغ في تشذيبه وتنسيقه، قسّم كلفة وجودنا على ورقة بيضاء نظيفة في أرقام كبيرة بارزة، أعاد عليها بالحبر مراراً، وكتب إلى جوار كل رقم نوع النفقات. ولم ينسَ أن يضيف إلى جانب النفقات الثابتة نظيرتها المتغيرة، وهي تشمل - من بين مستجدّات لا حصر لها - طلبات جدتي فاطمة وعمتي نجاح وخوازيق عمي موفق، وحرن سيارتنا الكابريس التي اشتراها أبي مُهانة بمحرك يسعل عدة مرات قبل أن يُدار ومَتْن منتهك وعنعنة تعود إلى أربعة مُلاّك على أقل تقدير، حوّر كلٌّ في متنها ومضمونها بطريقته. ثم أضاف بنداً يتعلق بنفقات مستقبليّة «ولا بدّ» لجهة تعليم أشقائي وشقيقاتي. فالمؤشرات تقول إن معظمهم لن يصيبوا تفوقاً دراسياً، وبالتالي قد لا تتاح لهم الدراسة مجاناً في جامعة الكويت، وهو ما يعني أنه يتعيّن تدبير كلفة دراستهم في جامعات أخرى، وبالتالي علينا أن نستعدّ منذ الآن لأحمال ثقيلة سوف تقصم ظهورنا. في كل مرة، كان أبي

يرسم أمامي الأرقام الثابتة المخيفة لأكلاف حياتنا ، والأرقام المستجدة الأكثر إخافةً ، والأرقام المنظورة في مستقبل مرعب إذ ترتسم إلى جانب الأرقام وجوه أبناء يستطيلون ويعرضون ، يأكلون بشراهة ، ملابسهم وأحذيتهم تهرأ سريعاً ، أذرعهم ممدودة إلى فراغ جيبه . ثم يجمع أبي الأرقام الضخمة ، ويطرحها من دخْله المنكمش ، فتكون النتيجة سالبة ، قد تزيد وقد تنقص لكن يظلّ السالب هو سيّد المحصّلة النهائية .

يسألني أبي :

ـ والعمل؟

في مشوارنا الذي خطّط له كي يكون حاسماً وكاشفاً ، وربما ممهداً طريقي الآتية ، توقف أبي عند دكانة أبو موسى الملحقة بعمارتنا ، واشترى زجاجتي بيبسي ، ثم توقف عند مطعم عش الهنا ، الكائن عند تقاطع النقرة مع حولي ، واشترى ساندويشتي فلافل بالبندورة والطحينية . انطلقنا باتجاه البحر . ركن أبي السيارة عند طرف الشاطئ ، ثم قطعنا المسافة إلى حافة البحر حافييْن . كان البحر منسحباً ، وقد كشف الجزر عن طمي وحصى وطحالب ، وبقايا كائنات خلعتْ أصدافها ، وقذارات وزناخة دلّت أن البحر لعله لم يستحمّ بمائه منذ وقت . جلسنا على صخرتين ناتئتين . أكلنا وشربنا ورمينا قذاراتنا إلى جانب القذارات الأخرى ولم نتكلم . حتى البحر لم يهدر أو يهذر ، منصتاً بجسده الساكن إلينا ، وإذ ملّ صمتنا غفا . كان الليل أسود فوق الاحتمال . والسماء كانت كُحلية مقطّبة .

السيارات التي اعتادت مصابيحها المتقطعة أن تمطر الشاطئ بشذرات ضياء متشرذمة من بعيد لم تبنْ ، فانغرستْ أعضاؤنا في العتمة . ثم كأن شيئاً ثقيلاً جداً سقط على ظهر الكون ، فطأطنا جسدينا انحناء .

دخن أبي ثلاث سيجارات ، لم يُسمع خلالها سوى نفسينا اللذين تجنبا الاحتكاك وصوت تنهّد التبغ . في الفواصل بين السجائر ، تراءى لي مشهد ارتسم على خلفية كنفا البحر الحالكة لشخص يبدو مألوفاً لي ، يجلس فوق صخرة شاطئية . فجأة يقف البحر ، ترتفع أذرعه الماردية ويسحب الصخرة إليه ، فيما يحاول الشخص أن يتقلّص ويصغر ، لعلّه يتفادى أذرع المارد المعتصرة ، ثمّ عندما يرى حذاءه خالياً منه ، طافياً على سطح الماء ، يعلو ويهبط كقارب صغير معطّل وسط محيط ، يدرك أنه قد أصبح الآن جثّة .

استدار أبي نحوي . بحثت عيناه عن عيني . حين شقّت نظراتنا الحلْكة والتقت رغماً عني أمسك بذارعيّ ؛ ضغط عليهما بشدة ، ثم قال كما لو أنه وقع على روح المعنى :

ـ يابا يا جهاد! إنتِ رجُل البيت .

(٨)

لقد أردتُ اسمَكِ . نزل إليّ في مناماتي المؤرّقات المعذّبات رهيفاً شفيفاً . تنزّل عليّ من علياء روحي مهيباً ومُهاباً ، ومعه نزلتْ طلّتُك الآسرة فتملّكتني ، واستقرّ مقامك العظيم في قلبي ، فملكتِه واستملْكتِه . ولعلّكِ تخلّقْتِ في رحمي بنتاً لشهوة الاسم المصطفى لا لشهوة الطفل ؛ فاسمُك يا جلال كينونتك هو كلّ ما أنا لستُ عليه ، وهو كلّ ما لم أكُنْهُ ، وهو كلّ ما أريد أن أكونه ، وهو حتماً يا أسمى الخلائق أجمعين ما لن أكونه . إن اسمَك يا أبدع الإيحاءات هو لزاماً ما لا أجرؤ أن أكونه .

التقيتُك أوّل مرّة جنيناً في الشهر الخامس من الحمل . مَثُل أمامي رسمُك غامض التكوين ، هائم الملامح والأبعاد ، على شاشة جهاز السونار . لا شيء فيك دلّ عليك . بل لا شيء فيك تبدّى حيّاً وحياتيّاً سوى نبض هيئتك المتقطّع في الشاشة الصغيرة . الطبيب جعلني أنصتُ لقلبك . جحظت حواسّي كلّها لمسمعك . خفتُ أن أنصت طويلاً ، فيتعب قلبك من إنصاتي له ، أو قد يجفل من تنصّت حواسي عليك

فيتوقّف عن الإنشاد . ثم ارتداني خوفٌ أكثر واقعيّة ، إذ اعتقدتُ أنّي قد آتي حركة ما ، تكون - دون قصد وربّ الكون - السبب في تعثّر نبضك أو تلعثم إيقاعه . لكنك ، وأنتِ السابحة في مائي ودمي ، مددتِ روحك إليّ حبلاً لخلاصي الآتي . وفي إغماضة عيني ورعاً من عظمة الحياة التي تُخلق في داخلي ، رأيتك تبسطين كفّك المزروعة حديثاً فوق وجهي ، فيما تبوس أنفاسك عنقي ، فتمطرينه ناراً . فتحتُ عينيّ مفزوعة ، لكن يديك كانتا مكانهما في شاشة السونار ، متكوّرتين قريباً من وجهك . تحسّستُ عنقي ، كان ساخناً ورطباً ، يلفحه تيار هواء يتسرّب من مكان ما .

كانت تلك المرة الثانية التي أزور فيها الطبيب منذ الحمل . المرة الأولى كانت يوم أنبأني بالبشارة . ظنّ أنه كان يزفّ إليّ خبراً مبهجاً ، وهو يعلن أنّني حامل في شهري الأول . لم أدّعِ المفاجأة . الاختبار المنزليّ الذي أجريته بنفسي كشف لي ما لم أشأ اكتشافه ، لكنّني أردتُ أن أكون مخطئة ، وأردتُ أن يكون تحليلي مغلوطاً . أردتُ أن يأتي بولي خالياً من علامات غرس بشريّ فيه يمدّ جذر الزواج ويفرّعه بدل أن يقتلعه . قال لي الطبيب إنه يتعين أن أتناول أدوية مقوية لرفع منسوب الحديد والفيتامينات في دمي الذي سجل قراءة متدنية . «الجنين يتغذّى من دمك ، وصحته من صحتك» ، قال لي بهيئة كليشيهيّة تمثلت حرصاً وجديّة تتناسب وقيمة كشفيّته المرتفعة التي تستدعي شرحاً طبياً مجانيّ المعنى . افترض الطبيب أنني

يجب أن أفـرح . انتظر أن أفـرح . توقف عن الكلام ينظر إليّ ، مستقرئاً ردة فعلي ، شاقاً وجهه عن ابتسامة مفرزنة ، لكنه ما عتم أن عاد إلى لا مبالاته ، عندما جمعتُ أشلاء الخبر ، مزرِّرة قميصي في محاولات عديدة ، إذ أخطأتُ في مرات كثيرة في إصابة الزرّ الصحيح بالعروة الصحيحة ، واستعجلتُ المغادرة . كـتب لي الطبيب الوصـفـة ، ومـضـيتُ دون أن أتوقف عند السكرتيرة - كما طلب مني - كي تحدّد لي موعداً للمراجعة المقبلة .

في الطريق إلى شقة زوجي بالغة السعة في الشـويخ ، انحرفتُ عن الشارع الرئيسيّ إلى أحد المداخل ، ومنه تفرّعت الطرقات ، فضاقت وانحشرت ، حتى وجدتني أقف قبالة عمارتنا في النقرة . أطفأتُ محرّكَ السيارة وفتحت نافذة السيارة ، ثم مددتُ ذراعي إلى هواء بغصون آذارية شلحتْ صدى الشتاء ، أقطف منها أصداء أيامي الماضية المتفتحة . شقّتنا كانت في الطابق الثاني ، ونافذة غرفة الجلوس ، التي هي نفسها غرفة نومنا وغرفة مذاكرتنا وغرفة طعامنا وغرفة حياتنا ، كانت تغامز الشارع . كانت النافذة شبه مشقوقة ، وكانت الستارة نصف منزاحة ، وكانت الإضاءة مترشحة بقدر ، فيما همَت الأصوات التي اضطرم فيها وجود إخوتي حثيثاً من شقّ النافذة إلى فضاء الشارع ، مختلطة مع الأصوات التي أمطرتْ من شقوق الحياة الملوّنة في العمارة . حطّت أصواتهم في عيني ، ثم غرقت في ماء دمعي .

أدرتُ السيارة وانطلقتُ لا أهتدي بفكرة أو بإحساس أو حتى بالطريق التي يُفترض أني أحفظها . فتحتُ الحافظة ، تحت تابلوه السيارة ، وأخرجتُ شريطاً لنجاة الصغيرة وضعته في المسجّلة . بصوتها المغزول بالماء ، باحت لي نجاة بعشقها للبحر والسماء والطريق . كانت الساعة تدنو من الثامنة مساء . مشت السيارة بإرادتها الحرة إلى الشاطئ المتطرّف المتلصص على المدينة من أكتافها . فتّشتُ عن صخرتي فأشارت إليّ كي آتيها . ارتديتُ شال الليل الليلكي وجثمتُ فوق الصخرة ، عين على البحر الذي أدار لي ظهره نائماً ، أو ربما كان زعلان أو لعله مليان بالصمت ، وعين على السماء اللامبالية ، غير المسامحة غير المزروعة بالنجوم والفرحة . بكيتُ . أعتقد أني بكيتُ أكثر من أيّ بكاء في الحياة التي خبِرتها . بكيتُ كل البكاء المخصص في عُمري . بكيتُ بسفور مبعثه اطمئناني أني وحدي في المكان ، ووحيدةٌ في زماني . واطمأننتُ أكثر ، ربما لأن البحر ظل نائماً بعمق حتى حين علا نحيبي ، كما ظلّت السماء سارحة ، نائية ، غير متعاطفة . لكن يبدو أن البحر أفاق دون أن أنتبه له ، فحين غادرتُ صخرتي ، كانت إحدى أذرعه قد امتدت إليّ خلسة . على صفحته ، طفت وصفة الطبيب ، كقارب خال يتراقص فوق سطح الماء بخفة .

مخاضي بك كان متعسِّراً . من اضطرام الأصوات التي حوّطتني ، خفّ إليّ صوت الطبيب يقول لمن حوله إنه قد يضطر إلى إجراء عملية قيصرية . انتزعتُ جسدي من قيعان

الألم ورفعتُ رأسي نحو الطبيب. «بديّ أشوفها تطلع مني.» أصررتُ. ضغط الطبيب على يديّ بحنوّ قائلاً: «الحبل السُّري ملفوف عليها وإذا ضلّ الوضع هيك ممكن تختنق.» عاين وجهي الذي اقتات الإجهاد على قسماته، مضيفاً أنه لا يرغب في أن يطيل عذاباتي أكثر من ذلك! أشرتُ إليه كي يقترب مني. حين أصبحت عيناه في مرمى عيني مباشرة، شددتُه من كتفه راجيةً: «لا تشقّني.. من شان الله!» قلتُ له أن يمنحكِ الوقت كي تتحرّري من حبلي السري. سوف أنتظرك مهما احتاج الأمر. أما بشأن عذاباتي، فما له وما لها؟!

في دفعة المخاض الأخيرة، في هبّة جسدي العاتية التي فصمتْ كيانك عن رحمي أخيراً، خرجتِ مني برأس مرفوع ينشد السمو، وعينين مفتوحتين بنهم، انحازتا نحوي لتستقرّ تطليعتهما الحادّة الثاقبة على ضفاف عيني. زفرتِ البكاء الذي انتظروه منك. أعطيتِهم مؤشرات الحياة الطبيعة التي أرادوا قراءتها، ثم التمستِ حضني. سألتْني الممرضة:

ـ هل اخترتِ لها اسماً؟

في الليالي الحذرات، كنتُ أنزلق من الفراش، أخفّ إلى حمّام الضيوف المتطرّف في شقّة زوجي الكبيرة، أعتلي مقعد المرحاض، ثم أقفز على الأرضيّة الرخامية التي تميد بجسمي الذي أثقله الغضب والكراهية. كان صوت ارتطام قدمي بالأرضيّة يجعل الهواء القليل يعصف حولي قبل أن يحطّ على لحمي الحار كنثار بارد. ثم حين أعتلي مقعد المرحاض من

جديد ، أنظر إلى مرآة الحمام المثبتة فوق المغسلة ، فأراها معروقة ، غشتْها صُفرة وجهي . أقفز ، وأقفز ، ثم أقفز ، وأقفز أيضاً ، فيثقل اللهاث ، وتنساب جداول العرق على المرآة ، إلى أن يفتر وجهي تحت طبقة متراكمة من الغبش . في القفزة التاسعة أو العاشرة ، يكون جسدي قد أصابه الغثيان وشيئاً من «تعناية» ، فلا أستطيع أن أرفع ساقي المخذولتين ، فيما تتعانق ذراعاي فوق صدري لتدفعا عن كياني القشعريرة الصاعدة إليّ حثيثاً . أنصتُ إلى جوفي مؤملةً أن تكون الحياة التي اخترقتني عنوة قد تفتفتتْ أخيراً . لكن هذه الحياة ، حياتك ، لا تغادرني دماً قاتماً متكتلاً ، تشكيلاً مُجهَضاً - كما أملتُ - مع خراء التعناية .

وفي ليلة غير حذرة ، اعتليتُ حافة المرحاض ، لكن إحدى قدميّ انحرفت عن مكانها قبل أن أثبت في وقفتي الانقضاضية فاختل توازني ووقعتُ ، فيما انثنتْ قدمي أسفل جسدي ، متلقفةً وزن السقطة الهائل . دوّى الألم في داخلي ، لكنني كتمتُ صرخة كانت يمكن - في حال طلعت - أن توقظ كل العوالم الغافلة . انتقعتُ بالعرق والوجع ، وقطعتُ المسافة الطويلة من حمام الضيوف إلى غرفة النوم جرجرةً . أعتقد أنه أُغمي علي ، وحين أفقتُ من إغماءتي في الصباح ، كانت قدمي منفوخة ، وكان الوجع قد استحال نقراً متفاقماً ، متواصلاً في كلّ بقاع جسدي . قلتُ لزوجي ، الذي حملني مكرهاً إلى المستشفى ، إنني كنت أستحمّ حين تزحلقتُ في

البانيو . أكد الطبيب أنني أصبتُ بكسر مضاعف في الكاحل ، وأنه يتعين أن أظل في الجبيرة ستة أسابيع ، وبأني لا أستطيع أن أمشي مدة أربعة أسابيع على الأقل . لكن الطبيب بدا منتشياً وممتناً لقدرة الله ورحمته ، معلناً أن الجنين بخير . لقد واصلتِ تخلّقك ؛ وحياتك كانت آتية . . آتية ولا ريب .

أتريدين أن أصدق أنك وقعتِ في البانيو بعد منتصف الليل؟! تزلزلت ضحكات زوجي في كياني المتقوّض ، وهي الضحكات ذاتها التي تبعثْني إلى الحمام ثم التفّت عليّ وسحقت قلبي ، وذلك يوم وطئني . في ذلك اليوم ، ثم في أيام كثيرات لاحقات ، وقفتُ تحت شلال الدوش ردحاً من الألم ، أحاول أن أحتّ سوائله التي تكلّست فوق جسدي . فركتُ بقوة ، ثم فركتُ بقوة أشدّ . بكى جسدي ماء غزيراً ، لكن ماءه هو لم يسقط ، ظلّ ملتصقاً بي ؛ فخطّك بماء سميك ، غرسك بدم ولحم مقيم ؛ لقد نسجك روحاً مستتبّة في داخلي .

حين وقع بصري ، غير المتشوّق مبدئياً ، عليك وأنتِ جنين في الشهر الخامس ، أحسسْتُ بأنّي أعرفك . وفي اللحظة التي طرق فيها نبضك سمعي ، أيقنتُ أنك كنت تتحدثين إليّ ؛ كأننا التقينا بعد فراق على الكابوتشينو الخاص بي وميلك شيك الشوكولاته خاصتك ، في زاويتنا إياها في الكوفي شوب المألوف ، وأننا كنا نتعاتب كشخصين بالغين دون مرارة ودون كبير ملامة . من وسط العتاب وفي خضم الوَجَل ، وَجَلي من نبضك العنيف ، كأنك هدّأتِ من روعي . عندها ، قررتُ أن

أعـهـد بنفـسي إليك مـهـمـا كـان ومـهـمـا سـيكون . وعندها ، أعطيتكِ اسمك الذي استحققتِ دلالاته الجليلة حتى وأنتِ كـيـان هلامي غـيـر مـفـصّل التـقـاسـيم ، ذلك أني رأيتُ أيامي المقبلات ترتمي على بلاطك ؛ رأيتني أستجيرُ بك فأجرتِني ؛ لقـد رأيتُ أنني رعـيّـتك الفـقـيـرة ورأيتُ أنّكِ أنتِ راعـيـتي ومنقذتي .

سألني الطبيب ، مستغلاً انفراجة وجهي ، ما إذا كنتُ أريد أن أعرف جنس الجنين ، فأجبته دون أن أحيد عيني عن قِبلتك :

ـ بنت . . بنتي أنا . . بعْرفها!

في فصول التردّي وعتمة الأيام ، أنرتِ يا روحي روحي . أعـتـقـد أنني بفـضل نعـمـة جـلالتك عليّ وإحسانك الجمّ لوجودي ؛ أنا رعيّتك المستضعَفة المستعطِفة ، عشتُ . من قال إن العيش سهلٌ؟ لكن عيشاً عن عيْش يفرق ، وأنت يا أجلّ المكارم الفـرق . . أنت يا أغلى الهـبـات العـيْش بألف لام التعريف . لقد امتشقتِني ، طوّقتِني ، سَريْتِ في دمي ، والغريب أني بك ومعك أصـبـحتُ أخفّ . وإذ كـبّلني عُـمْـركِ فـإنني بطريقة ما تحرّرتُ .

لقد أنقذتِني من نفسي ، من سأم نفسي من نفسي ، وفي مـرة بلغ بي سـأم الذات والحـيـاة أنني حـمّـمـتُكِ وأرضـعـتُكِ وهززتُكِ على حضني حتى غـفـوتِ . عـبـبتُ رائحـة وجـهـكِ القطني وقبّلتُ عنقكِ الزكي ، الذي توشّح بنسائم كولونيا الفلّ

وبودرة التلك ، وطويتكِ في سريرك . أذبتُ عشرين حبة أسبرين ، هي كل ما في العلبة ، في كوب ماء وشربتُها على ثلاث دفعات ، ثم تمددتُ على سريري المحاذي لسريرك متقمّصة هيئة محتضرة ، بأقل قدر ممكن من الابتذال والدراما ، وانتظرتُ أن أموت . كنا وحدنا ، أنتِ وأنا ، في البيت ، بيت أبي ، بيتنا الجديد . بدأت الأشياء تختفي من الغرفة ، تلاشت الخزانة والمكتبة وطاولة الكتابة . القصاصات المعلقة على الحائط خارت قواها فتهاوت . وكأس الشاي بعود القرفة المسودّ المتروك على الكومودينو ذاب . البلابل البلاستيكية الملونة الصغيرة التي كانت تدور فوق سريرك مغرّدةً فرّت مفزوعة . ألوان الغرفة تبخّرت ، فطفوْتُ فوق بياض زخم البياض . ارتفعتُ عن السرير . كانت السماء البيضاء التي شفّت من سقف الغرفة واستشفت تسحبني إليها . لكن بكاءً لاذعاً خرق البياض وشدّني من السقف إلى القاع . حاولتُ أن أرتفع ثانية من وسط البكاء الذي سحب سحابة البياض من تحتي فارتطمتُ بالأرض ، واصطدم رأسي بحافة السرير . نهضتُ بتثاقل . جرت الدوخة في كل أطرافي . شيئاً فشيئاً عادت الأشياء والألوان ، أو بعضها ، إلى الغرفة . كنتِ تبكين ، وبكاؤك كان أنصالاً تخترق غيبوبتي . انقلبتِ على بطنك ، ورفعتِ رأسكِ إليّ ، مواصلةً البكاء الذي اتخذ صيغة جزع . مددتُ ذراعيّ الرخوتين إليك فاستطال كيانك نحوي ومططتِ جسدك إليّ . كأنك ارتميتِ عليّ . . والله لا أذكر تماماً . . ولا أظن أنك في شهرك

السادس كنتِ قادرة على الوقوف، لكنك مع ذلك كأنك تسلّقتِ الهواء إليّ، فبلغتِني قبل أن أبلغك. طويتُكِ في صدري وارتميتُ وإياك على سريري مستسلمةً لدوار هائل ظلّ يلفّني. لم تتوقفي عن البكاء، وكنتِ تركلين بطني الذي توسدتِه بقدميك الزعنفيّتين. مَددتِ يدكِ إلى وجهي، وبأظافركِ الطازجة التي تشبعت بالحليب خمشتِ أنفي وذقني، ثم حطّتْ يداك على فمي، ودسستِ أصابعكِ الصغيرة فيه. عندئذ هدر صدري بعنف جامعاً سيل غثياني من أقاصي جسدي ثم دفعه خارجاً. لقد تقيّأتُ؛ تقيأتُ تباعاً، قذفتُ قيئاً كثيراً، متقطعاً، تغلّف برغوة بيضاء ذات طعم مرّ غطّت ذقني وصدري، كما سالت على جزء من ذقنكِ وصدرك. أخيراً، توقفتِ عن البكاء وتوقفت عن الجزع، وفمكِ الذي عرض وانفرج لحظتها كان يمكن جداً أن يُقرأ بأنّه ابتسامة الله.

ـ شو راح تسمّيها؟

أرادت الممرضة أن تنتزعكِ مني، لكنّني شددتُك إليّ. قالت لي إنهم سوف ينقلونني من غرفة الولادة إلى غرفة أخرى. ناديتِني بعينيك. همستِ في عينيّ كي أطفئ قلقي وأغفو. «ارتاحي!» قلتِ لي. ربتِّ على خوفي. هدّأتِني. طمأنتِني بأنك معي. دندنتِ لي: «ياللا تنامي ياللا تنامي..». قلتُ للممرّضة التي أخذتك مني:

ـ ملكة.. اسمها ملكة.

ثم نمتُ. نمتُ نوماً عميقاً.

الباب الرابع

.. في البيوت العارية

بلغني يا ملكتي السعيدة ، ذات الرؤى الشاردة
والأمنيات المجنّحة . .

(٩)

أنّ الحياة في بلد نفطيّ كالكويت لم تجعلنا كويتيّين ، كما كان أقرباؤنا الكثُر الذين خلّفناهم خلفنا في المخيّمات يتّهموننا أو يحسدوننا . كانت حياتنا في الكويت ، في واقع الأمر ، امتداداً لحياتنا التي كانت يمكن أن تكونها في المخيم ، موسومة بالشتات مع القليل من التحسينات والإضافات . كنّا نقطن في شقة في عمارة مكتظّة بالبشر والأحاسيس المتضاربة والمتصارعة بسبب تقلّص الفراغات في منطقة النُّقرة . كانت النقرة من الأحياء السكنية التي تحوّلت إلى ما يشبه مخيّمات للفلسطينيين في الكويت ، وكانت ذات طابع غيتوي ، فلم تكن الشُّقق الضيقة الحشرة ، المخيميّة الطابع ، تليق بسكنى العائلات الكويتية ، رغم محدوديّة إمكانات الكويتيين التكاثرية مقارنةً بالإمكانات التناسلية الهائلة للفلسطينيين . شقّتنا لم تختلف في تفاصيلها كثيراً عن بيت عمّي أبو تيسير في مخيم الوحدات في عمّان . ففي كلا البيتين هناك الصورة إياها لعمي محمود الذي استشهد في معركة الكرامة ، وقد تم تلوينها لاحقاً ، فغدا عمي فيها أنقى وجهاً وأرقّ ابتسامة ،

بملامح سينمائية غشتها طلّة حُلُمية . كما توجد ساعة الحائط المجانية نفسها تقريباً التي تأتي دعاية مع أحد منتجات نستلة ، وهناك نمليّة المطبخ ، المقسّمة إلى نصفين : علوي مزجّج وسفلي مغطى ببابين عريضين من الخشب السميك يُغلقان بتثبيت مسمار صدئ مطعوج على طرفيهما . في النمليّة إياها في البيتين ، تصطفّ علب الشاي النفل والميرمية والنعناع الناشف وحبّ الهال والزعتر الأخضر والدقة الحارة ، وبرطمانات مخلل الخيار والفقوس والمقدوس واللِّفت والزيتون الأخضر والزيتون الأسود والجبنة النابلسية المغليّة المنكّهة بحبة البركة السوداء .

وهناك أيضاً في كلٍّ من مخيمي النقرة والوحدات ثلاث إلى أربع تنكات زيت زيتون ، هي حصة الاستهلاك السنوي لكل بيت ، ترفعها أمي وامرأة عمي على ألوح خشبية كي لا تتسرّب إليها رطوبة الأرض ، وكلتاهما تخزنان التنكات الأثيرات في أقدس مكان في البيت : غرفة نومهما (بسبب تقلّص المساحات الأخرى في البيت أصلاً) ، ضامنتين على سائلها الذهبيّ ممتلئ القوام ، غزير النكهة . وعلبة عصير التانغ البودرة التي تذوّبها أمي للضيوف لا تختلف كثيراً عن بودرة العصير المعبأ بأكياس الذي تذوّبه امرأة عمي لضيوفها ، وماكينة «سنجر» للخياطة ، التي تغطيها سجّادة صلاة في غرفة الجلوس ثلاثية الاستخدام ، كغرفة معيشة وغرفة ضيوف وغرف نوم ، في بيت عمي لا تختلف كثيراً عن ماكينة «الفراشة» للخياطة في بيتنا ، الموجودة في غرفة المعيشة المستخدمة أيضاً كغرفة نوم

وطعام ومذاكرة ، وإن كانت أمي قد خاطت لماكينتها غطاء من لون ستائر الغرفة ، بحاشية مزوّقة بدانتيل .

كما يقتل ابن عمّي أبو تيسير صرصوراً يهرول هلعاً تحت طاولة التلفزيون بفردة شبشبه التي يسدّدها إلى الهدف بحرفية ، دون أن تحيد عيون عائلة عمّي عن متابعة عبدالحليم حافظ وهو يداعب فاتن حمامة ويتحرّش بها بلطف ملاحقاً إياها بـ«حلو وكذاب» ، يفتك شقيقي بسحلية أبو بريص التي تزحف أعلى الجدار ، بضربة من فردة حذائه تصيب الهدف من الرمية الأولى ، فيما تظل أبصارنا منصوبة على عبدالحليم حافظ الذي يتساءل «بتلوموني ليه» ، دون أن نلومه في واقع الأمر إذ وقع في غرام مريم فخر الدين ، مفتوناً بعينيها . وكما تخيط شقيقاتي فساتين للدمى من بقايا أقمشة تعطيها أمي لهن ، مخلفات بعض الإبر والدبابيس على البلاطات ، فتغزّ أقدامنا الحافية لنضع ختم وجودنا بالدم على أرض ليست لنا ، تخيط بنات عمي أبو تيسر أزياء مبتكرة للدمى ، وإن كانت ملابس دُماهن أجمل ، كما لم يكن يفرطنّ بالدبابيس والإبر أو بقايا الخيوط والأقمشة في زمانهن الذي ظل مقتّراً عليهم ، أكثر بكثير من تقتير زماننا علينا . ومع ذلك كانت الإبر تغافلهن فتثقب أصابعهن ، لكنهن يمصصن دماءهن فلا تلوث ملابسهن أو ملابس دُماهن الجديدة . وكما يستلقي عمّي على الطرّاحة لسماع نشرة أخبار الثامنة مساء في التلفزيون الأردني وهو يحتسي شاياً بالميزمية ، يتربّع أبي فوق حشية رقيقة لسماع

نشرة أخبار الثامنة مساء في تلفزيون الكويت وهو يرشف شاياً بالنعناع . وحين ينبري زعيم عربي للحديث عن قضية العرب الأولى محذراً من مغبّة التفريط بالحقّ الفلسطيني في كلّ من النشرتين ، فإن عمّي وأبي لا يتورّعان عن تسديد الإصبع الوسطى له ؛ وقد يردفانها بشتيمة تمسّ عضو أخت الزعيم أو أمّه ، إذا ما جال الأخير وصال في ساحة وغى كلامية مغبرة بحماسة مفرطة .

عمي رُزق بعشرة أبناء ، وأبي بثمانية . غير أنه كان هناك فارقان أساسيان بين الحياتين ؛ حياة عمي في مخيم الوحدات وحياتنا في مخيم النقرة . فبيت عمّي أولاً كان ملكاً لهم ، بما أن لجوءهم انطبع بطابع الديمومة ، فلم يكن يهبّ عليه أبو حمد آخر الشهر ، كريح مغلّفة بالتراب ، يطالب بالإيجار المستحقّ له .

ـ افتح الباب يا أبو جهاد! افتح الباب! لا تخليني أكسره .

كانت خبْطات أبو حمد العنيفة على باب بيتنا تنهمر بتواتر مُتلاحق ، فتتسلّق ارتجاجات الباب الجدران التي تطوِّق حياتنا المتوقّفة في الداخل ، كما تعلق بأطراف العرَق المتلبّد على وجوهنا الواجمة قبل أن ترشح في أجسادنا فنختضّ في تجمّدنا . حتى عُروق الشقوق في الحيطان المقطّبة كانت كأنها تتمدد أكثر على وقْع الارتجاجات . تتصاعد مستوياتُ الحرارة في الصالة المفصولة عن العالم الخارجي برقاقة خشبية اسمها باب . كانت الحرارة طالعة من أجسادنا التي كتمتْ تملْملها

وارتدت أثواب حياة ضيّقة ، كما كانت طالعة من الجو الحبيس في البيت بسبب انطفاء جهاز التكييف . من نوع الخبْط وشدّته وقياس سرعة الضربات وتسارعها كنّا نستطيع أن نقيس ، بشيء من الفطرة وشيء أكبر من الخبرة ، درجة غضب أبو حمد ، أو «بو حمد» كما يناديه قومه ، وكما صارت الأقوام الأخرى تناديه . حقده المتعاظم على صمتنا من خلف الباب كان يجعله لا يتورّع عن استخدام كلتا يديه في كيْل مزيد من اللكمات على الباب . يداه المغتاظتان كانتا حجارةً صلدة تُقذف علينا بغلٍّ ، نحن الخائبين المختبئين في جُحْرنا .

- افتح يا أبو جهاد! افتح الباب!

كالعادة ، تخلّف أبي عن تسديد الإيجار في موعده ، لا لشيء إلا لأنه ببساطة «ما معهوش» . على مدى أسبوع ، يغزونا بو حمد يومياً . «هبّ الطوز!» تقول أمي التي تسارع إلى خفض صوت التلفزيون ، فتطلّ منه الوجوه في الشاشة بكماء ، ويطلب أبي منا أن نتجمّد في مواضعنا ، فلا نأتي حركة ، ولا نصدر نأمة ، ونبتلع أنفاسنا التي تقارع ضجيج الخوف في دواخلنا . وفي دواخلنا أيضا نحمد الله الذي هدانا إلى إغلاق الباب بالمفتاح ، وهي هداية ينزلها الله علينا في الأسبوع الأول من كل شهر ، موعد هبوب الطوز ، ذلك أن أيادي الجارات اعتادت أن تفتح الباب دون «إحم» أو دستور غير معتقدات للحظة أن في ذلك انتهاكاً لحياة مُشاعة إلى حد كبير ، كما حياتهن . أشقائي الأصغر كانوا الأقدر على ممارسة التجمّد ،

فيقفون كتماثيل حجرية ، أو ككائنات سُحرت فجأة ، محاكين الحكايات الكرتونية ، وقد يُغالون في أداء مشهد التجمّد ، متحدّين الحياة باستمراء ممارسة الموات حتى بعد انحسار هبة الطوز . كان التجمد بالنسبة لهم لعبة ، وكان لأبي وأمي ، ولي أنا تحديداً ، رُعباً .

ـ والله العظيم لأكسر الباب يا أبو جهاد!

كنتُ أغمض عيني كي أزيح عن بصري احتمال أن يتداعى الباب في أية لحظة ، بعدما توجّعتْ مفاصله ، فأنّت وتضعضعت وتخلخلت ، وهو احتمال قد يُحيلنا إلى فرجة لا تختلف كثيراً عن الفرجة على امرأة ، شنيعة الجسم ، تسقط منشفتها خارج الحمام ، في الوقت عينه الذي قد تتهاوى فيه جدران بيتها ، فيصفع عريها بصر البشر ، فلا تعرف ما إذا كان ينبغي عليها أن تتوارى خجلاً من تبعات الفرجة أو تقزّزاً من عريها الذي توافرت فيه كلّ عوامل البشاعة . هذا ما كان يخطر في بالي في كل مرة يرتجّ فيها الباب تحت لكمات بو حمد غير الرحيمة ، فأرى الصالة التي نتجمّع فيها ساكنين ، ساكتين ، قد تكشّفت في ساحة عامة كأنّ جدرانها انسدلت من كل الجوانب كقشرة موز . أكون أنا وحدي في الصالة . أقفُ في المنتصف عاريةً ، وما يُقلقني حينها أكثر من أيّ شيء آخر ، أن شَعري في تلك اللحظة يكون أشعثَ أو مفروقاً على الجهة الخطأ ، أو أن آثار الكدمة البنفسجيّة أعلى فخذي الناجمة عن الاصطدام بأثاث البيت المرصوص لم تزل جليّة ، أو للمصيبة

الأعظم أن يكون الشعر النابت على ساقيّ من الوضوح للخَلْق المُتجمْهرين في الساحة بحيث يجعلني ألعن الساعة التي أصبح أبي فيها هو أبي .

في لحظات تجمّدنا ، ألوم نفسي على أشياء كثيرة ، من بينها أنني لم أنتف شعر ساقي بالسكر أو بماكينة حلاقة أبي ، دون أن يتصور أبي أن ماكينته تستخدم لهذه الغاية ، وأنني لم أستحمّ ، وأنني أنتعل شبشباً بلاستيكياً يحتمل دعكة الاستخدام اليومي . لكن مثل هذه اللحظات المتكررة تكون فرصة لي لاستعادة أشكال أخرى من الفرجة على عري مجاني غير نبيل ، غير حصيف ، مثل عري سكينة ، الأمر الذي يطمئنني بأن عريي المحتمل قد يكون أكثر احتمالاً ويمكن هضم تبعاته . فعري سكينة عسير جداً على الهضم ، وهو عري كان مرشحاً للفرجة مرات كثيرة وذلك لكل الأسباب الإلهية غير المتسامحة مع زلات الشرط الإنساني ، ما أحال جسد سكينة مادة لمزاجنا الخيالي ، فنعيث فيه تشويهاً فوق تشوّهه ، متمادين في العبث بتفصيلاته .

في مرة ، جلست سكينة على العتبة الواطئة لباب شقتها المقابلة لشقتنا ، ترتدي شلحة بيج من قماش «البرلون» الرخيص مادةً ساقيها أمامها . كان لون شلحتها ، شبه الشفافة ، أغمق قليلاً من لون لحمها البيج المرصوص في كل مناطق جسدها . تأطر ذيل الشلحة بدانتيل سكّري أُنهك لونه من العتْق . ثقب صغير.نصف مغمض راوح في تنورة الشلحة ،

أدخلتْ سكينة فيه أصبعها فاتّسع . من تحت الشلحة ، بانت حواف سوتيانة بيضاء مصفرة من العرق والرطوبة اختنق فيها ثدياها الضجران . ارتفعت الشلحة حتى أعلى ركبتيها ، فجرى لحم فخذيها على الأرض تعبّه النظرات الفضولية . صنعت الدوالي النافرة عناقيد خضراء مزرقّة تكتّلت في بعض بقاع ساقيها . لم تكن الجارات ليفوّتن فرجة كهذه . كنّ يدعين الإشفاق على المخلوقة ، فيسارعن في جلب أغطية من بيوتهن كي يسترن لحم سكينة المفضوح . تختلط الأصوات التي ترسبت مع ثفلها روائح بيوت متكتّمة على طبقات من اللحم النزق وأمنيات هزيلة ، مُردّدة : «الله يستر عليك وعلينا!» لكن سكينة لا تكون معنية بالستر ، ولا يبدو أن منظر لحمها يروّعها كما يروّع الأخريات . كانت قد وجدت المفتاح أخيراً ، كما تجده دائماً ، ففتحت باب بيتها مغافلةً زوجها جميل المسترسل في قيلولته وخرجت حافية ، شبه عارية ، قبل أن تقفل الباب من الخارج على جميل ، الذي اعتاد أن يغلق عليها وعلى عقلها السارح في عالمه الخاص ، وتجلس أرضاً . حتى عندما أنجبت سكينة طفلها الأول ، كانت تجد المفتاح الذي يخبئه جميل ، وتفتح الباب ثم تغلقه على جميل وعلى الرضيع ، فيظلّ صغيرها يبكي بينما يظل جميل غاطاً في النوم . ثم حين زاد صغارها ، قرر جميل أن يحضر والدته ليظل الأطفال تحت عينها حين يشتّ عقل أمهم . كانت سكينة تستجيب لأمي أكثر من أية جارة أخرى ، وكانت أمي تقبّل رأس سكينة وتأخذ وجهها

الذاهل بين يديها المنقوعتين ببخار بيتنا الحاني ، وتلثم خدودها المتوهجة حزناً ، وتطيّب خاطرها وتراضيها ، كأنها هي التي زعّلتها ، ثم تصنع لها كوباً من الكاكاو الساخن ، فلا تعطيه لسكينة إلا إذا فتحت فمها أولاً ، وبصقت مفتاح بيتها الذي تحتفظ به تحت لسانها في يد أمي .

كانت النسوة يتلكأن في تدثير سكينة ؛ ذلك أن التملّي في منظر قبيح فيه تسرية وعزاء لهن ، دون أن يعني ذلك شماتة من جانبهن ، أو سوء نية مستديماً في نفوسهن . كان عري سكينة المعلن يحاكي عريهن المُداری الذي يكرهنه وأحياناً يقرفن منه . في بعض الأحيان ، في بعض أشكال بوح الذات ، قد يعبرن عن هذا القرف بطريقتهن . كانت محضيّة تضبط موعد زيارتها شبه اليومية لأمي في العصاري مع خروج أبو معاذ للعمل في منجرة وخروج أبي لمحله ، كعادة أكثر منها ابتغاء للرزق . في بيتنا ، وفير المرايا ، ترى محضيّة نفسها وما وراء نفسها . تتربع أمي فوق السرير في غرفة نومها ، تبسط كومة الغسيل الذي جمعته من الحبال ، تنفض عن مفاصله حشرجة الجفاف وتصففه ، فيما تقف محضيّة أمام مرآة طاولة التسريحة أو قد تفتح إحدى أبواب خزانة الملابس المبطّنة بالمرآة ، ثم ترفع فستانها إلى أعلى بطنها معاينةً عريها بالطول وبالعرض . تحدث كتلة الشحوم الهائلة المتجمّعة في محيط وسطها فوضى مربكة في المرآة . سرّتها الداكنة ، الغائرة في بطنها تبدو كعين عوراء ، تتلمس بصرها بصعوبة في خضم

بحار اللحم المتلاطم التي تغمرها . ساقا محضيّة معوجتان ، بربلتيْن هزيلتيْن قياساً بفخذيها البلوطيتيْن وبطنها ، مترامي الشحوم ، تقاطعتْ فيه سنوات الحَمْل المتكرر مع ترهّل الأزمنة والسُّمنة البلدية . «شايفة!» تخاطب أمي ، «قديش أنا بشعة!» تترك أمّي الغسيل مشفقةً على جارتها ، فتحاول أن تخفّف عنها وتشيل عنها بعض نقمتها على جسدها ، حيث تقف إلى جوارها في المرآة . ترفع أمي فستانها حتى بطنها ، فتريها لحمها هي الأخرى الذي لا يقلّ تثنياً وتكسّراً عن لحم جارتها ، وتسير أصابعها فوق علامات الحَبَل أسفل بطنها ، التي تنذر بمزيد من التشقّق والاستفحال . ثم تحتار المرأتان اللتان تعبطان جسديهما في المرآة ، في أمر ذلك السواد شديد القتامة الرابض أعلى فخذيهما ، عند منبع المتعة الخافتة المتوارية . تعترف أمي لمحضيّة أنها أول مرة تكتشف اسوداد لحمها في تلك المنطقة التي أوت شهواتهما المظللة ، والمستَرقَة في الغالب ، كما انزلق منها عيالهما الكُثر . ضحكتْ أمي وهي تعقد مقارنة بين لحمها ولحم محضيّة ، ثم توصلت إلى نتيجة هي غير ما توقعتها : «عارفة يا محضيّة؟ عن جدّ إحنا بشعات!»

- افتح يا أبو جهاد! افتح حالاً! والله لأكسر الباب .

لكن بابَنا لا ينخّ ، ولا يرضخ لوعيد بو حمد . بابُنا يظلّ مغلقاً ، واقفاً ، متحاملاً على رضوضه وكدماته ، كما يظل صامداً ، مكتسباً صموده من عقيدة التعود ، ومنيعاً مناعة الأشياء والكائنات التي تتآلف مع أصحابها فتشعر بشعورهم

وتتخاطر معهم ، ذلك أنها مع الوقت تتأسى لهم ، تصبح ملتحمة بهم ، وتغدو امتداداً عضوياً ونفسياً لحالاتهم ، بل إنّ كيانها يكون مرتهِناً لكيانهم ومرتهَناً به . لقد كان بابنا حنوناً علينا ، وخشبه الذي تعشعشت فيه الرطوبة وأنواء العصور واضطرابات الأزمنة وتصدّعات الروح كان رؤوماً بنا ، دفع عنا ريح بو حمد ورياحاً أخرى كثيرة خلّفتْ ذرورها على عتبات حياتنا .

الفارق الثاني بين حياة أبي في مخيم النقرة وحياة عمي أبو تيسير في مخيّم الوحدات ، هو أنه لما كان عمي أبو تيسير يلثغ بحرفي السين والصاد ، فينطقهما ثاءً ، فإنّ عضو أخت الزعيم أو أمه على لسان عمي أبو تيسير لم يكن هو ذاته تماماً على لسان أبي .

(١٠)

كنّا نعيش في بيوتنا كأننا عائشون فيها أبداً . حتى حين ظلّ بو حمد يهدّد بكسر باب شقتنا ، وأبواب شقق أخرى في العمارة ، لم نخَلْ واقعياً أن أيّ أحد قادر على أن يسحب بلاطنا من تحتنا أو يشلّحنا حوائطنا ، التي دهنّاها عشرات المرات طيلة عيشنا شبه المخلّد في الشقّة ، كما دقَقْنا فيها عشرات المسامير التي تحمل عشرات البراويز ، واستبدلنا عدة مرات ستائر النوافذ التي ذوّبتها الشمس وغبار الأيام وأجسادنا التي نمت خفيةً أثناء اختبائها خلفها في فصول الغميضة المتعاقبة ، ونجّدنا كنب الصالون مرتين ، ثمّ استبدلناه مرة ، وحملنا الطربيزات الخشبية إلى جارنا أبو معاذ مرات كثيرة ، كي يثبت سيقانها المتداعية . تألفت شقتنا من غرفتي نوم وصالون مفتوح مطلٍّ على الشارع ، مما جعله أشبه بممرّ عريض فعلياً ، اتّسع لطقم كنب صغير الحجم وطقم طربيزات ، وزاوية جانبية لبوفيه متواضع . غرفة نوم أبي وأمي كانت تُفتح على الصالون بباب مزدوج عريض ، فإذا ما زارنا ضيوف على غير موعد ، استبطأنا الترحيب بضيوفنا الواقفين على الباب إلى

حين تقفل أمي باب غرفتها المشرع . أمّا غرفة نومنا ، وهي ذاتها غرفة معيشتنا ، فكان فيها تلفزيون وصوفا بتجويف استغلّته أمي مخزناً للبطانيات ، وخزانتان : الكبرى لملابس البنات والصغرى لملابس الأولاد ، ثم حين تكاثرت ملابسنا ، نحن البنات ، كما هو متوقّع ، سطونا على مساحة متعاظمة من خزانة أمي لحاجياتنا .

بتكليف من أبي ، صنع أبو معاذ لنا سريراً من طابقين أتبعه بآخر من ثلاثة طوابق ، فكان اثنان من أشقائي ينامان على السرير ذي الطابقين بينما تنام ثلاث من شقيقاتي على السرير ذي الطوابق الثلاثة ، بحيث تعتلي الأخف وزناً الطابق العلوي . أما من تبقى فكانوا يتوزعون على الأرض وعلى الصوفا التي تُفرد ليلاً ، فيما يجاور الرضّع منّا أبي وأمي في غرفتهما ، على سرير صغير ، صلّحه أبو معاذ عدة مرات ، كما بدّل طلاءه ، بين الوردي والأزرق ، حسب جنس المولود . حتى إذا ما كبر الرضيع انضمّ إلى غرفتنا التي كانت تنكمش علينا ، ليحتلّ مكانه في غرفة أبي وأمي رضيع جديد . حين تضخمت بعض أبداننا واستطالت سيقاننا وتمطّت أذرعنا ، فغصّت فراغات الغرفة الضيقة بأطرافنا وزوائدنا ، استعان أبي - كالمعتاد - بأبو معاذ ، فقام بإغلاق البلكونة ، التي امتدت خارج غرفتنا كمعي ضيق ، بألواح خشبية من كل الجهات المفتوحة ، لتتحول إلى غرفة إضافية ، مع جعل الجهة التي تطل على حبال الغسيل قابلة للفتح من خلال لوحين خشبيين عريضين يفتحان ويغلقان

بالانزلاق الجانبي . تم استغلال الغرفة الجديدة كركن للدراسة ، والأولوية في الإقامة فيها كانت لطلبة التوجيهي . في الليل ، كانت تتحول إلى غرفة نوم تتسع لاثنين منا على الأقل ، فكانت دافئة في الشتاء ، بينما استوجبت في ليالي الصيف الكاتمة الاستعانة بمروحة كهربائية متنقلة ، مع ترك باب البلكونة مشرعاً على أمل طفيف جداً بأن تتسرّب بعض برودة التكييف في غرفتنا إلى المعي المسدود .

في الليالي المطفآت ، تُقاوم أجسادنا الإغفاء . تتقلب أنفاسنا على كل جنباتها . نتكلم ، نهمس ، نقرص ، نلكز ، ننغز ، ننعر ، نتلاكم ، نترافس ، نتوجّع ، نضحك ، تتوشوش الأجساد القريبة وسط غضب الأجساد الأبعد من إقصائها عن حفيف الكلام . دويّ ضرطة يخرق هدأة الليل . نصرخ على الضارط الذي يحلف كذباً أنه لا علاقة له بالموضوع . لكن الضراط «الفشنك» يهون عن «الفَسو» الخبيث الدسيس ، فتتنفس رائحته العطنة - خاصة في الأيام التي تطبخ فيها أمي مقلوبة الزهرة - من تحت البطانيات ، منتشراً في مساحة الهواء الضيقة انتشار سحابة الغبار الذري . من خبرتنا بتنا نقرن الضراط والفسو بمؤخرات أصحابها حتى وإن أنكروا ، فننقضّ عليهم في حال استفحال الرائحة ، متعاركين بالوسائد . وفي الليالي السريات ، لا تقاوم رغباتنا المتكورة تحت اللحف والبطانيات الاستطالة والتحليق فيما أبعد من سقف الغرفة ؛ تتفتق شرنقاتنا عن فراشات أمنياتنا ، تزهر أغصاننا ، وثمارنا

تتدلّى ثقيلة من أجسادنا ، التي تكبر بعجالة وشراهة ، وبشيء من التهوّر ، أثناء نومنا المتقلقل المتقلّب .

في النهارات الفائضة بحيواتنا ننشر أجسادنا ، فيرتطم بعض لحمنا ببعض ، لكنّنا لم نكن نهاب عرينا ، أو بعضه ، الذي يتفلّت منّا ، أو على الأقل لم نكن نغطيه تماماً ، كما لم نسع إلى تدثير لحمنا الذي فاض حجمه على حجم مساحات الخصوصية الشحيحة المتاحة لنا . فنشلح ونلبس بأقل قدر من التحفّظ ، ودون أن نتدارى تماماً عن عيون بعضنا ، من منطلق - ربما - أن لحمنا الذي نما متجاوراً يشبه أحده الآخر . يدور أبي بين غرف البيت بسرواله الأبيض الذي تلوح في بعض مساحته مشحات زرقة بقايا زهرة الغسيل ، ويفتح أبو معاذ الباب لأولاد العمارة وبناتها الذين ترسلهم أمهاتهم لطلب طنجرة أم معاذ الكبيرة ببنطلون بيجامة وفانيلة بيضاء ، ترخرخ قماشها القطني الأبيض ، وشِبْه شفّ من كثرة الغلي ، كما يجلس جارنا أبو حسام على البلكونة بشورت داخلي مرقط ، يشرب النارجيلة . وإذا ما استفقدنا بلوزة أو تنّورة أو فستاناً أو قميصاً أو بنطلوناً ، نتفتّل في فراغات البيت الضيقة بين قطع الأثاث بالفانيلات والشلحات والكلاسين نفتّش عن غرضنا في كركبة وجودنا الذي تقلّصت فرديته ، ثم نفتح باب الحمام الذي لا يوصد أيّا ما يكون عليه نشاط محتلّيه في الداخل ، فتكون أمّي وسط البانيو عارية ، تسحج كعب قدمها بالحجر الخفاف ، وقد جمعت إليها قماش لحمها الذي يزفر البخار

المصوبن ، فيما شكّلت رغوة الشامبو سحابة بيضاء فوق رأسها . نسألها عن ملابسنا التائهة فتطلب منّا أن نليّف لها ظهرها الذي لا تصل يدها إلى المناطق النائية فيه . ثم تباغتنا سكينة التي تغادر شقتها في غفلة من زوجها جميل النائم ، حافية بشلحة زرقاء فاهية أصاب الفتق دانتيلها الأبيض من مطارح عدة . كالمألوف ، تفتح سكينة باب شقتنا المشاع بطبيعته دون أن تطرقه ، تنادي على أمّي كي تعدّ لها كوباً من الكاكاو الساخن ، فتخرج أمي من البانيو بسرعة ، تلف جسمها بمنشفة صغيرة لا تستر سوى شذرات من لحمها المدوّر الذي يتوهّج تحت ضياء الماء ، حيث تصيح علينا كي نحضر شيئاً نغطّي به سكينة وتطلب من إحدى شقيقاتي أن تضع الحليب على النار ، ثم تفتح أم حسام بابنا ، وتشلح فستانها مطمئنة إلى حصافة بيتنا في احتواء عريها ، وتطلب من أمي أن تعيرها سوتيانتها السوداء التي ترفع صدرها لترتديها في حفلة زفاف ابن عم زوجها ، فيما يقتحم بشّار ، أصغر أبناء محضيّة ، بيتنا عارياً ملقياً لحمه اليانع على لحم أمي ، بعدما فرّ من بيتهم بينما كانت أمه تحمّمه استعداداً لحدث تاريخي ، قاطعاً مسافة عري طويلة نسبيا إلى بيتنا ، مناشداً أمي كي تخبّئه عندها من المطهّر ، ليشتبك بكاؤه مع أصواتنا المستفسرة عن ملابسنا الضائعة ، فيبدو مشهد اللحم الكثير الذي يهرول في زوايا بيتنا جزءاً من حفلة أورجيّة غير مخطط لها وغير مفتعلة ، وغير فجّة . . تماماً .

حين يتوارى عرينا وعري جيراننا شكلاً، يتبدى ضمنياً، عبر التساؤلات الاستفهامية والاستنكارية المشروعة؛ إذ لا تنفك أمي تسأل محضيّة السؤال الذي يشغلها، كما يشغل كل الجارات: «كيف بتنامي يا أم معاذ مع أبو معاذ؟» وتنظر أمي إلى محضيّة بطريقة تفهمها معها أن النوم الذي تعنيه هو ممارسة الجنس. والسؤال الثاني الذي يلح في أثر السؤال الأول هو: «إيمتى أبو معاذ بشوفك عريانة يا أم معاذ؟».

كان لمحضيّة خمسة صبيان وسبع بنات، وكانت تعيش مع زوجها وأبنائها في مُلحق بعمارتنا في النقرة بالكويت مؤلف من غرفتين ومطبخ وحمام. إلى جانب عمله في المساء في منجرة خاصة بحولّي يملكها تاجر أثاث إيراني، كان أبو معاذ يعمل في الصباح نجاراً في وزارة الأشغال الكويتية. استغلّ براعته في النجارة، وإن تجرّدت من أية مسحة جمالية، في صنع خزائن خشبية بأدراج ورفوف وأبواب كثيرة على طول مساحة حيطان ملحقهم الخانق تضم كراكيب أسرته الهائلة، كما شطر الغرفة المخصصة لنوم الأبناء أفقياً عبر تصميم سقف خشبي مدعوم، لتتحول إلى غرفة مؤلّفة من طابقين فعلياً؛ الطابق السفلي ذو الارتفاع الأكبر والبالغ متران للأولاد ينامون فيه ويقفون فيه طوالاً منتصبين، فيما جعل الطابق الثاني ذا المتر ونصف المتر، والذي يمكن الصعود إليه بسلم خشبي متحرك، غرفة معيشة ومذاكرة ومنامة للبنات، يعشن فيها غالب الوقت وينثنين فيها عند الوقوف ويتنقلن في مساحتها الضيقة منحنيات، أو

سائرات على أربع . في طابقي الغرفة ، كان الصبيان والبنات ينامون على فرشات ذائبة وطرّاحات خفيفة ، تُطوى في الصباح وتُلفّ وتُدحش في الخزائن . أما أبو معاذ وأم معاذ فكانا ينامان في الغرفة الأخرى ، المستخدمة كصالون وغرفة معيشة وغرفة طعام ، وأحيانا ورشة نجارة مؤقتة في حال أوكل أحدهم لأبو معاذ مهمة ترميم قطعة أثاث ما أو إصلاحها . بعد سنوات من زواجهما ، جاء والد أبو معاذ ووالدته للعيش معهم ، فصارا يشاطرانهما الصالون كمنامة .

تقصّ محضيّة على أمي والجارات أنها لا تتذكر متى آخر مرة تعرّت فيها أمام أبو معاذ ؛ فهي تنام بملابس النهار ، التي هي نفسها ملابس الليل ، بتفصيلتها التي تتيح لها استخدامات متعددة . أما أبو معاذ فتقرّ محضيّة أنها لا تستطيع أن تتصور عريه كاملاً ، لقصور طبيعي ربّما في ملكات خيالها ، ولقصور من جانبه ذلك أنه ببساطه لم يتعرَّ أمامها منذ قرابة الدهر . كما لا تستطيع محضيّة أن تستطعم لحم أبو معاذ ، مقرّة أنّ لحميهما بالكاد يتلامسان ويتحاككان . فقعتْ محضيّة ضحكة ، وهي تستعيد مشاهد سوريالية من حياتها الجنسية مع أبو معاذ ؛ في مرّة وِطئها أبو معاذ وقوفاً في الحمام ، بينما كانت تغلي الغسيل الأبيض في طنجرة ألمونيوم ضخمة على البابور . واصلت محضيّة تقليب الغسيل بملقط خشبي كبير بيد ، واستندت باليد الأخرى على حافة المغسلة ، رافعةً فستانها ، مرخيةً سروالها بالقدر الكافي لأبو معاذ كي ينزلق

فيها على راحته ، دون أن يهبها كلمة أو نفساً ، ودون أن يَشْهَق أو يَشْرَق ، مكتفيةً من جانبها بنعيق البابور ولهاث ماء الغسيل الحار على وجهها كتعويض عن تعبيرات الاشتهاء الغائبة ، وقد يصفعها أبو معاذ على مؤخرتها المفلطحة إذا ما حاولت تعديل وضعية «الطوبزة» غير المريحة لها ، حتى إذا قذف سائله العابر في جوفها ، تركها وفلّ . وفي ليلة ، وبينما كانت نائمة في الصالون مع أبو معاذ ، وغير بعيد منهما كان ينام حمواها ، تسلل عضو أبو معاذ من بنطلون بيجامته الذي اكتفى بفتح زر واحد من أزراره إليها من تحت فستانها ، وألقم نفسه داخل كلسونها الذي تزحزح قليلاً ، فاضطرت محضيّة إلى ارتداء الجمود بعدما استيقظت حماتها فجأة ، تنادي عليها كي تجلب لها كأس ماء . كان أبو معاذ قد ولجها من الخلف ، فيما ظلت مستلقية على جنبها ، أما وجهها الذي ادعى النوم فكان يقابل وجه حماتها التي ظلت تطلب الماء . راهنت محضيّة على العتمة ، وضعف بصر حماتها ، وعلى تقنية أبو معاذ الجنسية التي تروم الإيلاج المتسارع والقذف السريع ، دون انتفاض أو ارتداد وسط سكوت مطبق ونفس مكتوم ، وعرق مصدره حمّ البطانية لا حمّ الشهوة . حين فرغ منها أبو معاذ ، نهضت محضيّة وجلبت الماء لحماتها التي عابت على كنتها ثقل نومها .

لسنين ، ظلت محضيّة ، كما الجارات ، يعهدن بلحمهن لأمّي في العصاري التي يغيب فيه أزواجهن غياباً محموداً من

حياتهن . وظل عريهنّ جليّ التعبير في حكاياتهن ، حُبّاً به في ما ندر ونقمةً عليه في ما غلُب ، بليغاً ومبدعاً في أحيان ، مبتذلاً وكليشيهياً في أحايين . ومرايا بيتنا التي انطبع عليها عرينا كما عري الجارات لا تزال تقلب صفحات ذاكرتها على لحم ثريّ ائتُمنت عليه ، فلم تُفشِ رواياته . لكن عرينا ولّى كأننا نمنا وصحونا على ديانة جديدة ، تُعادي تجليات اللحم البشري بكلّ تعبيراته .

شقيقاتي كلهن تحجبن في سني انبثاقة الجسد الشقيّ ، سائرات في الحياة غاضات أبصار الشوق ، مظلّلات بأذرعهن صدورهن ؛ التي تخطت مرحلة الهمس إلى الزعيق ، وسط غضب أمّي من حدبات الخجل النابتة على ظهورهن ، فقصرنَ طولاً وقصرت نظراتهن ، ومعها تضاءلت تطلعاتهن وتقهقرت آمالهنّ . ريما ، الثالثة في ترتيب البنات ، كانت أولى المحجبات مدشّنةً حقبة تغليف الأبدان ومحاصرتها بالملاءات . لم تكن قد سفحت دم المرأة الأول حين اتخذت قرارها بأنْ تتحجّب . كانت في الحادية عشرة من العمر ، منقادة طائعة لمساعي معلمة التربية الإسلامية لتطويق أجساد الطفلات في المدرسة مبكراً قبل أن تتبصّر إمكانياتها الشيطانية . حاول أبي أن يثني رانيا عن الهداية المستوردة ، أو تأجيلها إلى أن يتشكّل وعيها بموازاة استكمال تشكّل جسدها ، لكنها ظلت على موقفها تدعمها معلّمتها المُعارة من مصر ، التي تألّف حجابها من أطقم زاهية وأغطية رأس على شكل قبعات مدندشة ، ببروشات

ضخمة أو ورود فاقعة تزيّنها جانبياً ، وكانت تسمح لأذنيها بالتكشف - طالما لم يرد فيهما نص قاطع يدمغهما بصفة «العورة» - فتتدلّى منهما أقراطها الذهبية بتصاميمها المبتذلة التي توحي بأنها مقتناة لغاية تجميد القرش . أمي لم تتحمّس لحجاب ريما لأن ذلك يعني شراء ملابس جديدة لها ، وهو ما يعني عبئاً إضافياً على ميزانيّة البيت المنهارة في جميع الأحوال . لكن ريما جرّت أمي إلى حزبها بعد أقل من عام من ارتدائها الحجاب ، إذ لم يعد مستساغاً أن تمشي الأم في الشارع حاسرة فيما تزمّلت صغيرتها بحجاب متكامل أكثر التزاماً من حجاب معلّمة التربية الإسلامية ، إذ تجنبت ريما الألوان الزاهية وآثرت جلابيب طويلة واسعة ، قمعت كل معالم جسدها ، وأغطية رأس شاملة عامة غطت الشعر والكتفين والصدر ، بعدما أسلمت في العام الدراسي التالي نفسها لمعلمة تربية إسلامية من دعاة التضييق شبه الشامل على الجسد .

انسجمت أمّي مع واقع الحجاب ، وإن كانت أقل تزمّتاً وأقل التزاماً بحيثياته الدقيقة والصارمة على غرار ريما ، إذ كرهت الجلابيب الداكنة ذات اللون الواحد ، وسمحت لنفسها بارتداء الفساتين الواسعة التي أتاحت لجسدها القابل للنصاحة الاتساع والانفلاش في العرض والعمق ، دون أن تشعر بالذنب أثناء الأكل ، ودون أن تشعر بالحرج إزاء تمطيّ أجزائها الشحمية التي لم تعرف اللجم بعد ذلك . ثم تبعت شقيقاتي ريما وأمي على مراحل من النضج الجسدي وانحسار التوقعات الحياتية .

انتقلت عدوى الستر الإلزامي إلى الجارات، مع أنهن كنّ مستترات بحكم شرط حياتهن، فأم معاذ لم تختلف كثيراً قبل حقبة الحجاب عنها بعد حقبة الحجاب، فمن قبل كانت ترتدي فساتين وجلابيات طويلة غير متخصّرة، بقماش فائض من كل الزوايا، جامعةً شعرها الجعد بقمطة للملمة ضجره لا لتغطيته، فأصبحت بعد دخولها حقبة الإسلام المحجّب تزورنا بفساتينها ذاتها، مرتدية غطاء الصلاة فوق قمطة شعرها، حتى إذا تربعت على الصوفا في غرفتنا، شلحت الغطاء واكتفت بالقمطة، غير متهافتة على الستر المطلق في حضور أبي، من منطلق فتوى شخصية أطلقتها مفادها أن رجال العمارة الذين نراهم يومياً، وندخل بيوتهم في حضورهم كما في غيابهم، ونتفقد غرف نومهم، ونعاين لحمنا خلسة على صفحات مراياهم - إن أمكن - ونقدّم لنسائهم المشورة في ضمان بياض ناصع للكلاسين المصفرة من بقايا الصنّة وآثار الاحتلام، كما نساعدهن في نشر الغسيل وخياطة سحابات البنطلونات وفي فرم البصل وفي إعداد صواني معمول العيد التي تكفي لقبيلة، هؤلاء الرجال يدخلون مع العشرة في باب الحُرْمة. ولم يكن أحد ليُؤاخذ سكينة، التي ظلّت حتى رحيلنا من العمارة وأهلها، تنتهز غفْوة جميل للهرب من بيتها - كلما تسنّى لها - بشلحاتها ذات الدانتيلات المفروطة.

أما أنا - ولا أتعوّذ تماماً من أناي - فكنتُ خارج الطرح، وخارج المساءلة وخارج المقارنة ذلك أنني منذ نشوئي - لا

نشأتي - خرجتُ إلى توقعات مختلفة وحيثيّات عري تخطتْ مرايانا الحصيفة ، غير الخوّانة ، إلى مرايا فاضحة ، وكاشفة .

في معظم الحياة ، كان يكفي أن أرتدي نفسي كي أكون عارية .

(١١)

لم تخايْلني الظنون لحظةً أنّ أيامي تلك كانت ستكون أيامي الأخيرة في الكويت . كنتُ مفعمةً بالثقة أننا في مكاننا ثابتون ، رغم إرث النزوح . وحتى حين تلقفتْنا ، أنتِ وأنا ، طريق الرحيل المتوجسة وطوتْنا صحراء جافّة وسماء عوراء ، ظللتُ على يقيني وإثمي أنني - معك وبك - عائدة ، حتى أنني من بالغ اليقين أو فيض الإثم تركتُ رواية «خفة الكائن التي لا تحتمل» على الكومودينو بالقرب من سريري ، بعلامة في منتصفها ، كي أكمل قراءتها حين عودتنا . أأقول لك الحقّ يا ملكتي؟ أعتقد أنني افتعلتُ اليقين ، اغتصبتُه من متاهة عمري ، فتهتُ أكثر ، وتناسلتْ آثامي .

بالنسبة لنا ، وقبل أي شيء آخر ، كان أمر بيتنا في غيتو النقرة الذي احتوى مساحة شجيّة - تبدو الآن شبحية جداً - من عمرنا محسوماً . كان علينا أن نتركه بأي ثمن . بعد أن ولدتُكِ غادرتُ المستشفى إليه ، البيت نفسه الذي دخلتُه أول المواليد وأولى الأماني على صدر أمي . حملتُكِ حياةً حديثة أُلحقتْ بحياتي المهزومة ، وجاهدتُ إذ ضممتُكِ إلى صدري ألا

تكوني امتداداً لهزيمتي . بعد شهر من ولادتي نلتُ الطلاق ، ثم بعد أسبوع ، انتقلنا من غيتو النقرة إلى منطقة الفروانية ، فسكنّا في شقة كبيرة بثلاث غرف نوم وصالون كبير وغرفة معيشة وحمامين وبلكونتين ، إحداهما ملحقة بالمطبخ واستغلها بيلا مكاناً لإيواء حماماته . كانت الشقة الجديدة تقع في الطابق الثالث من عمارة حديثة البناء ، وكانت أجرتها أكثر من ضعفي أجرة شقتنا التاريخية ، وهو أمر لم يردعنا عن لملمة كراكيبنا الكثيرة في النهارات التي أُجهضت ضياءاتها خلف ستائرنا المرسلة وفي ظلمات الليالي الساترات ، ورحلنا من الشقة والعمارة والغيتو دون وداع ، كأننا «عامْلين عَمْلة» كما تقوّل علينا جيراننا . بالنسبة لأمي ، طلاقي هو «العَمْلة» ، فكانت تنام مقهورة وتصحو مقهورة ، وفي أوقات تظلّ ممدّدةً على السرير ، لا تستطيع أن تنام ولا تستطيع أن تصحو ، وحين تنام يجثم همّي ، ومعه «همّ» إضافي ، أي أنتِ ، على رأسها ، كما تظلّ تردّد ، فتصحو بصداع ثقيل يجعلها تهوي كلما حاولت الاسترسال في الحياة . لم تجد أمّي في الشقة الجديدة الشرحة ، ذات السعة والبحبحة ، تعويضاً عن سنوات الحشر العظام في شقة النقرة ، وإنما هروب من وجوه نساء العمارة العتيقات اللاتي حاصرنها بالتساؤلات عمّا أحاط بطلاقي من ملابسات . أم معاذ وأم حسام زارتانا في شقتنا الجديدة ، حاملتين لنا معهما ما تلكأ خلفنا من أقاويل ، فاستعجلتْ أمي مغادرتهما مكتفيةً بتقديم ضيافة فقيرة من شاي حاف أتبعته

بقهوة من قبيل «مع السلامة» ، وظلت عيون المرأتين تحوم في الصالون الكبير ، دون أن تتجرآ على معاينة غرف النوم أو اللحاق بأمي إلى المطبخ . لقد أدركتا أن حقبتهما وحقبة روعة وحقبة جلسات إعداد المعجنات وكعك العيد والمعمول وما تخللتها من إيقاعات غير متسقة لقوالب المعمول التي كنّا ، أطفالاً ، نتسابق إلى طرقها بإثارة هائلة على الطاولة قد انقضت . من ناحيتنا ، أنتِ وأنا ، حقبتنا كانت قد بدأت .

أحببتُ الشقة الجديدة على الرغم من لا عاطفيّتها وبهتان حوائطها من الدهان الرخيص وغياب البراويز التي ظلت في الصناديق فلم نعلّق إلا بعضها وعلى فترات متباعدة ، بحسب ما سمح مزاج أمي التي فقدتْ اهتمامها باقتناء الأصنام البشرية لرجال لعوبين ونساء لاهبات . احتللنا ، أنتِ وأنا ، غرفة النوم الرئيسية بحمام ملحق بها وممر صغير اتسع لخزانة صغيرة للمناشف والأحذية وباب رئيسي يفصل الممر عن بقية الغرف ، وباب داخلي يفصل الغرفة عن الحمام والممر ، فكانت كأنها بيت داخل بيت ، واستحالت مساحتنا ، أنتِ وأنا على قدّنا ، أستطيع أن أغلقها علينا فنكون فيها ، في مجالنا ، وحدنا ، غير وحيدتين . اشتريتُ سريراً مفرداً لي وسريراً صغيراً لك مسيّجاً من كل جوانبه كقفص ، دون أن تعيقك قضبانه الخشبية عن الوقوف في شهرك السابع والقفز من سريرك إلى سريري . اشتريتُ أيضاً مكتباً وخزانتي أرفف للكتب ، نصبتهما على طول أحد الحيطان . أخيراً ، اقتنيتُ الكنبة التي

تخيّلتني في زمن الانحشار التاريخي في شقتنا في غيتو النقرة - فيما بدا حلماً فاجراً - أغوص في إسفنجها الوفير أقرأ، وأمضي في متعرّجات الصفحات وسهوبها، فلا تسقط الكلمات في ازدحام حياتنا، وسط اشتباك لحمنا وارتطام أصواتنا؛ كنبة مفردة بظهر طويل ومدى مستعرض ومستطيل؛ بياء الملكية الشخصية تدرز أطرافها: كنبتي، تستند إلى حائطي، في غرفتي، في المسافة المفصّلة لها بين المكتب وخزانة الملابس، فلا تتزحزح أو تتقلقل، ما يمنحها صفة من صفات الوطن غير المتحقّق. وعندما آوي إليها كأنني آوي إلى.. إلى كنبة، بقدر ما يتسع للكنبة أن تكون حضناً ومُسْتَدفأً.

حين أُغلقُ بابي الغرفة الرئيسي والداخلي علينا، نصبح أنتِ وأنا في وطننا، فيما يعيش الآخرون، أبي وأمي وإخوتي في الشتات لاجئين في شقة جديدة أكبر من شقتنا شبه الأزلية في غيتو النقرة. على كبرها، غصّت شقة الشتات الجديدة بكراكيبنا التي حملناها من شقتنا القديمة. وتعجّبنا كيف أن وجودنا طيلة السنوات الفائتة اعتُصر عصراً بين كل هذه الكركبة. ومع أننا لم نعش سوى شهور قليلة في شقة الشتات المتجدد، إلا أنها كانت شاهدة على إضافة كراكيب أخرى وتكديس أشياء لعلنا افترضنا في لاوعينا المحموم أنها تجعل لنا أثراً شرعياً في المكان وفي الوجود المتزعزع، بحيث تقلّصت فراغات الشقة وقرّبت لحمنا - الذي أفلت إلى حين -

من بعضه بعضاً . اشترينا طاولة سفرة رخيصة مع عشرة مقاعد ، ظل خشبها الرقيق الحسّاس يتقلقل تحت ثقل أجسادنا التي ارتفعتْ فجأة من المائدة الأرضيّة إلى الطاولة ، حتى أننا احتجنا إلى وقت كي نعتاد على الجلوس على الكراسي ، كما اشترينا طقم كنب مستعملاً على شكل حرف L لغرفة المعيشة . وبما أن طبع الضيق والاكتظاظ والالتصاق اللحميّ يغلب تطبّع الانشراح والسعة الزائلتين ، تربّعنا على كراسي طاولة السفرة يشدّنا الحنين إلى الأرض التي تحتنا . وانبطحنا على الأرض أمام التلفزيون في غرفة المعيشة التي تحولت منذ الأيام الأولى لانتقالنا إلى غرفة نوم وغرفة مذاكرة وغرفة طعام هابطين من السفرة المرتفعة والكراسي غير المريحة إلى الأرض . ولو أن الأيام أطالت بقاءنا في الكويت ، لاستنسخنا ربما شقة غيتو النقرة بضيقها ودفاشة لحم بشرها في شقة الشتات الجديدة . كان لحمنا قد قل وتناقص فعلياً ، بسفر ريما وجمال إلى الأردن للدراسة ، وزواج رانيا ، لكن لحم من تبقى كبر وتضخم ، وظللنا دائماً كثيرين ، وظلت أية مساحة - مهما كبرتْ - ضيقة علينا .

إذ تُبربرين وتكاغين ، وتحاولين امتشاق قضبان سريرك القفصي مناديةً عليّ ، أترك كتابتي التي تحاول أن تتكوّن في مساءاتي السرية في غرفتنا ، وطننا أنتِ وأنا المُجترَح من شتات البنية ، وآتيك ؛ أحملك من قفصك ، أضمّك إليّ وأستلقي وإيّاك على سريري ، أمدّدك على بطنك فوق بطني ، خدّك

الاسفنجي يستريح على صدري، وأنفاسك المعجونة بالحليب المُتجشّأ وشاي الميلوبا تتكثّف على عنقي. أمسّد ظهرك، فتدغدغ قرقرات بطنك الطري بطني، ثم تطلقين سراح رياحك، فتقطع سكون خلوتنا ضرطات ينفرط عقدها بتتابع وتسارع. عندها، تبتسمين، تسحبين نفساً طويلاً عميقاً، ثم تزفرين نسمة مُكشكشة وفراشة وطيراً عابثاً، وتغفين.

ثم نمْنا وأفقْنا في ذاك الصباح، فكانت الكويت قد راحت. كنا ثلاثتنا، أنتِ وأبي وأنا، في بيتنا الجديد، في كويتنا. في البداية، حاولنا أن نصرّف شؤوننا كأن الاجتياح العراقي فعل لا يعنينا تماماً، وبكلّ تأكيد لم يأت قضم العراق للكويت على وطني المؤلف من غرفة تتّسع لحياتينا، أنتِ وأنا، وحمّام وممرّ وبابين، بمفتاح لكل منهما في شقتنا في الفروانية. ظللنا على يقيننا، شديد التماهي بالضلال، أن شيئاً لن يمسّ شرط شتاتنا حتى الأسابيع الأولى للاجتياح، إذ كانت فلوسنا القليلة تاريخياً، لا تزال في مخابئها، كما أن مخزون طعامنا الوفير تاريخياً، يملأ خزائن المطبخ وأدراج الثلاجة. ثم بعد شهرين، اكتشفنا أننا نعيش حياة شاذة لا تخضع لتفسير من أي نوع، غير قابلة للشرح، مدركين أننا وإن كنا في مكاننا إلا أن مكاننا لم يعد في مكانه تماماً. ومع ذلك، لم يكن قلقنا، أبي وأنا، في النهاية على أنفسنا، بقدر ما كان على بقيّتنا العالقين في الأردن في إجازة صيفيّة طالت أكثر مما هو مخطط لها.

كانت أمي وبعض إخوتي سافروا إلى الأردن لقضاء إجازة الصيف . ربما وجمال كانا هناك أصلاً يتابعان دراستهما الجامعية ، مسجليْن في الفصل الدراسي الصيفي ، فيما خرجتْ رانيا من بيتنا وحِسبتنا مبكراً ، فبعد تخرجها من إدارة الأعمال في الجامعة الأردنية ، رجعت إلى الكويت والتحقت ببنك الكويت الوطني بوظيفة منحتها راتباً مكّنها من شراء سيارة ميتسوبيشي مستعملة ، وحجابات باذخة النقشات . ثم خطبت وتزوجت بعد ثلاثة شهور من التحاقها بالبنك بزميل لها ، فلم تشل بعض العبء عني ، كما افترضنا ، أو بالأحرى كما افترضتُ أنا . أبي اكتشف مخططات رانيا للخروج من حسبتنا من البداية ، وتحديداً يوم عادت إلى البيت بعد تقاضيها أوّل راتب تحملُ أكياساً كثيرةً ، بسطت محتوياتها على الطاولة ، مستغرقة وقتاً في الكشف عن كنوزها أمامنا ؛ بلوزات وقمصان برسوم منقوشة بالترتر على صدورها وتنانير بتصميم الحورية تبرز تفاصيل القوام المحجّب ، غير المحتجب ، وأحذية وحقائب يد تشي بالرخص بكل الألوان غير المحايدة . وعندما حاولت رولى أن تجرب حذاء بنفسجياً بحلقات معدنية كثيرة ، انتزعتْ رانيا الحذاء منها كذئبة .

كان أبي ، مع بدء عطلة المدارس ، قد حمل العائلة في سيارته وقطع الطريق براً إلى الأردن ، ونزلوا في بيت جدّتي رضيّة ، ثم عاد بعد أسبوعين لأنه لم يستحسن إغلاق محلّه لتصليح الأجهزة الكهربائية فترة طويلة من جهة ، ومن جهة

ثانية استصعب أن يتركني في البيت وحدي وإياك . بعد شهر من الاجتياح ، جاء أحد معارف أبي من الأردن يحمل رسالة من أمي تقول فيها إن الفلوس التي معها خلصت وأنها استدانت بعض المال من معارفها ، وأنها تفكّر بأن تضع نفسها وإخوتي على أول حافلة وترجع إلى الكويت ، على الأقل ستكون في بيتها ، وإذا وقع المحظور - أي الحرب - تموت في الكويت ، البلد الذي قضت فيه عمرها . لم يبدُ لنا أن المحظور أمر وارد . وحتى حين كانت الأخبار تُحصي يومياً أعداد الجيوش الأميركية الجرّارة الزاحفة إلى الخليج ، التي تدثرتْ بصفة العالمية احتياطاً وتجنّباً لصفة التنمّر ، والأساطيل البحريّة التي عاشت يوم حشرها استعداداً لحرب التحرير الكبرى ، كنّا واثقين أن الحرب لن تقع ، ومبعث ثقتنا لم يكن بأي حال من الأحوال مصدره الطعن في جهوزية العنف الأميركي وإنما في أهلية صدام حسين نفسه وجدّيته .

بعد مرور أكثر من شهرين على الاجتياح العراقي للكويت ، انكفأ الحدث الجسيم في نشرات الأخبار ، فلم يعد هو كلّ الحدث . مع الوقت ، اعتدنا الوضع غير العادي ، إذ ألفنا أن نكون في حالة هي ليست غزواً تماماً وليست احتلالاً تماماً وليست حصاراً وليست تشريداً تماماً . كانت حالة أقرب ما تكون إلى اللافهم ، ووضع احتمالات للآتيات قد تكون كلها ممكنة كما قد تكون كلّها غير ممكنة . في الأمسيات التي غشتْها الترددات الإذاعية كنّا ، أبي وأنا ، نجلس في البلكونة نحصي

شـقق العـمـارات المجـاورة التي فـرغت من قـاطنيـهـا ، فبـدت واجهات بعض العمارات التي انتزعت منها أجهزة التكييف ، كوجوه اقتُلعت مُقلها ، فيما تقع عيوننا على قطط متجمّعة عند حاوية زبالة مقلوبة بجوار هيكل سيارة فولفو قديمة ، فيعلق أبي أن صدام لا يريد الكويت أو على الأقل لن يمكث فيها طويلاً ، العملية بالنسبة له سطو مسلّح ، فمن غير المنطقي ، بحسب نظرية والدي ، أن يقـوم شـخص - أي صـدام - بخلع نوافـذ وبلاط بيت يُفترض أنه استولى عليه كي يسكنه! اعتقد أبي أنها مسألة وقت ، لا يمكن أن يطول كثيراً ، قبل أن يقرر صدام الانسحاب من الكويت ، مكتفياً بما نَهَب منها وما انتُهِب .

ومع ذلك ، لم تبدُ عودة أمي وإخوتي مُحبّذة ، حتى وإن كـانت الكويت سـتـرجع إلينا ، بلدنا الوحيـد الذي عرفناه . جلسنا ، أبي وأنا ، في الصالة . افترشنا على الأرض زيتاً وزعتراً وبعض المعلبات ومـعـهـا بعض الاحـتـمـالات . بعد أيام من انقطاع البث التلفزيوني ، كنتيجةٍ حتمية للغزو ، شغّل العراقيون تلفـزيونهـم من خـلال محطة بثٍ في البـصـرّة ، فـأصـبـحنا - والحمد لله - أقل شعوراً بالضجر وأخف إدماناً للانتظار ، نتابع بعض الأفلام الأمـيـركـيـة التي تستعيد غرق الأمـيـركـان في مـسـتنقع الحـرب الفـيـتنامـيـة ، من باب اللهم لا شـمـاتة ، ومسرحية «باي باي لندن» ، التي تذكّر الكويتيين على طريقة وشـهـد شـاهدٌ من أهله ، بعربداتهم في بلاد الغرب ، وبرنامج «حيّاكم الله» اليومي الذي يبدو معدّاً على عجل في شعبة

الإعلام التعبوي ، وفيه يتم تفقّد معنويّات الجنود العراقيين المرتفعة جداً في الجبهة ونفْث شحنات حماسية بـ«ها خوتي ها!» ونشرات أخبار تنقل مقاطع مطولّة من تظاهرات يقودها مطحونو العالم وفلول اليسار المتشرذم ، وأعداء الرأسمالية المشوشون ، وكارهون دون أجندة مشبوهة لتدخل الإمبريالية العالمية بمقدّرات الدول والشعوب ، تُدين الحرب التي تزمع قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة شنّها على العراق بحجة احتلالها الكويت . وبين فواصل النشرات والبرامج المرتجلة والأفلام الموجهة نُحاط ، أبي وأنا ، بعدم الاستيعاب ، فلا نقاوم الرقص على إيقاع أغنية «هي وهاي وهي هاها ، هي وهاي هو . . هو هو ، اليوم جانا الزين ، يا هلي حيّوه» ، فألوي رأسي وأثنّي خصري وأهز ردفي على طريقة العراقيات عامرات الأبدان ، فيما يطعج أبي مؤخرته ، رافعاً إحدى ساقيه ، مستطرداً في رقصته العرجاء الشهيرة .

أين أميركا من احتلال إسرائيل لفلسطين؟ لماذا لم تتداعَ قوات التحالف إلى فلسطين لتحريرها؟ تساءل الفلسطينيون الغاضبون ، كالحو الوجوه ، في مخيمات الأردن على التلفزيون ذات ليلة . وفي تظاهرة حاشدة نقلتها إحدى وكالات الأنباء ، وظل التلفزيون العراقي يعيد بثّها تباعاً ، خرج طلبة الجامعات الفلسطينيون في أحد شوارع دلهي بالهند في تظاهرة مندّدة بالحرب الآتية . رفعوا أعلام فلسطين والعراق وصور صدام حسين وصور أبو عمّار ، وكالعادة حرقوا أعلام إسرائيل وأميركا

ومجسّمات على هيئة الرئيس الأميركي جورج بوش، مطالبين بتحرير فلسطين أولاً. نقّل أبي نظره بيني وبين حشد المتظاهرين قائلاً، في صيغة من توصّل إلى خلاصة حتمية: «أكلنا خرا!»، و«نا» اللامة الجامعة شملته وشملتني وشملتْ كلّ الفلسطينيين.

كان على أحدنا، أبي أو أنا، أن يذهب إلى الأردن لنجدة أمي وإخوتي، فيؤمِّن لهم البيت والمال والطعام، وإن بكميّات أقل مما اعتادوا عليه عبر تاريخهم. شرح لي أبي أن العمل في الأردن قد لا يكون متيسّراً لِمن في سنّه ومجاله. حين استقرأ فزعي من فكرة مغادرة وطني الذي أثثتُه حديثاً في شقة الشتات الجديدة التي استوطناها منذ بضعة شهور فقط، اقترح عليّ أن نحتكم للقرعة، فكتب اسمينا على ورقتين طواهما عدّة مرات، ثم طلب منّي أن أسحب الورقة التي تحمل الاسم المقدَّر له النزوح. فضضْتُ الورقة ببطء غير مستعجلة النتيجة. ارتدى أبي وجهاً متكدّراً. هززتُ رأسي باستسلام ممضٍّ. فقال بنبرة تكلّلتْ حواشيها بالذنب:

ـ انسي القرعة! راح أسافر أنا.

لكنّني كنتُ أعرف أن عرضه كان عاطفياً أكثر منه حقيقياً، فأنا الفرقُ في الحياة، وأنا الفارق في حياتنا الشائكة. وحياة نعيم ظلت في معظم مواسمها متعطلةً، لا تعمل إلاّ لتتوقف؛ متكشِّفةً، لا تُرتق إلا لتُفتق، إلى أن فردتُ حياتي فوق حياته وما تجمّع تحتها والتفّ حولها من حيوات. عند

تخرّجي من جامعة الكويت ، عملتُ في مدرسة خاصة محدودة الموارد كمعلّمة لغة إنجليزية مدّة فصل دراسي واحد ، ثم التحقتُ بالمدرسة الإنجليزية الدولية كمدرِّسة ترجمة من الإنجليزية إلى العربية والعكس ومدرِّسة لغة عربية لغير الناطقين بها ، اعتباراً من الفصل الثاني وذلك على إثر إعلان نُشر في إحدى الصحف تطلب فيه المدرسة مدرِّساً على وجه السرعة ، ما جعلهم يتغاضون عن خبرتي المحدودة . فهمتُ أنّ المدرس الذي حللتُ محلّه ، على عجل ، ودون كبير تدقيق في مؤهلاتي ، كان قد وقع ميتاً في إحدى الحصص ، فأرادوا أن أسد مكانه إلى حين ، فأكمل من حيث توقف . مع مطلع العام الدراسي الجديد ، لم تشأ المدرسة أن تتخلّى عنّي حتى حين توافرت لديها طلبات معلمين أكثر خبرة مني ، فزادوا راتبي وضاعفوا علاوتي السنوية بعدما خففتُ من شرط التنزيل المقدس للغة العربية ، وشققتُ سبيلاً للعربية العصرية بطابع أكثر محكية ، سار فيه طلبتي بانسياب أكبر وعثرات أقل . بعد العصر ، عملتُ في معهد «الأفق» للغات ودروس التقوية ، أعطي حصص تقوية لمناهج اللغة الإنجليزية لطلبة الثانوية بمختلف المراحل في المدارس الحكومية . في البداية ، كنت أتقاضى راتباً مقطوعاً ، ثم حين بدأ الطلبة يتوافدون على حصصي اشترطتُ على إدارة المعهد أن أتقاضى نسبة خمسين في المئة عن كل طالب مسجّل لدي ، فوافقوا خصوصاً بعدما اضطروا أخيراً إلى وضع قائمة انتظار للطلبة الذين لم يعد لهم

مكان في فصولي ، واشتراط التسجيل في حصصي مبكراً لضمان الحصول على مقعد . في العطلات الصيفية ، كنت أعطي ، من خلال المعهد ذاته ، دورات في اللغة الإنجليزية لموظفي الشركات والبنوك ومؤسسات القطاع الخاص .

كان دخلي أكثر من ضعفي دخل أبي ، فساهمتُ في تغطية رسوم دراسة رانيا الجامعية ، وتكفّلتُ برسوم ونفقات التعليم الجامعي لكلّ من ريما وجمال ، ومن وقت لآخر أُرسلُ لجدتي فاطمة بعض الفلوس التي قد تحلّي عمّتي نجاح في نظر العرسان الذين لم تغرهم أساورها الذهبية التي أثقلت معصميها ، وأرسل لجدتي فاطمة أقمشة الكتان الباردة تخيط بها سراويلها ذات الجيوب السرية الكثيرة ، كما أرسل لجدتي رضيّة مع المسافرين الدوريين شامبو وبلسماً منعماً وصبغات للشعر وكريمات أجنبية معطرة لترطيب بشرة وجهها . وإذ أمسى عمّي أبو تيسير يلزم بيته أكثر مما يلزم محال الخضار ، متفششاً في زوجته وعياله ، مُسدِّداً إصبعه للوجوه المتكررة في نشرات الأخبار في التلفزيون دونما انتقائية ، خصّصتُ له ما يشبه المصروف الشهري الذي يكفلُ له الاحتفاظ بـ«كرامته» ، ويجعله يكسر سحّارة البندورة فوق رأس الزبون دون رادع كبير أو يقذفها في وجه صاحب المحل باندفاعة أكبر ، وفي الوقت نفسه يواصل «التصبيع» أمام التلفزيون كموقف سياسي معلن ، وإنْ بتشنّج أخفّ . أما روعة فتوقفت عن سرقة نعيم ، وأصبحت تشتري أصنامها بشعور أقلّ بالإثم ، لكنها بعد

طلاقي فقدت شغفها وأقلعت عن عبادتها . مالُ أبي ، عسير الجني ، ذهب لأجرة شقتنا في غيتو النقرة ، ثم شقّة الفروانية ، فلم يعُدْ بو حمد يهبّ علينا رياحاً رملية صفراء تهدّد باقتلاعنا من وطننا الراسخ ، المعلّق في الطابق الثاني من العمارة ، كما ذهب ما تبقى من ماله لطعامنا الذي زاد . . زاد كثيراً . ومع ذلك ظلت البحبوحة تجانبنا ، وظلت أقدامنا لا تستطيع أن تُمطّ كثيراً من تحت لحاف حياتنا . ومع كلّ فلس زيادة كان يدخل بيتنا وجد بانتظاره رتقاً يخيطه في قماشة وجودنا أو خازوقاً يسدّه .

طويتُ اسمي في يدي ومضيتُ إلى غرفتنا ، وطننا المستقل أنتِ وأنا ، جغرافيّتنا التي نأت بنفسها عن احتمالات الفناء ، أو هكذا ظننتُ ؛ أجمع بعض أشيائنا ، مخلّفةً أكثر أشيائنا في أماكنها ، فقد نعود إليها ذات يوم ، في أي يوم ، ذلك أنه ليس كل وطن زائلاً بالضرورة .

كان الوقت عصراً ، وكنتُ وحدي معك . أبي خرج إلى محله ، فهو وإن امتنع عن الالتحاق بوظيفته الحكومية نزولاً عند رغبة الكويتيين ، إلا أنه آثر أن يفتح محله والجلوس فيه ، ولو شكلياً ، كي لا تُنهب محتوياته ، من أجهزة كهربائية تحت التصليح . لكن محله شهد حركة غير متوقعة طيلة شهور الوجود العراقي الاحتلالي الصفة ؛ فقد جاءه الناس بأجهزتهم التي توقفت دورة الحياة والكهرباء فيها ، كما توافد عنده عراقيون يحملون راديوهات غابرة وتلفزيونات يفترض أنها باتت

في طور الانقراض كي يصلحها لهم . والحل الذي لم يطعمنا حين كان قائماً في الكويت ، صار يطعمنا ويطعم من معنا بعدما أصبح يقع في العراق ، بالمعنى الكابوسيّ . كنتُ أبحث في غرفة المعيشة عن عضاضة أسنانك عندما وقعتْ عيني على ورقة صغيرة مطوية بالقرب من رجْل طاولة التلفزيون . كانت الورقة الثانية في القرعة التي حددت من يرحل ومن يظل . فضضتُها . قرأتُ الاسم الذي عليه ألا يرحل . اعتقدتُ أنني لم أقرأ ما قرأتُ . ذهبتُ إلى غرفتي ، فتحتُ درج المكتب ، أخرجتُ ورقة القرعة الأولى التي حملت الاسم الذي قُدِّر له الرحيل . تأكدتُ أن ما قرأتُ هو ما قرأتُ . كنتِ تقفين في سريرك تبربرين لي بلطف ، تدرّين ضحكاً وريالة طازجة . انتشلتُك ، جلستُ على كنبتي العريضة وأجلستُكِ في حضني . أخذتُ رأسكِ إلى قلبي . عيني تتبّعت شقّاً حديثاً في الحائط سببه تثاؤب الطوب الحديث وتمطّي الطلاء . ظلّ الشقّ يتمدّد ، فاستشرى أعلى الحائط وأسفله ، متفرّعاً إلى يمينه فيساره ، ثمّ تصدّع الحائط ، وانشطر وطني .

على المكتب ، تجاورت ورقتا القرعة سافرتيْن . جهاد . . هو الاسم الذي استلقى مخذولاً في الورقتين .

(١٢)

غادرتُ غرفتي وإياك بحقيبتي سفر؛ حقيبة ضمّت بعض ملابسنا أنت وأنا، وأخرى أصغر فيها صورتك في أول يوم من عمرك، كياناً شيّق الحواس، محتواة في إطار وألبوم صور يؤرّخ لأيامك الملصومة بأيامي، وعضّاضة أسنانك وزجاجتا حليب ونصف دزينة علب حليب سيميلاك وأربع علب سيريلاك بالقمح والأرز وثلاث علب شاي ميلوبا، وكيس حفاضات، وأربع زجاجات ماء معدنية. على كتفي، تدلّت حقيبتي الجامعية الجلدية، بها كتاباتي القصصيّة الأولى، وملف به أوراق ووثائق وشهادات تخصني وتخص أشقائي، وبعض الفلوس لزمان قادم مجهول. لو أننا يا ملكة قلبي نستطيع أن نشيل وطننا معنا في سيارة أبي، النيسان الحمراء المستعملة، التي حملنا فيها، وحمل انشطاري معها، إلى البصرة!

في الطريق النائحة إلى العراق، بدأت الكويت تتساقط احتمالات بقائها أو عودتها من يدي، لكنني حاولتُ أن أجمع قدر ما استطعت من قصاصاتها. ذُعرتُ لأن أمكنتها ووجوهها

وزمنها الطويل بحوزتي تفشفش حبرها الطري في ماء عينيّ.
أبي لم يتحدث كثيراً طيلة الطريق، وظلت عيناه تتحاشيانني.
حملتُ الورقتين، بالـ«جهاديْن» - كخياريين أوّليْن لا ثاني لهما - معي. لم أطلعه على اسمي الآخر الذي اكتشفته.
بحسب المخطط، كان أبي سينقلنا أنتِ وأنا إلى البصرة، ومن هناك تقلني وإياك سيارة أجرة إلى فندق «ساغمان» في بغداد.
كان «ساغمان» من الفنادق القليلة التي تتقاضى أجرة الإقامة من غير العراقيين بالدينار العراقي لا بالدولار الأميركي العزيز.
أخذتُ اسم الفندق من زميل لي يعمل معي في المدرسة مديراً للمكتبة، يُفترض أنه سبقني إلى هناك وسيكون بانتظاري، فأرافقه وعائلته، كما اتفقنا، إلى الأردن.

قبل أسبوع من سفرنا، ذهبتُ إلى رانيا في شقّتها في السالمية لأودعها. حسمت رانيا، التي كانت حبلى، وزوجها علاء أمرهما. سوف يظلان في الكويت سواء أوقعت الحرب أم لم تقع. فإذا رجعت الكويت ظلا فيها، وإذا تحولت إلى عراق عاشا فيها. كانت رانيا قد توقفت عن الذهاب إلى البنك، رضوخاً لأوامر الحكومة الكويتية في المنفى، إذ لم تشأ أن تُغضب أصحاب البلاد الذين قد يعودون فينقمون عليها.
ارتجلتْ صالون شعر في بيتها، مخصصةً غرفة لذلك، وصارت تستقبل النساء المالآت من الانتظار والعرائس المؤجلات اللاتي قررن الزواج، ذلك أن الحرب المحتملة لا تفسد في دورة الحياة الطبيعية قضية، فتسرّحهن وتمكيجهن وتؤجّرهن بدلة عرسها.

أما علاء ، فبناء على أوامر من مديره الكويتي الذي التزم فيلته ، استمر يذهب إلى وظيفته في البنك ، يجمع سرّاً الأوراق والوثائق التي يطلبها منه المدير ، ويحفظها في ملفات في شقّته . فإذا رجعت الكويت ، أعطى الملفات لمديره ، وإذا ظلّت الكويت عراقاً ، أحرق الأوراق وأصبح يعمل في مصرف عراقي . اعتذرتْ رانيا لي لأنها لا تستطيع أن تعطيني فلوساً ، أدّبر بها أمور العيلة في الأردن إلى حين ألقى وظيفة . استغربتُ بيني وبين نفسي من اعتذارها ؛ ذلك أنها لم يسبق وأن عرضتْ عليّ أو على أحد فلوساً ، كما لم يحدث وأن طلبتُ منها فلساً . أدركتُ حينها أن رانيا تجني - في حالة اللاحرب - أكثر مما نعتقد أو نتخيل أنها تجني .

جمعتُ كتبي وألعابك ووضعتها في صناديق من الكرتون ، كي لا يأتي عليها غبار الهجر ، وركنتها في زاوية غرفتي ، وفردتُ فوقها مشمعاً كبيراً ، كي لا تنهشها الرطوبة . كل شيء كان جاهزاً لرحيلي ؛ تعيّن علي فقط أن أؤمن شيلا ورفيقاتها . وشيلا هي خادمة سريلانكية استعنتُ بها أول العطلة الصيفية عند سفر أمّي وأشقائي إلى الأردن ، فكانت تجالسك وترعاك في غيابي . بعد الاجتياح ، حين بات الغزو العراقي حقيقة ، وإن كانت مشوّشة ، لم أعد أذهب إلى المعهد الذي أُغلق فعلياً ، فاعتذرتُ لشيلا كوني مضطرّة لإنهاء خدماتها ، فأنا الآن بلا عمل ، وبلا فلوس قادمة .

صحوتُ مفزوعة على جرس الباب الذي تقطعت أنفاسه .

تخطت الساعة الواحدة صباحاً . كانت شيلا ، وكانت تبكي . وقفت أمامي بعيون فاغرة ، تنظر وراء كتفيها لتتأكد أن أحداً لم يخف في أثرها . كانت حافية ، بفستان ذيله غير متساوي الأطوال فوقه جاكيت خفيف . كنا قد دخلنا الأسبوع الأول من الشهر الثاني للاجتياح والانتظار . بلغتها الهجين التي هي مزيج من إنجليزية مشوّهة وعربية أكثر تشويهاً ، فهمتُ من شيلا أنها تقيم في شقة بعمارة قريبة من عمارتنا مع مجموعة من الخادمات السريلانكيات والهنديات يعملن بالساعة أو باليومية ، بعضهن كنّ هاربات أصلاً من كفلائهن الكويتيين ، فتقطعتْ بهنّ السبل عند اجتياح العراق الكويت . قبل أيام ، بدأ حارس العمارة يأتي إليهن يرغِّبهن بالفلوس حيناً ويهدّدهنّ حيناً أخرى كي يأخذهن إلى قائد وحدة عسكرية عراقية متمركزة عند أول طريق المطار . حين جاء إلى شيلا ، أعطتُه سنسالاً ذهبياً كانت قد اشترته لابنتها التي تحوِّش منذ سنوات لتزويجها ، فأعتقها الحارس بضعة أيام ، لكنه ظلّ يُشمشم وراءها بحثاً عن ذهب آخر بحوزتها . أقسمت له شيلا أنها أعطته كل ما تملك ، لكن بادمافاتي الهندية ، زميلة شيلا في الشقّة ، أخبرت الحارس أن شيلا تخبئ قرطاً ذهبياً في مكان لا يخطر في بال أحد . فأعتق الحارس بادمافاتي ، وانقض على شيلا ، فقلبها وأجلسها في وضعية أرنب مطأطئ ، وشلّحها كلسونها ، وفسخ مؤخرتها وأخرج القرط الذي أخفته بين أليتيها . لم يكتف الحارس بالقرط الذهبي ، فمؤخرة شيلا

الكاكاوية الصغيرة هيّجت ماءه ودماءه ، فعضّها . صرخت شيلا من الألم ، ثم دقّ عضوه فيها ، دقاً حامياً عنيفاً ، تفسّخ معه جسدها . بعد يوم من الحادثة ، ظلت شيلا خلاله ممددة على الفراش ، تعرق وتنزف ، خشي الحارس أن يلحق بالخادمة مكروه فطردها من الشقة ، وهدّدها في حال رجعت أن يحملها بنفسه إلى الوحدة العسكرية . رجتني شيلا كي تقيم عندي . سألتها عن جواز سفرها ، فأخرجته من عبّها وسلّمته لي ثم وقعت أرضاً . حمل أبي شيلا ووضعها في البانيو ، ثم أغلق باب الحمام علينا ، هي وأنا . شلّحتها ملابسها . سروالها كان شبه ملتصق بمؤخرتها المدماة . وضعتُ السدادة في البانيو وملأتُه حتى نصفه بالماء ، ثم سكبتُ فيه علبة ملح . تقلبت شيلا في مكانها متوجّعة ؛ فقلتُ لها إن الملح سيطّهر الجرح . حمّمتها ، ثم جففتُها وألبستُها واحدة من بيجاماتي ، ومددتُها على سرير إحدى شقيقاتي . كان أبي قد أعدّ لها شوربة الشعيرية بالدجاج ، سريعة التحضير ، فتّ فيها خبزاً . ثم أعطيتُها حبة أسبرين وكبسولة مضاد حيوي . انطلق صوت أذان الفجر ، فنامت شيلا . كان أبي يصلّي . جلستُ قبالته أنتظره يفرغ من التشهّد بالتحيات لله والصلوات والطيبات بصوت عال ، إنشادي الوقع ، كي نشرب القهوة معاً .

بعد أسبوع ، صحّتْ خلاله شيلا وربّتْ بعض اللحم فوق بنيتها العظمية ، رنّ جرس الباب بهدوء . كانت الساعة الثامنة مساء . وقفت على الباب ثلاث نساء آسيويات سألنني عن

شيلا . كن زميلاتها في الشقة المشتركة ، جميعهن سريلانكيات ، وواحدة منهن من قريتها . عرّفنني على أنفسهن : نيمالي وتشاندريكا وشانتي . قبضت كل واحدة منهن بيدها على بقجة ملابس . حين رأتهن شيلا ، فرحت . سألْتهن كيف تخلصنّ من الحارس . تبادلت النساء النظرات ، ثم تركن الكلام لتشاندريكا التي قالت إن الحارس صحا ضميره فجأة فبكى وأبكاهن ، ثم تركهن في حالهن ورحل ، بل وأعطاهن الذهب الذي أخذه منهن . فتحت تشاندريكا صرّتها وأخرجت سنسالاً وقرطاً ، تعرفت عليهما شيلا على الفور ، فعانقت تشاندريكا بحرارة . ظلت النسوة معلّقات أنظارهن على شيلا التي بانت آثار طعامنا وسِلْمنا عليها . عرضتُ عليهن أن يدخلن ليتعشيْن مع شيلا ، فخلعن صنادلهن عند الباب وتبعن رفيقتهن ، برؤوس خفيضة وظهور منحنية ، إلى غرفة شقيقاتي التي أصبحت غرفة شيلا مؤقتاً . أكلن وتكلمن . حين جاء ميعاد مغادرتهن ، تلكأن عند الباب . قالت نيمالي إن كل ما يملكنه في هذه البلاد موجود في صررهن ، وأن شقّتهن موحشة ، لا ماء فيها ولا طعام ، وأن أناساً كثيرين يطرقون عليهن الباب ليلاً فيخفن . رجتني شيلا كي تمكث رفيقاتها معنا بعض الوقت . من ورائي ، جاء صوت أبي :

ـ الأكل كتير . . خليهم!

تسلّت شيلا ورفيقاتها بتنظيف البيت ، في طقس يومي

عبثي ، حاولتُ أن أثنيهن عنه لكن دون جدوى . لقد بَدوْنَ مغتبطات ، يتكلمن طوال الوقت ، ويضحكن بدون سبب واضح ، لي أنا على الأقل . كنتُ قد سألتهن عن جوازات سفرهن ، فأكدن لي دون تردد أنهن لا يملكنها ، وأنها بحوزة كفلائهن الكويتيين الذين فررن منهم ، وأن كفلاءهن الآن فروا من الكويت . عشنَ في بيتنا كأنهن يعشنَ في بيتهن ، تجولّن فيه كما لو أنهنّ يتجولّن في بيوت بنينها في خيالهن في قراهن البعيدة ، غير المهدّدة بأن تجرفها أمطار المونسون ، يمسحن الغبار الخفيف عن الأثاث بعناية ، ويفتحن الستائر كما يغلقنها برفق ، ويلمعن الشبابيك بذمة وضمير ، ويجلين الأطباق بلطف وينزلن طناجر الألمونيوم غير المستخدمة من خزائن المطبخ ويصقلنها بإخلاص ، ويُهدهدنكِ بحنوّ كما يُهدهدنَ بناتهن اللاتي طوين صورهن في بُقجهن . وفي الأماسي ، يجلسن في غرفة شقيقاتي التي أصبحت غرفتهن ، يأكلن كثيراً ويتكلمن أكثر ، واثقات أنه حتى وإن وقعت الحرب ، فإنهنّ آمنات ، سالمات ، ببقجهن وذهبهنّ في شقّتنا ، وطنهن البديل ، شبه المستديم ، مستغرقات في حياتهنّ التي بدت حلماً جميلاً يرينه مفتّحات العيون في النهار .

التقيتُ في المصعد جارة لنا أعرفها بالشكل لا بالاسم والحياة . كانت أمي قد حرصت على ألا تقيم علاقات مع جيراننا المستجدين ، تتجاوز مفهوم «صباح الخير يا جاري ، إنتَ في حالك وأنا في حالي» ، لكن تلك الجارة ، التي تقطن

في الطابق الخامس والأخير من العمارة ، كانت تضبطني في المصعد ، فتظل تتحدث معي حتى أحطّ في الطابق الثالث ، حيث شقّتنا ، ثم تظلّ ممسكةً بباب المصعد ، كي لا يغلق ، مواصلة كلامها ، فيما أعيرها تلون وجهي وتحوّلاته ادعاء للاهتمام . بعد الاجتياح ، زادت لقاءاتنا في المصعد نزولاً أو صعوداً ، وزاد الكلام ، كلامها . حدثتني عن حكاية طبيب أمراض نسائية فلسطيني معروف قُتل بإطلاق النار عليه في مطاردة سيارات في شوارع الكويت ، على غرار مطاردات الأفلام الأجنبية ، على خلفية تورطه في علاقة مع امرأة متزوجة بأحد رجالات منظمة التحرير الفلسطينية . يُقال إن زوجها وراء العملية ، وإنه انتهز زوال الكويت ليقتصّ من الطبيب الذي اشتهر بغرامياته مع صنفين من النساء : المتزوجات والخادمات الفلبينيات . لكن في ذاك اليوم ، أنا التي استبقيتُ باب المصعد مفتوحاً ، عندما سألتني جارتني ما إذا كنتُ قد سمعتُ بمقتل حارس عمارة في حيّنا! وُجد ميتاً في غرفته وقد تلقّى عدّة طعنات نافذة في قلبه . يُقال إن القاتل سرق ما بحوزته من مصاغ . «تلاقيها تحويشة عمره . . يا حرام!» انتظرتْ أن أؤكد على كلامها ، فردّدتُ بصوت ساهٍ :

- يا حرام!

ثم قالت الجارة بشيء من الاستسلام :

- يعني إذا مات الواحد فينا في هذا الوضع راحت عليه . . لا في قانون ولا ما يحزنون!

كانت تشاندريكا تحملك وتذرع وإياك الصالون ، رأسك يرتاح على كتفها ، تغني لك بصوت حنون مخيطة نهايته بحواشٍ بلوريّة ، فيما سبحت عيناها في بحر مشاعر فيّاضة . وقفتُ على الباب أحمل أكياس خبز أتأمّلها ، حين نظرت إليّ قائلة بحبور :

- ملكة تنام على أغنياتي .

اشتريتُ لشيلا ورفيقاتها حقائب سفر صغيرة ، وضعن فيها بقجهن . فتحتُ لهن خزانتي وخزانة شقيقاتي وقلتُ لهنّ أن يأخذن ما يُردن من ملابس . أعطيتهن بعض المعلبات حشرنها في جوانب حقائبهن ، وحين عرضتُ عليهن بعض الفلوس رفضنها . عانقْنَني بامتنان وقبّلنكِ بحنان أربع أمهات مقهورات ، وانحنين على يد أبي يرمن تقبيلها لكنه سحبها ثم ودّعن البيت ، بيتهن ، وركبن معي في سيارتي المازدا ، وقدتُ بهن إلى السفارة السريلانكية ، التي كانت فتحت أبوابها لاستقبال عمالتها ، ومعظمهن خادمات ، لإخراجهن من الكويت في حافلات . إلى جواري جلست شيلا ، وفي المقعد الخلفي أخذت رفيقاتها أماكنهن . رجتني تشاندريكا كي نصحبكِ معنا في الطريق . تلك كانت رغبتكِ أيضاً ، إذ قفزتِ من ذراعي أبي إلى ذراعي تشاندريكا عندما فردتهما نحوك ، فعبطِتها ، وتكوّرتِ في حضنها في السيارة بينما ظلت تمسح شعرك الناعم بذقنها . طيلة الطريق ظلت شيلا تنشج ، ما إن وصلنا مبنى السفارة حتى كانت وجوه النسوة قد اختفت خلف دموعهن .

وقفت دموعي خلف نظاراتي الشمسية السوداء ، بينما لاحقت عيناي جغرافيا الكويت التي كانت تتلاشى . حين احتشد الدمع خلف إطار النظارات ، ثم اندفع كثورة ماحقة إلى وجنتي ، أدرتُ وجهي إلى النافذة فيما غاص أبي في صمته . توقفنا في منطقة المطلاع الحدودية للتفتيش . تمركزت هناك قوة عراقية عاين بعض أفرادها أوراقنا وأفسحوا لنا الطريق دون أن يفتشوا حقائبنا القليلة ، التي لم تحو غنائم كويتية ، كما تبدّى لهم بوضوح . في البصرة ، بحث أبي بين سائقي سيارات الأجرة المتوجّهة إلى بغداد إلى أن توسّم في سائق مسنّ الطيبة ، فنقده مائتي دينار عراقي كي يوصلني معك إلى فندق «ساغمان» في بغداد . لحظة الوداع التي لم أعمل حسابها ، أو لم أشأ ذلك ، جاءت . أخذكِ أبي بين ذراعيه وقبّل رأسكِ ووجهكِ وعنقكِ المغمور بالبودرة الثلجية ، ثم وضعك في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة . وقفتُ عند باب السيارة ، وقد جلس السائق خلف المقود وأدار المحرك استعداداً للانطلاق . خلعتُ نظاراتي ، فتقابلت عيوننا . قال بتأسٍّ :

ـ لحظة الوادع إذن!

ـ نعم . . الوداع .

أرسل عينيه اللتين تخايل فيهما شعور بالخطأ في كل النواحي إلا ناحيتي ، لكن عيوننا لم تستطع إلا أن تلتقي آخر الأمر ، فصوبتُ نحوه نظرة عتاب ، ارتجّ على أثرها جسده ، فرفع كفّيه إلى وجهه وغطّى عينيه . «لازم أعترفلك بموضوع» ، قال

والبكاء يعصر حلقه . حويتُه بين ذراعي الصغيرتين ، فانكمش أبي على صدري كثيراً ، حتى فاضت ذراعاي عنه . «عارفة شو بدك تحكي!» نظر إلي مُستطلعاً ، متحاشياً المعرفة ، أو كأنه أراد أن يسحب اعترافه قبل أن يُدلي به . فقلت :

ـ عارفة إنك خايف علي!

وطمأنته :

ـ لا تقلق! أنا رجل البيت! مش هيك؟!

في الطريق من البصرّة إلى بغداد ، ظل وجه أبي مبثوثاً على زجاج سيارة الأجرة ، وكان مثخناً بالإثم . حين توقفت السيارة أخيراً أمام فندق «ساغمان» ، تلاشى وجه أبي فتراجع تعب قلبي قليلاً ، وذوت الكويت ففرغت روحي - إلى حين - من ثقل أيامها . عند مكتب الاستقبال ، رحّبت بي شابة جميلة بعيون عسلية واسعة عرفتُ لاحقا أنها موصلية . سألتُها عن رقم غرفة نزيل في الفندق ؛ راسم عيّاد ، يفترض أنه وصل يوم أمس مع زوجته وطفلين . ثم كأن الشابة عرفتني ، فسألتني :

ـ أنت جهاد نعيم؟

شعرتُ بارتياح ، فأعطيتُها جواز سفري لتتحقق منه ، لكن الشابة لم تحتج إلى وثيقة لتتثبت من هويتي ، ففتحتْ أحد الأدراج أمامها ، وناولتني رسالة مطويةً في غلاف أبيض صغير حمل اسم الفندق وشعاره ، عليها اسمي منقوش بخط ميّزته . فضضتُ الرسالة ، وقد اغتمّ وجهي قبل أن أقرأها ، ذلك أني

قرأتُ محتواها المحتمل على وجه الشابة التي ارتسمت الخيبة عليه . «آسف» ، كتب راسم ، «لم أستطع أن أنتظرك . كان عليّ أن أرحل . . أرجو أن تتفهمي . تمنياتي لك بالتوفيق» . قالت لي الشابة إن الرجل كان مهذباً ، ثم خرجت من وراء مكتبها ، وقد استشعرت أني كنتُ على وشك التهاوي ، فأخذتْكِ من بين يدي ، وطلبت من أحد الموظفين أن يجلب لي كوب ماء ، ثم قادتني إلى صالة الاستقبال ، وأجلستني على كنبة جلدية . عرفتُ منها أن راسم وصل صباح أمس ، وأن زوجته كانت نكدة طوال الوقت ، حتى أنها لم تخجل من التعارك معه أمام النزلاء في الصالة ، مصرّة على السفر ، مهددةً بأن تأخذ الولدين وترحل وتتركه في الفندق إذا لم يغادر ، فرضخ لطلبها . سألتني الشابة ما إذا كنتُ أنوي البقاء في الفندق . كان السائق قد ساعدني في إنزال متاعي القليل ورحل . لم أعرف مكانا آخر يمكن أن أذهب إليه . سألتني كم يوماً أعتزم البقاء ، أجبتُها بعينين ضائعتين :

ـ لا أعرف .

كانت الغرفة صغيرة ومريحة . استحممْنا ، أنتِ وأنا ، وصنعنا من رغوة الصابون في البانيو تيجاناً تلألأت فوق رأسينا ، لاهيتين عما ينتظرنا غداً ، ثم حضّرتُ لك وجبة حليب أتبعتها بطبق من السيريلاك ، وسقيتك قليلاً من الماء ، من إحدى زجاجات المياه المعدنية ، التي لم أستهلك أياً منها طيلة الطريق . رشفتُ قليلاً من الماء ، وطلبتُ كوب شاي إلى

الغرفة . أخرجتُ من حقيبتي علبة جبنة بيضاء مالحة ، وكيساً به رغيف خبز حملته معي للطريق لكنّني وفرتُه ، أكلتُ ربعه مع القليل من الجبنة البيضاء ، وخبأتُ ما تبقى من جبنة وبقية رغيف الخبز في ثلاجة «الميني بار» ، التي لم أقرب محتوياتها . ثم نمنا على سرير عريض ؛ وجهك البهيّ قبالة وجهي الباهت الجائع . مددتِ ذراعك الطرية إليّ ، غرستِ أصابعكِ ، بأظافركِ الوردية ، في عنقي ، وغفوتِ . حين تكثفتْ أنفاسك على أجفاني غفوت .

في الصباح ، حيّاني شاب عند مكتب الاستقبال . كان وسيماً ونظيفاً . سألتُه عن الشابة التي كانت مكانه في الليلة الماضية . «قصدك غصون؟» فهمتُ منه أن اليوم هو عطلتها . سألني بلطف ما إذا كان يستطيع أن يخدمني بشيء فشكرتُه ، ثم أشار عليّ التوجه إلى بوفيه الإفطار ، فقلتُ له إني لستُ جائعة وبأنني أفضّل القيام بنزهة . (لاحقاً ، حين سوّيتُ حساب الفندق اكتشفتُ أن الفطور كان ضمن الإقامة وأنني كنتُ أستطيع ألا أجوع كثيراً) . تجولتُ وإياك في المربّع القريب من الفندق ، دخلتُ دكانة واشتريتُ كعكة طرية ، جلستُ على الرصيف ، أكلتُ نصف الكعكة وأطعمتُكِ النصف الآخر . بقية النهار ، أمضيناه معاً في صالة الاستقبال نراقب الوجوه المؤقتة . في الليل ، تابعنا في غرفتنا فيلماً مصرياً قديماً على التلفزيون ، حضّرتُ لك زجاجة حليب ، ثم طبق سيريلاك ، وسقيتُك بعض الماء ، ثم أكلتُ الربع الثاني من

الرغيف وبعض الجبنة البيضاء المالحة ، وطلبتُ كوب شاي شربته على مهل . . على مهل متمهّلٍ جداً . في مساء اليوم الرابع ، كانت علبة الجبنة قد فرغت ، فغمّستُ ما تبقّى من الخبز بالشاي ، ونثرتُ فوقه سكراً . طرقٌ خفيف على باب الغرفة سحبني من سهومي . وقفتُ ، فكدتُ أقع من الدوخة . حملتُ كوب الشاي والخبز وأخفيتُهما تحت السرير . كانت غصون ، وكانت تحمل في إحدى يديها طبقاً كبيراً مغطى وفي اليد الأخرى كيساً به ثلاث زجاجات مياه معدنية . قلتُ لها إني لا أريد طعاماً من الفندق ، فقالت لي إن الأكل من بيتها ، من أمها ، أما الماء فهو من الفندق ولن يلحظوا فقده! أكدتْ لي أن أمامي طريقاً طويلة ، وسوف أحتاج للماء من أجل حليبك على الأقل ، ثم فهمتُ منها أنها التقت أردنياً قدم من الكويت مع ابنه ، وأنه كان يزور معارف له يسكنون بالقرب من بيت أسرتها ، حيث شرحتْ له وضعي ، واتفقتْ معه أن يأتي إلى الفندق في الصباح ليأخذني معه إلى عمّان لقاء مئة دولار . كنت قد تركتُ خبراً لدى غصون وزملائها في مكتب الاستقبال بأني أبحث عمن يصطحبنا ، أنتِ وأنا ، إلى عمّان . كما علّقتُ ورقة بهذا الخصوص على لوحة الإعلانات ، وحاولتُ استبطان الوجوه الوافدة في صالة الاستقبال التي أمضي فيها وصلات طويلة من النهار ووصلة متقطّعة من الليل بحثاً عن مسافرين ، يرضون بي رفقة طريق . في الأثناء ، قللتُ نفقاتي ، فلم أهدر ما معي من فلوس على طعام وماء لا لزوم

لهما ، إلى أنْ عصفتْ رجفة الجوع بذراعي وساقي ، فتهدّلت وتخلخلت .

فتحتُ غطاء الطبق ، فكانت هناك هضبة من الأرز فوقها قطعتا دجاج ، وعلى طرف الطبق الكبير اتكأ طبقان صغيران ، أحدهما فيه سلطة والآخر مكعبات باذنجان مطهوة بمرق البندورة . افترستُ الأكل بجوارحي .

في الصباح ، عرّفتني غصون إلى أبو أيمن . كان رجلاً أربعينياً مربوعاً ، وكان معه ابنه عمّار ، الذي لم يتمّ عامه الثالث عشر . فهمتُ من أبو أيمن لاحقاً أنه كان يملك محلاً شعبياً لبيع الملابس في حولّي بالكويت ، وأن لديه ثلاثة أبناء إلى جانب عمار ، حيث سافر بين الكويت والأردن عبر العراق خمس مرات منذ أن وقع الاجتياح العراقي ، مصطحباً في كل مرة واحداً من أولاده ، وذلك لنقل بضاعة محلّهم إلى عمّان على دفعات . حمل أبو أيمن حقيبتي الكبيرة ووضعها مع جملة حقائب وصناديق تعربشت على سلة فوق سقف سيارته التويوتا كريسيدا ، وحزّمها بحبل متين من الليف . طلبتُ من أبو أيمن أن أحتفظ بالحقيبة الأصغر ، التي تحمل ماءك وطعامك ، معي داخل السيارة ، فوافق وتعيّن على أن أشاطر المقعد الخلفي مع رجل آخر سيرافقنا إلى عمان ، كان أبو أيمن يخاطبه بـ«أستاذ علي» وظلّ الأستاذ علي طوال الرحلة ، ينفخ ويرافس الهواء المخنوق في السيارة ، ويتبرم من حقيبتي . وحين طلبتُ من أبو أيمن مرتين أن يوقف السيارة في الطريق كي أغير

لك حفاضتك ، كان الأستاذ علي يتأفّف صراحة ، ويسمع أبو أيمن كلاماً من نوع : «مش هاد اتفاقنا يا أبو أيمن» و «لو كنتُ عارف إني راح أتورّط هالورطة ما ركبت معك يا أبو أيمن» و «من حقّي أرتاح يا أبو أيمن . . أنا راكب معك بفلوس» . عندئذ ، أعطاه أبو أيمن المئة دولار خاصته ، وعرض عليه أن يُنزل له حقائبه ويتركه وسط الطريق . فلجم الأستاذ علي لسانه في فمه ، وإن ظلت عيناه منفوختين غضباً . ثم اقترح عمار ، الذي ظلّ يلاعبك ، أن يجلس في الكرسي الخلفي إلى جوارنا ، أنتِ وأنا ، ويجلس الأستاذ علي في المقعد الأمامي وحده ؛ فراق هذا الاقتراح للأخير . أخذ عمار زجاجة حليبك مني ، وحملك بين يديه ، كأب صغير ، ثم أخذ يطعمكِ . فأسندتُ رأسي على الكرسي ونمتُ مطمئنة .

كان الزمن يشير إلى الغروب . فتحتُ عينيّ ، فوجدتُ أرتالاً من السيارات المدنية ، معظمها تحمل أرقاماً كويتية ، متوقفةً على جانبي الطريق ، محتلةً الصحراء . سألتُ أبو أيمن عن مكاننا ، فقال لي إننا بلغنا طريبيل ، على الحدود بين الأردن والعراق . كان عمّار قد نزل من السيارة ، يحملك فيما تبدين منتشية بطراوة المساء التي حطت على وجهك . ترجّل أبو أيمن من السيارة ليستفسر عن سبب توقف السيارات ، فعرف أن ثمّة قراراً من القيادة العراقية بإغلاق منفذ طريبيل الحدودي مع الأردن إلى أجل غير معروف . بعض السيارات ينتظر منذ أكثر من أسبوع . «شو قصدك أجل غير معروف؟!»

صرخ الأستاذ علي من داخل السيارة، «راح نضل طول حياتنا هون؟»، «أنا وراي أشغال»، فاقترح عليه أبو أيمن أن يأكل «خرا» ويسكت. في الليل، وجدنا خراء كثيراً وراء التلال الصغيرة التي كان لاجئو الصحراء يطوبزون خلفها ليقضوا حاجتهم في العراء، يلطشهم الهواء والتراب من كل الجهات، فكنا نمشي بينها كمن يلعب الحجلة، كي لا ندوس عليها. تجمعت السيارات عشوائياً في حلقات ودوائر ونام أصحابها فيها، وبعضهم أشعلوا ناراً وسط الحلقات غذوها بقطع خشبية وكراتين ملقاة في الصحراء، جلسوا حولها يقيسون بُعدَ أصوات الضباع والحيوانات المترصدة التي كانت تخترق فراغات الليل. لكن برد الصحراء التشريني لم يسمح لنا بالسهر خارج السيارات، فأوينا إلى سياراتنا مبكراً، ننفّس الشبابيك سنتيمتراً أو أزيدَ قليلاً، بقدر يسمح لنا بتهوية حجرات السيارات. حين اصطبحنا، قايضتُ امرأة نفد منها الماء بزجاجة مياه معدنية لقاء رغيف خبز وحبّتي بندورة وحبّتي خيار، وفليفلة خضراء، مسحتُ الخضار ببلوزتي، وشرّحتها بشبرية استعرتُها من أبو أيمن وقسّمتُ الرغيف ثلاثة أجزاء، صنعتُ ثلاث ساندويشات لي ولعمار ولأبو أيمن. تبقّى معي زجاجتا ماء، خبّأتُهما تحت مقعد السيارة. كنت أتسلل إلى السيارة، أطلبُ من عمّار أن يقف بظهره إلى النافذة فيكون بمثابة ستارة تخفيني عن الأعين، فأحضّر وجبتكِ، ثم أُطعمك سراً. حين تلمح النساء عافيتك، يسألنني عن حليبك، فأشيرُ

إلى صدري الهزيل ، ويمضين هازّات أكتفاهن غير مقتنعات .
أبو أيمن وعمّار كانا يشربان من غالوني ماء جلباهما معهما من بغداد ، أما الأستاذ علي فكان ينزل من السيارة ، حاملاً حقيبة كتفه ذات السحابات الكثيرة ، يمشي مبتعداً ، يفتح أحد السحابات ويخرج قطعة بسكويت أو شوكولاته يأكلها متوارياً عن العيون الجائعة ، ثم يفتح سحاباً آخر ، ويستلّ مطرةً صغيرة ، يختلس منها الماء بتقنين .

نهار يومنا الثاني كان أشدّ لهيباً من سابقه وليلته كانت أنشف برداً . أعطيتُ امرأة علبة سيريلاك بنكهة القمح ، فأعطتني رغيفي خبز ، أكل عمار رغيفاً كاملاً ، واقتسمتُ الثاني بيني وبين أبو أيمن . في العصر افترشنا كرتونة على الأرض ، جلسنا عليها ظهرنا للسيارة . قطع عمّار مسافة أبعد من المسافة التي قطعها في اليوم السابق ، يجمع ألواحاً وعيداناً خشبية لتكون جمراً لنار تطرّي الليل الصحراوي ، نظلّ نستدفئ بها إلى أن يفرغ وقودها ، فنركب السيارة وننام جلوساً على المقاعد المتقعِّرة . كنت أحاول أن أظل خارج السيارة أطول وقت ممكن لأمدّ ساقي المتيبستين من النوم جلوساً . نزل الأستاذ علي من السيارة ، وأقبل نحونا فعرض عليه أبو أيمن أن يجلس معنا . «أبو إيش بنادوك؟» سأله أبو أيمن عن كنيته ، فأجابه الأستاذ علي وهو يحاول أن يعانق النار ، يسحبها إليه كلّها ، بذراعيه الضخمتين :

ـ أبو ولا إشي! ما عندي أولاد .

جلجلت صرخة ، نابعة من جرح غائر ، الليل الساكن إلا من طقطقة الخشب الجاف الذي كانت النار تأكله بشراهة . تتابعت على إثرها صرخات نازفات بحدة . هرع الناس إلى الصوت . جلست امرأة على الأرض ، فاتحة ساقيها ، وبينهما استلقى طفلها ذو السبعة شهور ميتاً . «لا حول ولا قولة إلا بالله . البقاء لله» اختلطتْ الأصوات . «لا حول ولا قوة إلا بالله ، البقاء لله .» كانت المرأة قد شلحتْ إيشاربها ، وقد عفرّتْ شعرها ووجهها بالرمل ، ثم كانت تغرس أظافرها في عنقها المدمى . أحكمتُ ضمّكِ إلى صدري ، فأنّيتِ من الوجع . قبلتكِ من شعركِ ومن جبينكِ ومن وجهكِ وعنقكِ ولثمتُ كفيكِ وعددتُ أصابعهما عدة مرات ، وبكيتُ . حفر أبو أيمن وعدد من الرجال قبراً صغيراً ، اختاروا موقعه في بقعة خالية من فضلات البشر . ظلت المرأة تحمل رضيعها إلى صدرها ترفض أن تسلّمه للرجال ، الذين حاولوا أن يزينوا لها حياة الصغير كطائر في الجنة . حين لم تقتنع ، أخذوا منها الطائر عنوة . كان ملفوفاً ببطانية من الصوف الثقيل . أقبلتُ نحو المرأة ، قبلتُ رمال شعرها ، ورجوتُها أنْ تعطيني بطانية رضيعها لرضيعتي . توقفت المرأة عن البكاء ، نظرتْ إليّ ، ثم بصقتْ في وجهي .

صعد عمّار إلى سقف السيارة ، تسلّق السلة ، ثم بتوجيه من والده شقّ أحد الصناديق المحزّمة بشبرية ، وأخرج جاكيتين كُحليّيْن من نوع الجاكيتات الصوفية التي تُوزع على طلبة

المدارس ، ارتديتُ أحدهما ولففتك بالثاني كبطانية . حين لم تجد النار ما تأكله أكلت نفسها ، فركبنا السيارة ونمنا . لم يستطع عمار أن ينام جلوساً ، فوضع رأسه على حضني ورفع ساقيه على المقعد الخلفيّ . حشر أبو أيمن حقيبتي الصغيرة في الفراغ بين المقعد الخلفي والمقعد الأمامي ، فباتت كحشية ، غطّاها بقطعة قماش ، ونِمتِ عليها .

في اليوم الثالث ، لم نجد ما نأكل . ظلت معي ثلاثة أرباع زجاجة مياه معدنية ، حضّرتُ بمقدار نصف كوب شاي وجبة سيريلاك بالأرز في غطاء زجاجة حليبكِ وأعطيتُها لعمّار كي يأكلها . احتفظتُ بما تبقّى من الماء لحليبك . عرض أبو أيمن عليّ ماء من أحد الغالونين لتشطيفك . حاولتُ أن أوفر الحفاضات ، باستبقائها عليك أطول وقت ممكن ، فتسلّخ لحمك بين فخذيك . كأنكِ كبرتِ في هذه الأيام الثلاثة ، قلت لأبو أيمن . لم أعد أستطيع أن أحملك . قال لي أبو أيمن : «إنتِ تعبانة» . ظللتُ في السيارة معظم الوقت ، أقاوم قرصات الجوع والإعياء . كأن ساقيّ وذراعيّ فُكّتْ براغيها التي تثبّتها بجسدي الذاوي ، فارتختْ أطرافي على المقعد كأوراق شجر تقاوم السقوط وقد أنهكها الخريف . لم أستجب لمحاولاتكِ ملاعبتي ، وحين كانت كفاكِ النشطتان تنهالان فوق وجهي الخامل ، كنتُ أبذل جهداً عسيراً كي ألثمهما بشفاهي المشققة المرتجفة . في العصر ، افترشت صيحات عمار مساحة انتظارنا :

ـ ملكة بتمشي! ملكة بتمشي! ملكة بتمشي!

وقفتِ حذرةً ، كأنك تقيّمين شجاعتك . أمسك عمار بذراعيكِ كي تثبتي ، ثم أفلتهما . فتحتُ باب السيارة كي آتيك فلم أستطع أن أنزل ساقي . وقفتِ على بعد أمتار قليلة مني . ناديتُ عليك . خفقتِ ذراعيك في الهواء ، مددتُ ذراعي إليك ، قطعتِ الخطوة الأولى إليّ ، وسط تهليل عمار وأبو أيمن اللذين وقفا عند باب السيارة يستحثّانك . ثم قطعتِ الخطوة الثانية بثبات أكبر ، تلتها الثالثة والرابعة بسرعة ، قبل أن تتداعى ساقاك الطريّتان ، نديّتا التجربة . هرع عمار إليك . ساعدك على الوقوف ثانية . ثلاث خطوات كانت تفصل بينك وبيني . خفقتِ ذراعيك بإثارة أكبر . واصلتِ الخفق المتسارع ، وقطعتِ ما تبقى من خطوات إليّ ، شبه ماشية ، شبه راكضة ، شبه راقصة ، شبه محلّقة ، وارتميتِ في حضني .

عندما سقط الظلام ، تذكرتُ أني لم أذهب قبل الغروب وراء إحدى التلال كي أبول . اعتدنا في الليل حين نسمع محرك سيارة يدور أن نستشف أن قاطنيها ، من النساء خاصة ، يُردن أن يقضين حاجتهن . وأن رجالاتهن يؤمّنون لهن وضعية التبول الآمنة من خلال التوغل بالسيارة مسافة أبعد في الصحراء ، بعيداً عن مخيمات السيارات ، فاتحين بابي السيارة ، الأمامي والخلفي ، كستارتين تصدان الريح والرعب ، مع إبقاء عيون السيارة الأمامية مشتعلة ، كي تلتهم أي كائن مفترس قد ينساق وراء غريزته بالاقتراب . لم أكن أستطيع أن أطلب من أبو أيمن أن يرافقني آخر الليل بسيارته إلى بقعة بعيدة ، لأبول

بـأمان ، فكنتُ أحرص على تفريغ مثانتي وراء تلة رملية قبل أن يصيب الليل الصحراء وترتفع أصوات الوحشة والتربص من بعـيد . اسـتغـربتُ لأن مـثـانتـي كـانت مليئـة رغم فـراغ بطني . تداخل شخيرا أبو أيمن والأستاذ علي ، وانتظمتْ أنفاسكِ على حشـيتكِ ، فيـما تقلب عـمار في نومه . حاولتُ أن أفكّر بكل شيء إلا بأني حـشـرانة وأن مـثـانتـي على وشك أن تنفـجـر . أرغـمتُ عيني على الإغـمـاض ، فرأيتُ فيـما ترى المتيقّظة جداً الرجل الذي كـان زوجي يشـدّني من ذراعي ويجـرفني جرفاً من السرير ، ثم يجرّني على الأرض ، في الممرّ الطويل الفاصل بين غـرفـة النوم وبين الصـالون ، ويتـابع جرّي في الممـرّ الأطول بين الصـالون وباب الشـقـة ، شـقّـة الزوجـيـة ، فـيـمـا أحـاول تارّةً أن ألتصق بالأرض كي لا أتحـرّك ، وتارةً أخرى أعضّ يديه لأتحـرّر منهـما ، لكنّه يرفسني في بطني ، فتتراخى أسناني عن كـفّـيه القـابضـتين على يدي . ثم يـفـتح البـاب ويرمـيـنـي برّة ، ويغلقـه دوني . كنتُ بقـمـيص النوم ؛ حـافـيـة . عـاينتني أبواب ثلاث شقق عمياء . كان الوقت يسير نحو الفجر . نشرتُ ذراعي فوق مـسـاحـة كـتـفي وصدري العـاري ، وطويتُ سـاقي تحـتي ، فـاردةً قمـاشـة القـمـيص الشـيـفـونيـة الخـفـيـفـة على لحـمي المنكشف ، مقلصةً جسمي ليحتل أقل مساحة ممكنة ، وتكوّمتُ على عتبة الباب ، منتظرةً النهار .

إحـدى السـيـارات التي كـانت تقف خلف سـيـارة أبو أيمن انـتـفـض مـحـرّكـهـا عـدّة مـرّات ، واشـتـعلت أضـواؤها الأمـامـيـة .

هطلتْ حزمة ضوء داخل سياراتنا ، فارتسم وجهي بجلاء في المرآة الأمامية . كانت ملامحي مهترئة ، شفتاي المتشققتان ارتجفتا ، وجنتاي تخسفتا ، عيناي غاصتا في محجريهما ، جبيني نتأ ، وفكّي برز إلى الأمام . كان وجهي وجهاً لرأس بدأ يقشُر لحمه . سحبت السيارة أضواءها وسارت مبتعدة ، يبحث قاطنوها عن بقعة في الصحراء الفاضحة تمنحهم الخصوصية لقضاء حاجتهم . انقطع انهمار الضوء . لكنّ وجهي ظلّ ينظر إليّ في المرآة المعتمة . وجهي بكى . لقد بكى وجهي بكاء عنيفاً ، غامراً .

وحين شقشق الفجر يا ملكتي ، فنفضتْ الصحراء بعض وحشتها ، كنتُ قد «شخّيت» .

لقد «شخّيت» على حالي يا ملكة .

الباب الخامس

.. في الحبّ غير المنطقي

في الحياة الأقلّ منطقية

بلغني يا أسعد الملكات ، ذات التصورات المستحكمات العنيدات ، والقلب الراعش بفراشات حائرات . .

(١٣)

. . . أنّ الأردن أرضٌ ناشفة ، ومدى جغرافيٌّ تخفّف كثيراً من تنويعات السلاسة والانسياب . ماؤها بعيد - حتى عن أهلها الأصليين - وهواؤها مكبوت ، وبؤسها مرسل ؛ أحزانها لا تُشفّ واشتياقاتها لا تُقطف . طرقاتها تنهب الأقدام ، وشمسها تصهر الوجوه ، وبردها يثني العظام ويقسّي الروح . فلوسها ذائبة الملامح ، وقد دعكتها أيادٍ كثيرة بأصابع متقشّفة وأظافر خشُنتْ بالجَلد حيناً وفقْد الصبّر حيناً أقل ؛ وهي بيتٌ مكشوفٌ للريح والرمل ولصوص الحيّ ، غير الخطرين وغير المحنّكين تماماً ، الذين يمتشقون أشجار الخوخ والدراق والأكدنيا من فوق سور واطئ لبيت على رأس الجبل يغري بما ليس فيه .

كان أبي قبل ثلاثة أعوام من الاجتياح العراقي للكويت ، وتحديداً عندما اشتغلتُ وبات دخلي يفوق دخله ، قد اشترى بيت جدتي رضيّة الكائن في قمة الجبل الأبيض بالزرقاء ، بما يشبه التقسيط المريح . أخذتْ جدتي رضيّة البيت من جدي عمران ، الذي كتبه باسمها في محاولة يائسة منه لاستعادتها بعد إصرارها على الطلاق منه . لكن جدتي احتفظت بالبيت

ولم تعد لجدي . حين توفي جدي عمران ، اكتشفت جدتي أنه ترك لها بيت الزوجية الذي جمعهما في وسط البلد بالزرقاء ؛ كان أكثر انشراحاً وأفضل موقعاً ، فانتقلت إليه وباعت بيت الجبل الأبيض لأبي . أجّر أبي البيت ، فغطّت قيمة الإيجار قسط السداد الشهري . ظللنا في الإجازة الصيفية ننزل ضيوفاً في بيت خالتي رحمة في جبل التاج بعمان ، محطتنا المفضلة ، أو في بيت جدتي رضيّة في وسط البلد بالزرقاء ، محطتنا الأقل تفضيلاً ، ومن حين لآخر قد نبيت أياماً محدودات موزعين بين بيت عمي أبو تيسير وبيت جدتي فاطمة في مخيم الوحدات ، محطّتي الشخصية الأقرب إلى هواي ، إذ تشرّشت أحاسيسي في صباحات زيت الزيتون مترف المذاق والزعتر فاقع الخضرة ، بسمسمه الوفير ، والزيتون المكبوس بالمرارة الكامنة فيه بلذة خفية ، والجبنة النابلسية المطرّاة المنزوعة الملوحة ، وأرغفة الخبز التي تعود بها عمتي نجاح من الفرّان ، تتنهد بعمق عبق أول الحياة .

حين سطا صدام على الكويت ، اعتقدتْ أمي أن الأمر خلاف عابر على «شوية» فلوس بين البلدين ، وليس احترابا يمكن أن يطول ، وإنْ هي إلا أيام وتُفرج . ثم إنْ هي إلا أسابيع ، طويلة ومقلقة نوعاً ما ، والغمّة قد تزول ، كما صبّرتْ نفسها التي ثقبتْها الشكوك والهواجس . لكنه مع انقضاء الأيام ، تآكلت في الأثناء الفلوس ، فلوسها هي ، وتداعت خلالها الجيوش العالمية على المنطقة مع سعي الأردنيين دون سبب إلى

تخزين الطعام وحشد شوالات الخبز المجفّف ومصالبة نوافذ بيوتهم الزجاجية بأشرطة لاصقة ، استحالت الغمّة غمامةً قاتمة ، مثقلةً بعاصفة مطرية قد تجرف في طريقها بشراً كثيرين ، زينت لهم أنفسهم الغشيمة أنهم مستقرّون في وطن لم يكن لهم ، كما قد تحمل حيوات من أمكنتها التي ألفتها وتقذفها إلى أمكنة غريبة ، مقفرة حتى من الوطن المتخيَّل . كانت أمي تقيم مع أشقائي في بيت جدتي رضيّة . أرسل إليها أبي مع أحد النازحين من الكويت تعليماته بأن تسجّل رولى وناصر وبيلا ورشا في مدارس حكومية ، خشية أن يضيع عليهم عام دراسي وهم ينتظرون عودة إلى الكويت بدت يوماً بعد آخر متعذّرة .

فتحتْ جدتي رضيّة الباب . وقفتْ أمامها امرأة ضامرة بثياب متربة ، قذرة ، وبشعر مربوط على هيئة ذيل قصير تشعث قوامه ، ووجه تقوّر خدّاه وتدبّب فكاه وبرزت أسنانه وغارت عيناه ، فيما اصطكتْ الشفتان من قشعريرة أتت على جسد ذاب تحت الثياب التي اتسعتْ عليه . التفّتْ ذراعا المرأة بوهن على طفلة في شهرها العاشر ، بوجه رغيفيّ عامر بحياة طازجة وبنية خروفية تمور بالعافية . ساقا المرأة استندتا على الباب كي لا تهويا . عاينت جدتي رضيّة المرأة صاحبة الوجه البائس الذي ارتعش فوق كيان ذاو لبس رداءً لحمياً خفيفاً . دقّقَت في المرأة التي لم تبدُ ملامحها غريبة تماماً عنها ، ثم فتحت عينيها على اكتشاف صريح مؤلم ، مسدّدة صفعة قوية إلى خدّها :

ـ مين؟! جهاد؟!

ابتسمتُ ، فتدلت أسناني ، ثم رفعتُكِ قريباً من وجهي ، بكلّ ما استبقيتُه من عزيمة الأيام السابقات ، ومسحتُ شفتيّ بخدّكِ ، الذي شعّ ندى ، وقلتُ لجدّتي دون أن يحيد بصري عنك :

ـ شفتِ أحلى من ملكة؟!

ساعتئذ – ومن هيئتي المروعة لا من هيئتكِ البهيّة – أدركت جدتي رضيّة أننا تركنا الكويت خلفنا ، في ما قد يكون إلى الأبد . . تقريباً .

لم تبدُ جدّتي رضيّة راضية حقاً بسكنانا معها حتى مع أنها قالت لنا إننا نستطيع أن نظلّ عندها إلى حين يفرجها الله علينا ؛ فجدّتي التي تستقبلنا في الإجازات بترحاب ، وتغتبط بقمصان النوم التي تجلبها لها أمي من الكويت ، والتي لا تعكس سنّها ، وعلب الكريمات المرطبة للبشرة وزجاجات العطور والشامبو وصبغات الشعر الأجنبية الصنع ولصقات نزع الزوان الأسود من أنفها وذقنها والصنادل والشباشب زاهية الألوان التي تبرز أظافرها المُعتنى بها ، تتسامح مع احتلالنا بيتها والتصاقنا بحياتها طالما أننا ضيوف مارّون . وجدّتي رضيّة تحبّ بيتها وأشياء بيتها لنفسها ؛ وأغراضها فائقة الترتيب تفرض على ضيوفها الاحتراس في سيرهم فيما بينها وحواليها ، كما أن لمعة النظافة اليومية على بلاطات الأرضيات تستلزم منا صيفاً التقافز فوقها كطيور حافية ، حتى إذا ما تدثرت

الأرضيات بالسجّاد في الشتاء ، تعيّن علينا ، كما على الضيوف ، خلع أحذيتنا مكتفين بالجوارب التي تتلصص من خزوقها أصابعنا المنكمشة من البرد . بل إن جدتي رضيّة خصصتْ غرفةً للضيوف تتألف من طقم كنب ومقاعد من الطراز الفيكتوري التقليدي من خشب غليظ ومنجدّة بقماش الجاكارد الذهبي ، لم تسمح لأحد - حتى للضيوف - بدخولها ؛ وفي مرّة اختبأ فيها بيلا في لعبة غميضة فكادت تقلع له أذنه . وعندما أخذتْ جدّتي مقلاة البيض ، التي تركناها على المجلى دون غسيل من عشاء اليوم الفائت وألقت بها من نافذة المطبخ إلى الشارع غضباً وقرفاً ، عرفتُ أن علينا أن نسرِّع في الرحيل .

على فنجان قهوة ذات منتصف ليلة ، وفي مطبخ جدتي رضيّة الذي فاح منه صابون الجلي ، جلستُ وأمي نناقش الآليات الممكنة لبقائنا . بسطتُ أمامها ما معي من فلوس ؛ تسعمائة دولار أميركي وألف دينار كويتي وحفنة دنانير عراقية . وضعتْ أمي أمامي كيساً فيه سوار ذهبيّ يتيم لها ، قطعة المصاغ الوحيدة التي ظلت بحوزتها منذ زواجها وظلت تحتفظ بها ليوم صعب . . صعب جداً ، أصعب من كلّ أيام حياتها التي فاتت . ثم بكت ، لا لأنها ستفرِّط بالسوار اليتيم أخيراً ، بل لأن اليوم الصعب . . الصعب جداً والأصعب كثيراً من كل ما عداه من أيام قد جاء . ضمّ الكيس أيضاً أقراطاً وخواتم وأساور خفيفة نزعتْها أمي من آذان شقيقاتي وأصابعهن

وأياديهن حين استطالت الأزمة . سحبتْ آخر رشفة من قهوتها ، ودفعت الفلوس والكيس نحوي ونهضت قائلة :

ـ تصرّفي!

لم تكن المشكلة في توفير بيت ، فقد وافق المستأجر على أن يترك بيتنا في الجبل الأبيض ، ووافقت جدّتي رضيّة أن نؤجل سداد أقساطه . كانت المشكلة في الحياة نفسها في البيت . استلمناه بحالة مزرية ، مستهلكاً ومبعثراً ومفروطاً ، كأن قاطنيه لم يصنعوا حياتهم أو بعضاً منها فيه . لم أحب البيت ، وحين كنت أغادره في الصباح لقطف الرزق من شاهق الطرقات والأيام ، لم أكن أستعجل حصادي ، ولم أكن أستحثّ خطوَ المساء إليه . وسيلويت وجه أمي الذي كان يستقبلني خلال شقّ الستارة المفتوحة عبر النافذة المطلّة على الشارع وهي جالسة على الصوفا ، يدها على رأسها ، كان يجعلني أبتعد كلما اقتربتُ . قُمنا بالحدّ الأدنى من التصليحات في البيت ، وطلينا جدرانه ، وعلقت أمي براويز ، غير ذات قيمة ، تستنطق بعض القيمة عنوة من حياة مفصولة عن تاريخ كان يتشكّل - خارج بيتنا - دون أن تكون لنا يد في تشكّله . كانت حرب ستقع ، وكان أبي قد آثر أن يظلّ في الكويت ، شاهداً مُغيّباً على التاريخ ؛ ذلك أن أحداً لن يسأله عن التاريخ ولن يستشهد به مرجعاً من أي نوع . لقد أدرك أبي ببساطة أن حياته ختمتْ فصلها الأخير في الكويت ، وأنه لا يستطيع أن يبدأ ثانية ، أو أن يستهل فصلاً ما بعد النهاية المزعومة في الأردن . عن

نفسي ، لم أختطّ حياة ثانية في الأردن . كلّ ما في الأمر أنّني قاربتُ الحياة التي تنزّلتْ عليّ غصباً ، دون أن أطلبها ، ومشيتُ بمحاذاة التاريخ .

تألف البيت من غرفتي نوم وغرفة معيشة وصالون . بالاتفاق مع أمي ، حوّلتُ الصالون إلى غرفة نوم ثالثة ، فخصصتُ غرفة للأولاد وأخرى للبنات والثالثة - وهي الأكبر - لي ولكِ ولأمي ننام فيها ، أنتِ وأنا ، على سرير مفرد ، فيما تنام أمي على صوفا قابلة للفرد ؛ واكتفينا بغرفة المعيشة المفتوحة على المطبخ مباشرة غرفة لكلّ الاستعمالات الحياتية . اشتريتُ بعض قطع الأثاث الضرورية من محلّ لبيع المفروشات والأجهزة الكهربائية المستعملة . سددتُ بعض الفلوس المتناثرة التي أخذتها أمي من المعارف ، وخصصتُ مبلغاً ، لا يمسّ ، لتغطية نفقات المدارس ومستلزمات جامعتي ريما وجمال ، من بينها قسطا الفصل الدراسي الثاني ، وظلّ معي مبلغ يُفترض أن يكفينا شهراً أسعى خلاله إلى إيجاد وظيفة .

ما جعل نفوري من البيت لا يبلغ مستوى الكراهية المطلقة ، حديقته العشوائية ، الهائجة ، الفائضة عن اللزوم ، التي حوطته . كان أبي يخطط ، قبل الحرب ، لتوسيع البيت من خلال قضم مساحة من حديقته ، لكن الحديقة ظلت لسنوات على حالها ، وهو ما دفعني كي أصرف النظر عن الانتحار نفسياً على عتبة المكان الذي قضم أجزاء من روحي . كنتُ أتسلّل في الفجر إلى الحديقة ، أحمل كوباً كبيراً من القهوة

السادة ودفتراً وقلماً قطعا معي الحدود، عابرَيْن للآلام، أجلس على حافة حوض النعناع، أدعك الأوراق الخضراء النعسانة، فتتثاءب وتزفر ثغورها رائحة مزركشة بالندى، ثم أدع القلم يمشي بطيئاً فوق الورق البارد، غائب الأفكار، يدفأ مع الوقت ويتأنْسن بالمثابرة، فيتدفق لسانه، بثرثرة لا معنى لها في أحيان كثيرة، وببعض البلاغة في أحايين متفرقة، وذلك مع رسمي الحكي فوق بياضه الأليف. يُخلق بشر ويفنى آخرون، بشخبطة عارمة، جارحة. تطلع أصوات وتكمّم أخرى، وعلى سهوب الخيال يتشكل الواقع، واقعي، حيِّياً في الكلمات التي تنسج سرْديَ بطيئاً ومتسارعاً، مُحتاطاً ومغامراً.

تفرغ القهوة، ولا يفرغ الحكي، ومع انثيال الصباح، تتماوج الأفكار وتصطرع مع أصوات الحيوات التي تتفتح في الشارع تدريجياً، يستهلّها بائع خبز الكعك بالسمسم، بصوته الذي يقف على أعتاب رجولة مبكرة، وإن كانت طفولته تشدّه من بلوزته إلى الخلف بقوة؛ «كعك! كعك! كعك!»، يصرخ، مفخماً الكاف دون وجه حق، شادّاً على العين إفكاً مشروعاً. أنادي عليه من خلف سور البيت، فيسبقني إلى الباب. أشتري منه خمس كعكعات أو ستّاً. بعد وقت، صرتُ أُنْدَه عليه باسمه؛ وليد. كان وليد صبياً في الحادية عشرة، في الصفّ الخامس، يذهب بعد أن يفرغ من بيع كعكعاته إلى مدرسته. ثم صار يأتيني من يوم لآخر، بعد انتهاء دوامه في المدرسة، بكتاب اللغة الإنجليزية. أشرح له معاني بعض المفردات،

وأعلّمه نطقها ، فيكرّر النطق أمامي . في البداية ، استحى دخول بيتنا ، ثم اكتفى بالجلوس على الدرجات القريبة من الباب . فيما بعد ، نزل إلى الحديقة ، فكنتُ أجلس معه على حافة أحد الأحواض ، أمسك بأصبعه وأضعه على شفتي كي يميز بين لفظتي الـ«بي» الثقيلة ونظيرتها الخفيفة باللغة الإنجليزية ، مفتوناً بهبّة الهواء الطالعة من شفتي ، لينطبع استلذاذه بالحرف على أصبعه فيما تبرق عيناه من الاندهاش . أتصفّح دفتره ذا الخطوط المرتبكة ، وأقوم بإملائه بعض الكلمات التي حفظها ، وأساعده على رسم الأحرف بقدر أقلّ من الارتباك . كنتُ أبسط يدي فوق كفه الصغيرة المضمومة على القلم ، فأزيّن له الحياة إذ تتخلّق في الحروف ، وتستسلم لي كفه ويمضي إحساسه معي طائعاً . خطوط بنية غير متسقة انتشرتْ على ظاهر كفه وذراعه ؛ سألتُه عنها فأخبرني أنها العلامات التي تخلّفها السكين الحامية عليه ، حين تلسعه بها زوجة أبيه لمعاقبته . عرفتُ أن أباه يعمل في محل لبيع اللحوم والمجمدات في السوق ، وأنه يعول أربعة أبناء من زوجته الأولى أم وليد ، التي طلقها ، وابنين من زوجته الثانية . رجاني وليد ألا أذهب إلى أبيه ؛ فآخر ما يريده الصغير إغضاب الأب . حتى أمي لم تستسغ فكرة شكوى زوجة الأب للأب ، فهذا الصنف من النساء ، كما قالت أمي ، «مجرمات» بطبيعتهن ، ولا ينفع الكلام لردعهن ، بل قد تستشرس «العايبة» - أي زوجة الأب - أكثر ، فتحيق أذىً أعظم بالصغير . تخوّف وليد من قيام والده ،

بتحريض من زوجة أبيه ، بمنعه من المجيء عندنا . تملّتْ أمي في كفّه الخجول ثم ضغطت على العلامات الداكنة بأصابعها ، وسألته وهي تنظر إليّ : «بتوجعك؟» ، أجابها وليد ، منقّلاً نظره الحائر بيني وبينها : «لأ!» فمسحت أمّي كفّه براحتها المكتنزة قائلةً : «لما تكبر ، كلّ العلامات راح تختفي ، وإيدك راح تصير حلوة ، وراح تكون كبيرة ، أكبر من إيد مرت أبوك!» انفرجت عينا وليد عن ضحكة وارفة ، ونظر إليّ كأنه يريد طمأنتي :

ـ بعْرِف!

توسطت الحديقة ثلاث دوالي عنب صنعت معرّشة عريضة ، فاستغللنا المساحة المظللة أسفلها جلسة صباحية أو عصرية لشرب الشاي ، وفي أماسي الصيف التي تسحب فيها شمس النهار سياطها غير الرحيمة من السماء وتنزوي في غرف البيت الضيقة ، فتبخّ لهيبها على الحوائط المعروقة ، تستبقينا فسحة المعرشة في حضن نسائمها الألطف ، وصيفها الأقل قسوة ، حتى ساعة متأخرة في الليل . وضعنا في الفسحة مقاعد وطرابيزات بلاستيكية رخيصة وصوفا خشبية . في بعض الليالي ، كنتُ أؤثر أن ننام ، أنتِ وأنا ، على الصوفا تحت المعرشة ، لأفيق على عين الشمس تلكز حواسي مع بسملة النهار ، فأغطّي وجهك الريان بكفي كي لا تصيبك عينها الحامية ، وأرقب - بجذل - أجفانك الطرية تقاوم تحرّش الضياء بها ، أو قد يوقظني عراك قطط الشارع عند قدميك المضمومتين إلى بطني .

على طول سور الحديقة الأماميّ من الجهة المطلة على الطريق الرئيسية ، ارتفعت شجرتا خوخ وشجرة أكدنيا باسقة ، امتدتْ أذرعها من فوق السور إلى الشارع . في جهات السور الثلاث ، توزعت أشجار ليمون وتفاح وتين وشجرة توت شعثاء وشجيرات متفرقة بلا هوية وبلا توزيع منهجي . كانت الأكدنيا رفيقتي ، تحتها أجلس وأمد ساقي إلى الأمام ، مفترشةً احتمالات الكتابة على الدفتر فوق حضني ، مرسلة نظري إلى أعلى ، أستحثّ سقوط فاكهة الأفكار على الورق ، ثم تثبين نحوي وتضربين الورق الخالي بيديك ، فتنهمر فوقه ضحكاتك الصافيات الرائقات ؛ ترفعين رأسك إلى الأعلى تفتّشين عن ثمار حقيقية لا عن أفكار وهمية . تشيرين بأصابعك الواثقة إلى تكتّل ثمار أكدنيا ، فأتسلّق الشجرة ذات الجذع المتلوّي ، وأقطف لك عنقود الأكدنيا ، أفرط حبّاته وأغسلها ، أراقبك تمضغين لحم الفاكهة الذي تسكّرتْ عصارته ، ثم تبصقين أنويتها الهائلة في كفّي . مع إشراقة فاكهة الربيع وإفصاحها عن أسرارها إلى طريق الجبل القاحلة خارج بيتنا ، تعيّن علينا أن نواجه فتية الحي بأجسادهم اليافعة اللينة المطواعة التي تعتلي السور وتحطّ فوق أكتاف الشجر كعناكب تفترش سيقانهم وأذرعهم الأغصان ، يتشهّون الثمار المتمنّعة عليهم ، فكان بيلا وناصر يكشّانهم برمي الحجارة عليهم ، وكثيراً ما أجد نفسي مضطرةً إلى التدّخل ، فأتخاطف الحجارة من أيديهما كي لا يُصاب اللصوص غير البارعين بأذى .

كانت شجرة الأكدنيا الفارعة الشاهقة تستدعي صبية الجبل أكثر من سواها لميلانها باتّجاه حافة السور، ما سهّل على لصوص الفاكهة امتشاقها. ذات مغربية، تراكضنا من البيت إلى الحديقة على صوت صرخة فزع. تدلّى صبي من شجرة الأكدنيا مقلوباً، وقد علقتْ ساقه وذراعه في متاهة أغصانها المتهشّمة، بينما تشبثتْ يده الأخرى بغصن انثنى وأوشك أن يُقصم في أية لحظة، فيما قاست عيناه المرتعبتان المسافة بين رأسه والأرض. هرعنا إليه؛ وقفنا أمي وريما ورولى وأنا تحته مباشرة ناسجات بأذرعنا شبكة تتلقفه في حال وقع. في الأثناء لمحتُ بيلا يلتقط حجراً من على الأرض، فأقسمتُ بربّ السما أن أحطّم رأسه إذا قام بما توقعتُ أن يقوم به. أحضر ناصر سلّماً اعتلاه جمال، حتى إذا بلغ الصبي العالق في هشيم الأغصان أمسك به من كتفيه وجذبه بقوة، فتداعتْ غصينات عديدة قبل أن ينقصم الغصن الذي ظلّ الصبيّ متكئاً عليه.

بشعره الأشقر النحاسيّ الجعد، وعينيه العسليتين المصفرّتين، وبشرته التي نهشتها الشمس وقحط الحياة، وملابسه التي غابت ألوانها تحت طائلة قذارة متراكمة لا يجدي معها الغسيل بمساحيق صابون رخيصة، حاكى الصغير بؤساً يليق ببؤس الأرض التي نستوطنها؛ أرض تصبح فيها شجرة أكدنيا تؤتي ثمراً قليلاً علامة فارقة. شدّ ناصر اللص الصغير من يده، فأنّ من الألم. سحبتُه إليّ وطلبتُ من الجميع أن

يتركوه . كانت الأغصان قد صنعتْ حُزوزاً مُدماة على بشرته في أنحاء متفرّقة من ساقيه وذراعيه . نفضتُ رأسه الأشقر مما علق به من سحابة متربة ، وسألته عن اسمه ، فنقّل بصره بيننا خائفاً ، قبل أن يجيب :

ـ ماهر .

ـ ابن مين؟

ـ ابن أم ماهر .

ضحكتُ . سألني جزعاً :

ـ راح تْخَبْري أمي؟

في الثامنة من العمر كان أو في التاسعة . كان يرتدي فردة حذاء رياضي ، يفترض أنه كان في المنشأ أبيض ، اهترأ من كل زاوية فيه قابلة للاهتراء ، ففقد هيئته وفقد أيضاً رباطه ، فارتخى لسانه كطيّة لا لزوم لها . سألتُه عن الفردة الثانية فأشار إلى الشجرة ، هناك . . في الأعلى . كان بيلا يستطيع الآن أن يرمي الحجر الذي ظلّ في يده مُستثاراً ، فسدّده ببراعة إلى حيث علق الحذاء وأوقعه . ثم طلبتُ من بيلا أن يقطف بضع حبات أكدنيا . مشى معي ماهر بخطوات مترددة إلى الحمام داخل البيت ، شلّحته ملابسه ووقف بسرواله في البانيو ، فرششتُ ساقيه بالماء لتلمع بشرته المسفوعة المعجونة بالتراب . غسلتُ ذراعيه ودعكتُ عنقه ووجهه ثم جففتُه . مسحتُ الخدوش الواضحة في بشرته بقطنة مغمّسة بكحول مطهّر . أغمض عينيه متوجّعاً ، قابضاً على حواسه في كلّ مرّة مرّت

فيها القطنة على خطوط الخدوش، وانتفض جسده النحيل لا إرادياً. أعطاه بيلا أربع حبّات أكدنيا، فتردّد في قبولها ناظراً إليّ كأنه يلتمس موافقتي فأومأتُ له برأسي. أخذها بسرعة ووضعها في جيبي بنطلونه. صنعتُ له ساندويشة لبنة فأكلها، ثم حللتُ له كوب عصير، عبّه مرّة واحدة.

- راح تْخَبْري أمي؟

«اتطلّع فيّ!» قلتُ له، فرفع بصره نحوي. كان يمكن جداً أن تنكسر ساقكَ أو ذراعكَ أو حتى يُفجّ رأسك.. أهذا ما تريده؟ اعتقدتُ أن هذه الكلمات ستفزعه أكثر من معرفة أمّه بما حدث.

- بس ما راحٍ تْخَبْري أمّي!

ركن أخيراً إلى أنني لن أشي به لأمّه، وركن أكثر إلى الأكدنيا في جيبيه وانطلق خارجاً.. مُسرعاً.

استعنّا بجار لنا في الحارة، مزارع، عمد إلى قصقصة الأغصان في أعالي الشجر وتقليم أظافرها القريبة من السّور، فتخفّفتْ من هيجانها وتقلّص غرورها، قبل أن يأفل موسم إثمارها سريعاً، لتتراجع غارات اللصوص غير المحنكين على بيتنا. تحت شجرة الأكدنيا واصلتُ درز كلماتي على الورق. استشعرتُ نظرات تَهمي من الأعلى على كتفي، تطوّق كلماتي. رفعتُ رأسي فلمحتُ على السور وجهاً يشبه وجهاً أعرفه، توارى قبل أن يقع في مصيدة بصري. عدتُ إلى حيث تركتُ كلماتي تنتظر، فعاد الوجه يحلق فوق رأسي، تشق

عيناه طريقهما في فراغات الأغصان . قلتُ له دون أنْ أرفع بصري إليه : «شو بدك؟ ما ضل عندنا أكدنيا .» ظل الوجه ساكتاً ، لكنه لم يتوار . فقلت له دون أن تبرح عيناي الورق : «شو رأيك تدخل بدل وقفتك عالسور طول اليوم؟» حين رأت أمي ماهر ابن أم ماهر ، كما صرنا نسميه ، نظرتْ إليّ مستفهمة : هل سنلمّ أولاد الحارة؟ كان الصغير بملابسه ذاتها ، لكن شكله لم يكن متربا . فردَ كفيه لأمي ، ثم أشار إلى ساقيه الهزيلتين اللتين كشفتْ نظافتهما رضوضاً تاريخية وجروحاً ملتئمة عكست تشاقياً يومياً ، وأضاف : «اتحمّمتْ» . نادت أمّي على رولى : «اعملي ساندويشة لماهر ابن أم ماهر!»

خلال شهرين من وصولي إلى الأردن ، تنقلتُ في العمل بين عدة مراكز تقوية متخصصة بمنهاج التوجيهي ، إلى أن استقررتُ في مركز يعرف باسم «مركز الامتياز» ، من بين الأفضل والأكثر شهرة على مستوى الطلاب في الزرقاء ، أذهب إليه خمسة أيام في الأسبوع من الخامسة حتى السابعة مساء ، بواقع حصتين لمجموعتين دراسيتين ، كلتاهما من الذكور ، بعضهم - من مخضرمي الرسوب - كانوا قريبين من عمري ، وهو ما جعل صاحب المعهد يتمسّك بي لأنه ظلّ عاجزاً عن اجتذاب طلبة من الذكور يوازون الأعداد الهائلة من الطالبات اللاتي كان مجيئهن إلى المركز فرصة لهن كي يبنّ على حقيقتهن الجمالية خارج لباس المدرسة البائس ، مُدندشات ومزوّقات رغم الحجاب الإلزامي ، بقدر يكفل لهنّ الحصول

على نظرة! كان صاحب المعهد معلم لغة إنجليزية بدوره، يعطي إلى جانب دروس التقوية الجماعية في المعهد دروساً خاصة في بيوت الطلبة الميسورين نسبياً، وكان يتقاضى الرسم الأعلى في الساعة مقارنة بمعلمي التوجيهي من أصحاب السمعة في تسعيرتهم، كما كان يعدّ ملخصات دراسية «نموذجية»، فارضاً على الطلبة شراءها. قدمتُ أوراقي إلى ديوان الخدمة المدنية، لكنني عرفتُ أن تعييني في وزارة التربية والتعليم قد لا يتحقّق قبل مطلع العام الدراسي الجديد، فعملتُ مدة فصل واحد مدرّسة لغة إنجليزية غير متفرغة في كلية أهلية تقع في أطراف الزرقاء، تمنح شهادة الدبلوم.

كانت الفلوس تنفد منّا في الأردن أسرع بما لا يُقاس من نفادها في الكويت، وكان الطعام تتخاطفه الأيدي والأفواه بتهافت أكبر على الحياة رغم شحّ العيْش. ولم تكن لدينا مخابئ سريّة تُعيننا في أوقات الحاجة الكثيرة المتلاحقة وتبزغ لنجدتنا في مواسم الطوارئ المتتابعة، ومن أسبوع لآخر، كانت تتسرب من يدي القروشُ العزيزة جداً، وذهبُ الأيام الأعزّ. طوّرنا آليّات إشباع تعتمد على كمّ الأكل لا نوعيته؛ فشكّل خبز الكعك بالسمسم القاعدة العريضة لإفطارنا اليومي، نغنيه بالزيت والزعتر. وعلى العشاء، كتوقيع شبه يومي افترشتْ مائدتنا الأرضيّة العامرة أطباق الفول والحمص والمسبحة والفلافل، يجلبها بيلا من مطعم شعبي قريب في نزلة الجبل، فتسد البطون بطوب لا يُهضم بسهولة. اختفت مشهيات المائدة

الكويتية من لحوم باردة ، من مختلف الأصناف ، وأجبان أجنبية ، واستعضنا عنها باللانشون المحلي الذي يأتي في علب أسطوانية كبيرة تكفينا أياماً ، وجبنة صفراء مطبوخة ، صناعة محلية غير فخورة ، تأتي في كرتونة غير مغرية ، كما لم يعد الزيتون اليونانيّ المفضل لديّ مطروحاً كخيار ، مكتفين بالزيتون الأخضر الذي تكبسه خالتي رحمة لنا ، وهو - الشهادة لله - شهيّ . كما استعضنا عن البيض المسلوق ، الذي لا يغني من جوع مستوطن ومتأصّل ، بالبيض المقلي ، فتفرش أمي ثلاث أو أربع بيضات في المقلاة وتحركها بطريقة تعمل على الإيحاء بوفرتها ، فتتسابق الأيدي أوّل ما تتسابق إلى طبق البيض ، تمسحه في ثوانٍ .

ومع ذلك ، لم نكن يا ملكتي ننام إلا شبعانين ، وفي أوقات قليلة جداً لكنها سعيدة جداً ، قد ينزل السحر ، ومعه بعض الترف ، على بيتنا المغلق على صبر وثبات شديدين ؛ فمع درس خصوصي غير مخطّط له أعطيه لطالبة في بيتها ، أعود إلى بيتنا بكيلوغرام من حبات الكستناء ، تشويها أمي في الفرن ، فنحوم حول الفرن ، نتنصّت إلى صوت طقطقة الحبات وتمطيها في قشرتها الخشبية ، حتى إذا استوتْ قُمتُ بتوزيعها بالتّساوي على الجميع . أو قد تعدّ أمي عشاءً باذخاً تتصدره عشر بيضات مسلوقة ، نستحقّه بعد كلّ شيء ، فنجلس على الأرض متربعين في دائرة بشرية ، بعضنا مستدفئاً ببعض ، نتخاطف أرغفة الخبز ، وننتظر شارة البدء ، وقد تتسلل يد إلى

صحن البطاطا المقلية ، فتضربها يد مراقبة حريصة على عدالة السباق فلا ينطلق قبل أن يجلس الجميع . «بسم الله» ، تقول أمّي ، «بسم الله» نردّد باللُقم تملأ أفواهنا . أُجلسكِ على ساقي المثنية ، فتستكشفين ملذاتنا بحبة بطاطا مقلية في يد تلوكينها بفضول ، وقرص فلافل في اليد الأخرى تمضغينه .

أعاينُ الوجوه المتشهيّة ، ومعها وجها وليد وماهر إذ أضحيا وأمسيا جزءاً شبه ثابت من موائدنا وزحمتنا . آخذ بيضة مسلوقة ، أرفعها في الهواء ، فترتفع العيون نحوي منتظرة ، ثم أضربها في صباح وليد وأقشرها له ، فتقرقرين ضاحكة . حينئذ ، تمتد إليّ صباحات بيلا ورشا وماهر وصباحك الأجمل . . صباحات نقية ، يانعة ، بلا خطوط ، بلا تغضنات ، وبلا جراح فوقها .

(١٤)

أما وقد تحتّم علينا العيْش ، فعِشنا .

أوينا إلى حياتنا في الأردن ، بقدر ما سمحتْ النهارات لقاماتنا بالانتصاب ، وبقدر ما سمحتْ الليالي لأرجلنا أن تمتدّ تحت بطانيّات الشتاء ولُحُف الصيف ، فلا تتكشّف . . كثيراً .

عام زحف على وجودنا الذي حفرناه في بلاد لم تطلبنا ، وقعت خلاله الحرب الأميركية القاصمة ، فتحرّرت الكويت - كما افتُرض - دون أن تتهشّم نوافذ الأردنيين التي ظلت لشهور ، قبل الحرب وبعدها ، محصّنة بالأشرطة اللاصقة ضمن توجّه احترازيّ استعباطيّ استمرائيّ شعبويّ شبه شامل . في الأثناء ، تعلّمنا أن نتحرّر من حياتنا الماضية في الكويت ، كما تحرّرنا من أي مستقبل ممكن لنا فيها . ومع الوقت استأصلنا المكان وأهله من ذاكرتنا ؛ في عملية جراحيّة بدت ضرورية كي نتكيّف مع عيْشنا المستجدّ ، وهي عملية - للعجب - لم تكن عسيرة تماماً ، ولم تكن أيضاً مؤلمة كما قد يُتوقع ، ربما لأن المكان وأهله ظلا هامشييْن ، فاهييْن ، فيهما كثيرٌ انفكاك وافتكاك في ماضينا الغيتوي .

أبي ظلّ في الكويت، ظاناً - لغيّه المستفحل - أن الكويت بعد التحرير سوف تتّسع لنا، أو قد تتّسع له على الأقل. لكنه أُقيل من وظيفته في وزارة الصحة تحت ذريعة إعادة هيكلة قطاع الحكومة، والتخلص - دون إعلان صريح - من الجنسيات التي تواطأت أنظمتها، قصيرة النظر ضمن مفهوم المصالح، مع الاحتلال العراقي «الغاشم»، فاسودّت وجوه هذه الأنظمة واسودّت معها حياة مواطنيها، على اعتبار أن المواطن يؤخذ بجريرة نظامه بطبيعة الحال. شريك أبي في محلّ تصليح الأدوات الكهربائية صفّى حياته في الكويت، لم يملك أبي ثمن شراء حصته، فباع الشريك كما أبي حصتيهما لكفيلهما الكويتي بفراطة الفلوس. ترك أبي شقّتنا الكبيرة في الفروانية التي لم نلحق أن نزرع فيها شتلات كافية من تاريخنا، وانتقل إلى شقة صغيرة، وباع معظم عفشنا ومعه كراتين كتبي «على البيعة». ثم بمساعدة ابن جيران لنا في عمارتنا القديمة في غيتو النقرة، التقاه صدفة في الجمعية التعاونية، اشتغل أبي في وكالة لبيع السيارات الأميركية يديرها عمّ الفتى، وهو فلسطيني يحمل جنسية كندية. صار يرسل لنا بعض المال كلّما تسنّى له، وهو ما أسهم في رتْق أيامنا، منكمشةً أرجلنا لم تزل تحت البطانيات واللحف، علماً بأن البطانيات واللحف زادت وتراصّت مع الأيام، والأرجل بكل الأحجام والألوان والأعمار والتشطيبات وآثار الجروح والحروق على لحمها الشقيّ تكاثرت: ففي مغربية باردة، يجلس وليد إلى جواري على

طراحة ثقيلة قبالة صوبا الكاز، يحلّ واجباته بينما أحضّر دروس اليوم التالي أو أصحح أوراق امتحان، ثم يتخمّر جسده الضامر من النعاس، فتنطفئ عيناه ويسقط رأسه على ذراعي، فأمدّده على الطراحة وأفرد فوق كيانه الملموم بجانبي بطانية ثقيلة. وفي ليالي صيفيات، قد يندسّ ماهر في السرير إلى جوار بيلا، دون أن تنتفض كرامته - غير المتشكّلة بعد - لكل محاولات بيلا لطرده، فإذا تطورت المناوشات بينهما حدّ الاشتباك تدخلتُ للفصل بينهما، فأفرش لماهر على الأرض كي ينام، بعدما رجا أمه كي تسمح له بالمبيت عندنا دون أن تبدي أمه ممانعة ما دام لَمّه بيت آخر يقدم عشاء لأحد أفواه بيتها العريضة. في آخر الليل، يتدحرج بيلا من السرير على الفرشة بجانب ماهر، فتبسط أمي اللحاف فوقهما.

في حياتنا الجديدة، وجب علينا أن نتحرر من فكرة أن اليوم يمكن أن ينقضي سهلاً، منساباً بلا دراما، فظلت حواسنا متيقظةً دائماً للأخبار غير الطيبة والأحداث المنفلتة من عقال المنطق، أخفّها وأرأفها بنا أن يُسرق غسيلنا من فوق السطح، أغلى قطعة فيه بنطلون جينز تركي لجمال لم يلبسه سوى مرة واحدة كلّفني اثني عشر ديناراً، أو أن يفجّ ناصر رأس أحد حراميّة الأكدنيا أو الخوخ «فجاً عميقاً»، فيشكونا أهل اللص مفجوج الرأس إلى الشرطة، مدعين أن ناصر فجّ الصبي بينما كان يلعب في الشارع، وأذهب إلى مخفر الشرطة القريب معترفةً بأنني أنا التي فججتُ رأس الصبي، مكذبةً الصبي

وأمّه اللذين يقسمان أن ناصر هو الفاعل . ويعرف الضابط أني كاذبة لكنه يحبّ أن يصدقني . كنتُ أحاجج بلغة منقّحة ، مطعّمة بلهجة مدنيّة محسّنة مغايرة للّهجة الصخرية لسكان الجبل ، مستعينةً ببديهيات قانونية من نوع «أحقيّة الدفاع عن النفس وعن الممتلكات من أيّ اعتداء» ، وسط تلمّس أم الصبي مفجوج الرأس طريقها في دهليز لغتي . وحين بدأتْ كفّة دفاعي ترجح ، أقنع الضابط أم الصبي مفجوج الرأس بأن تعتذر لي وإلا قد يضطر إلى حبس ابنها ، لكنّني تنازلتُ عن حقّي بالاعتذار بعدما انتزعتُ من الفتى وأمّه تعهداً بعدم التعرض لنا . لم أغادر مركز الشرطة إلا بعدما أعطاني الضابط درساً نافعاً في الاعتداء المتستّر بغطاء الدفاع عن النفس .

في خضم الأخذ والرد بيني وبين الضابط ، دخل شرطي يجرجر شابين دلّت هيئتاهما على أنهما طالبان في الثانوية ؛ تخثّرت الدماء في أنف أحدهما بينما حوطت هالة ليلكية عين الثاني . كانا يتعاركان عند موقف سيرفيس الجبل ، كما شرح الشرطي للضابط . تفرّس الضابط فيهما ثم سألهما : «مين فيكم ضرب التاني؟» فأشار كل واحد منهما إلى الثاني ، فطلب الضابط من الشرطي أن يقتادهما معاً إلى الحجز ، بعد أن تركا حقيبتيهما في المكتب . فتح الضابط إحدى الحقيبتين ، واستلّ دفتراً ، تصفحه بازدراء ، قائلاً : «كالعادة . . مشكلجي وحمار!» ثم انتزع ورقة بيضاء من الدفتر ، بسطها أمامي ، ورسم عليها بالقلم خطاً عرضياً فهمتُ من شرحه أن

الخطّ يمثل سور بيتنا . ثبّت فوق السور رسماً مشوّهاً لإنسان فهمتُ أنه الحرامي المزعوم أو اللص . طلب مني الضابط أن أعطيه أذني جيداً ، فأعرته حواسي من باب الفضول على الأقل ، حيث بيّن لي وهو يصنع في الورقة خطوطاً هندسية ومنحنيات في الأعلى وفي الأسفل أنه إذا فججتُ رأس المعتدي بينما كان جسده مدلّى على السور من جهتنا ، ليسقط بالتالي في أرضنا ، فنحن براء إذن من دمه ، أما إذا كان جسد اللص مُدلى في الجهة الأخرى من السور بحيث قد يقع في الشارع ، خارج حدود أرضنا ، فنحن إذن المعتدون فعلياً . وبالتالي عليّ أن أستنّى في المرة المقبلة ، فأراقب وأترصد ، إلى أن يصبح اللص معلقاً في جهتنا ، ضمن حدودنا ، (وإذا أحببتُ أستطيع أن أستدرجه) ثم أفجّه . نظرتُ إلى الضابط متشككة ، فجعّد ورقة الشرح المستفيض ورماها في سلة القمامة ، وهزّ رأسه مؤكداً : «نعم . . ممكن حتى تقتليه طالما أنه في أرضك» .

لم تتصاعد الأمور إلى درجة القتل ، وظللتُ أنتشل الصبية الذين يقعون علينا من الشجر ، أعطيهم بعض الفاكهة التي سقطتْ معهم وأقودهم إلى الباب الخارجي ليهربوا سريعاً قبل أن يضبطهم بيلا أو ناصر . لكنني استُدعيتُ إلى مخفر الشرطة عدّة مرات ، معظمها لها علاقة ببيلا ؛ وكنت أنسب التهمة إلى نفسي كي لا يكون له ، أو لأيّ من أشقائي ، ملف جنائي أو أمني يعيق طريق.دراستهم ، وربما عملهم مستقبلاً . وفي كل

جنحة ، وبمساعدة الضابط أبو فيصل - الذي ارتفعتْ الكلفة بيني وبينه - كنتُ أتوصّل إلى تسوية مع الشاكي . كان بيلا خليطاً حراً من نَمْرَدة وشقاوة وبعض دمار ، مندفعاً إلى استكشاف ما لا يفكر أحد في استكشافه ، فكان كشّيش حمام بنفَس لصوصي يغوي حمامات «الكشيشة» أمثاله من على أسطح الجيران ، منادياً عليها بـ«تعن . . تعن . . تعن . . تعن . . تعن» ، أو قد يطلق ذكوره من عقالها كي تهدّي على الحمامات المتأنّفات في الأسطح البعيدة . وفي مرّة ، حردتْ حمامة نمساوية قريبة إلى قلبه ، فنطّت على سطح جيراننا شبه اللصيقين بنا ، الذين طالما تبرموا من طقوس بيلا في الكشّ . ظلّ بيلا يستجديها : «تعن . . تعن . . تعن» ، لكنها تنكّرت لغريزتها . بكى بيلا إعراض حمامته عنه ، فدقّ على جيراننا كي يسمحوا له باعتلاء سطح بيتهم ليجلب حمامته بيده ، لكن الجيران رفضوا سادّين الباب في وجهه ، متمنّين أن تهجره كل حماماته .

ـ جهاد . . جهاد . . جهااااد!

أيقظني صوت اسمي مختنقاً بالبكاء . جاور الوقت ما بعد منتصف الليل بقليل . انحنى بيلا عليّ . «مش عارف أنام» ، قال لي . خلفه وقف ماهر . نهضتُ بحذر كي لا تفيقي ، وخرجتُ إلى الحديقة ، يتبعني بيلا وماهر . حملتُ السلم الخشبي العريض ، بمساعدة بيلا وماهر ، وطلعنا إلى السطح . المسافة بين جدارنا وجدار جيراننا لم تزد على متر ونصف المتر .

باستخدام السلم، الذي زاد طوله على مترين، صنعنا جسراً وصل بين الجدارين. أحكمتُ تثبيت الجسر بيدي، ثم اعتلى بيلا الجدار؛ بينما ظلت عين ماهر تراقب الأجواء تحسّباً لظهور الأعداء، جيراننا. طمست العتمة والصمت المكان، إلا من نباح بعيد. جلبتُ معي مصباحاً يدوياً صغيراً، شققتُ بواسطته ممراً ناحلاً من الضوء سهّل على بيلا استكشاف طريقه على الجسر، الذي مشى فوقه على قوائمه الأربع. كان بيلا في الثالثة عشرة، وجسمه كان رشيقاً، بلحم مرن وعظام قابلة للطي. كان الجيران قد ربطوا حمامته من رِجْلها بماسورة ماء. استيقظت روحه الذاوية إذ دنا بيلا من حمامته. حضنها بشوق، وحلّ الرباط من ساقها وقبّلها من رأسها، فارتمتْ هي عليه كأنها كانت تنتظر فارسها المخلص أو عشيقها الذي تمنّع عنها طويلاً. من ناحيتي، اعتلى ماهر الجدار وقطع نصف المسافة على الجسر الخشبي فيما أمسكتُ به من قدميه كي لا ينزلق أو يقع من فراغات السلم؛ الجسر. تناول الحمامة من بيلا، ومرّرها إليّ ومن ثم زحف راجعاً نحوي. كان بيلا في منتصف الطريق، عبر الجسر الخشبي، إلينا، حين سُمع صوت صياح وجلبة عنيفة في بيت الجيران. من نافذة إحدى الغرف، التي اشتعلت فيها الإنارة، ارتفعت الرؤوس باتجاهنا، بينما كان بيلا لا يزال معلقاً في منتصف الجسر، وانطلقت ألسن كثيرة بالسباب والوعيد. ثم فُتح باب سطح الجيران، واندفع شاب ضخم باتجاه الجدار من جهتهم، فضممتُ

الحمامة إلى صدري وصرختُ في بيلا أستحثّه : «يلاّ . . بسرعة!» فنطنط بيلا على الجسر كجدي رشيق ، وقفز إلى سطحنا ، قبل أن يتمكّن الشاب من سحب السلم بقوة ، ويرمي به من فوق مرتطماً بالأرض بعنف .

وضع أبو فيصل أربع ملاعق سكر في كاسة الشاي ، وظل يحرك السكر ، ويحركه . أسند ذقنه على يده ، ثم طلب مني أن أشرح له في هذا الصباح الرائق - كما قال متهكماً وهو يرفع كاسة الشاي في الهواء متأملاً الماء الأحمر الغائم في ضوء النهار - كيف يمكن أن أكون قد نصبتُ جسراً من بيتنا إلى بيت الجيران ، ونطيتُ على بيت الجيران ، وأخذتُ حمامة ، قد لا تكون لنا ، وبالتالي قد أكون سرقتُها فعلياً ، دون أن يعني كل ذلك اعتداء من جانبي على ممتلكات الغير؟! كنتُ قد ذهبتُ إلى مركز الشرطة في صباح اليوم التالي يرافقني بيلا الذي أكد الجيران أنه هو الذي نطّ على سطحهم ، بمساعدتي ، وانضم إلينا ماهر . كان أبو فيصل يعرف بيلا . نظر إلى ماهر ، الذي لم يكن رآه من قبل ، فسأله :

ـ مين إنت يا شاطر؟

تدارى ماهر ورائي ، مخافة أن يتعرّف عليه الشرطي كلصّ أشجار مثمرة سابق ، فأجابه متوجّساً :

ـ ماهر .

ـ ابن مين؟

فأجبنا ثلاثتنا ، ماهر وبيلا وأنا :

ـ ابن أم ماهر .

لكن بيلا لم يكن يستطيع أن يكون إلا . . بيلا . ويوم اتّصل بي أبو فيصل يطالبني بأن أرجع تيساً يُفترض أنني - أي بيلا - استأجرتُه ، دون أن أدفع الأجرة على ما يبدو ، وذلك لتعشير معزات الجبل ، أغلقتُ السماعة واندفعتُ إلى الحديقة كالمجنونة . كانت أمي قد استأذنتني كي يحتفظ بيلا بتيس أقنعها بأنه استعاره من صاحب له مؤقتاً ، يطعمه ويتسلّى به في المساحة الخلفية من الحديقة . ولّما أقبلتِ يا ملكتي على التيس بابتهاج ، فأنسْتِ له وأنس لك ، وامتطيتِه كفرس ، لم أجد ما يمنع أن نحتفظ بالحيوان البريء بعض الوقت . فرّغْتُ سُخطي في جسد بيلا الغضّ ، فخلّصه جمال وناصر وأمّي مني بصعوبة .

لكن حياتنا الجديدة ، كما حياتنا السابقة ، ظلت وفيرة إنسانياً ، وبيتنا متقشّف الملامح ، ظل يلبّي الضرورات ويحتال - بطريقته - على المحظورات كما المحذورات . وفوق هذا وذاك ، فقد ظلّ بقدرة قادر يُحبّ ويُرام . من قال إن البيوت لا تُحبّ لأسباب غير الأسباب الموجبة؟ وأيا كانت الأسباب ، فإن الناس إن لم يهبطوا علينا من الشجر ، فقد تقاطروا علينا من الباب . أم ماهر صارت تأتينا بانتظام ، تبيعنا قمصان النوم والبيجامات والشراشف والملابس الداخلية والشنكليش واللبنة وغيرها من بضاعة سوريّة رخيصة يتاجر بها زوجها ، حيث يجلبها من الرمثا . ومن وقت لآخر تجلب لنا هدية عدة أرطال ملوخية أو بندورة أو باذنجان من مزرعة قريب لهم ، فلا تخرج أم

ماهر من بيتنا إلا بعد أن تقاسم أمي خبز الفطور وقهوة الصباح . ثم فتحنا بيتنا لأم جورج ، وأم كامل وأم خضر ، ونساء كثيرات ذوات ألسن حكّاءة ، ذربة ، وبذيئة - بقدر ما تقتضيها طبيعة الحكي - وحيوات معلقة بين الاشتهاء والحرمان ، بين كسب قليل وخسارة أكثر .

جدتي رضيّة صارت تشكو الملل بعدما حزمنا فوضانا ورحلنا من عندها ، فصارت تغلق بيتها النظيف بالغ التوضيب وتزورنا ، مستوطنةً بيتنا من الصباح حتى المساء ، وقد تبيت عندنا . وفي الأثناء تمطرنا بتعليماتها من نوع : «قوموا» ، «شيلوا» ، «حطوا» ، «هاتوا» ، «تعالوا» ؛ فينفض معظم أشقائي من حولها ، ويجب عليّ كما على أمي مسايرتها . وحين تشاركنا العشاء ، تحصي الرؤوس والأيدي التي تتقاطع وتتسابق إلى الوصول إلى الأطباق ، ثم يطوف بصرها بين ماهر ووليد قبل أن يستقر عليّ معلّقة : «ناقصك هَمّ؟!» . على أنّ جدتي رضيّة لا تستطيع أن تُزعلنا كثيراً ، وتشتاق لنا «عن جدّ» ، وتأتينا محمّلة بأكياس الشيبس والشوكولاتة ، وتحرص على أن تعمل حساب ماهر ووليد وخَلْق آخرين قد يسقطون علينا من الشجر أو النوافذ كما تقول . ثم صارت تفتح برطماناتها ، مستخرجةً بعض ما فيها من كنوز ، تغدقها - بحساب - على ريما ورولى اللتين تتولّيانها بالرعاية التجميلية ، فتقوم ريما بتصفيف شعرها المصبوغ بالأحمر الخمري وتنعّمه لها بجهاز الفير ، بينما تقوم رولى بتدريم أظافرها وطلائها .

جدتي فاطمة وعمتي نجاح لم تنقطعا عنا ، فكانتا تقطعان الرحلة الطويلة من مخيم الوحدات إلينا ، محمّلتين بفطائر الزعتر البلدي والسبانخ . لم تعد عمتي نجاح تنتظر الزواج . واكتفتْ بأساور ذهبية كثيرة في يديها ، انطفأت لمعتها وتعتّق معدنها . ما إن تقف عمتي نجاح على الباب ، حتى ترتمي أنتِ عليها ، فتضمّك إلى صدرها بحنان دافق ، وتمطر وجهك بقبلاتها الرطبة ، ثم تستلّ من أحد الأكياس التي تحملها دمية ، تظل في يدها بعض الوقت وتحبّ أن تراقب وجهك يتجلل بالإثارة قبل أن ترفعي ذراعيك الصغيرتين إليها لتأخذي دميتك . كانت عمتي نجاح قد دخلت أربعيناتها ، لكنها بانت أكبر سناً بكثير ، ومع الوقت صارت تشبه جدتي فاطمة كثيراً ، وبات الناس يعتقدون أنهما شقيقتان ، وصارتا تقتتلان وتتناقران كشقيقتين عزباوتين . وكانت أمي تتدخل للفصل بينهما . كنا نحب جدتي فاطمة وعمتي نجاح ، وكنا نرجوهما أن تبيتا عندنا ، فحكاويهما التي تتناول أسرار نساء المخيم اللاتي لا نعرفهن ممتعة . لكن جدتي فاطمة لم تكن على كثير وفاق ووئام مع جدتي رضيّة ، «ضرتها» - كما نسميها - ولم تكن تتوانى عن التعليق على اهتمام جدتي رضيّة المبالغ بشكلها ، فكانت جدتي فاطمة تتلامز وتتغامز بينها وبين عمتي نجاح حين ترى ربما تسرّح شعر جدتي رضيّة ، قائلة : «الله يثبّت علينا نعمة العقل والدين!»

عمّي أبو تيسير ، وإن كانت زياراته لنا متباعدة ، لكنه كان

حريصاً على أن يأتي متطقماً ببنطلون وجاكيت لا علاقة لأحدهما بالآخر، متمنطقاً بتحليلاته للوضع السياسي العام التي يصر على أن يشاركني بها. في الغالب تكون قراءته للأحداث طريفة ومسلية، وتكون مدعومة بأوصاف ومسبات غير مشفرة تطال صانعي الأحداث. وقد تجدينني بالرغم من لا منطقيّة قراءته وإيغالها في نظرية المؤامرة أتفق مع بعضها، كما يبدي عمي أبو تيسير استهجانه لكل هؤلاء المحللين المتحاذقين، الذين يشرحون لنا الأمور بلغة صعبة ومكلكعة؛ فنحن لا نحتاج إلى عالم عبقري، كما يؤكد عمي أبو تيسير، كي يقول لنا إن الوضع «خرا». بعدما اشتغل اثنان من أبنائه، لم يعد عمي أبو تيسير يبحث عن عمل في سوق الخضرة، أو في أي مكان. الصحيح أن العمل ذاته لم يعد يبحث عنه، بل صار يتجنبه، ويتفادى شرّه؛ كما تتهكم امرأة عمي أم تيسير على زوجها. في كل مرة يسألني عن أبي متسائلاً متى سيترك تلك البلاد، ويرجع، تتنطع أم تيسير وتجيبه عني: «ليش يترك هذيك البلاد طالما بيشتغل؟ بدك يرجع يقعد في وجوههم؟!» لكن عمّي أبو تيسير لا يظهر رغبةً أو استعداداً لفهم أن زوجته تلطّش عليه. ثم يقرِّب وجهه إلي ويوشوشني: «أبوك ثَأل عني؟!» فأنهض، وأذهب إلى غرفتي، ثم أعود بفلوس مطوية أغزّها في يده دون أن ينتبه أحد، فيقول عمّي أبو تيسير مغتبطاً: «والله يا عمّي إنك أرْجَل من ألف زلمة!»

أما خالتي رحمة، فنُشرع لها أبوابنا وأعمارنا. تأتي في

الغالب أيام الجمع . ما إن تطأ عتبة بيتنا مع بناتها اللاتي يسبقنها إلى المطبخ بطنجرة المحاشي أو الكرشات الضخمة ، حتى تنحني لكِ ، تدلي فتحة قميصها ، ثم تدعوكِ إلى غزو صدرها الذي لم يفقد قوامه الناهض مع السنين : «وين البريزة يا ملكة؟!» تصفقين بيديكِ جذلى ، ثم تهجمين على الثديين الكريمين ، وتقلبين حشياتهما إلى أن تجدي بريزتكِ ؛ فيغطي ضحككِ المكان ، دون أن تعرفي ماذا تفعلين بالبريزة . تزرر خالتي رحمة فستانها بينما يتجمع حولها بيلا وماهر ووليد ، فتهشّهم بيدها ضاحكة : «انقلع من هون يا عرص إنت وياه!» لكن البهجة المفرطة التي ترشها خالتي رحمة في بيتنا لا تخفي الكدمات ، التي تكون بادية مرة في صدغها ، ومرة حول عينها ، ومرة في ذراعها . تسألها أمي إلى متى ستتحمل «الصرماية» ، وهو اللقب شبه الرسمي الذي اعتمدناه كما اعتمدته هي لزوجها منذر ، فتتدخّل جدتي رضيّة : «خليها! الله لا يردّها! قلتلها مليون مرة تشلح هالصرماية من رِجلها!» ، لكن عمتي نجاح لها رأي مختلف : «الجوز رحمة حتى ولو ما بجيب غير فحمة» ، فتعلق أمي على حكمة عمتي نجاح : «إلهي نار تولّع فيه» ، فتُثني جدتي رضيّة على دعائها المغلول : «آمين!» .

تدخلين الصالة بالبسكليت ، تسابقين الأيام نحو عامك الثاني ، تلحق بك رشا على بسكليت أكبر متخلفة بضعة أيام عن عامها الثامن ، تنهركما أمي كي تخرجا للعب في

الحديقة . شقيقاتي يتهامسن ويتضاحكن في غرفة نومهن مع بنات خالتي رحمة على أشياء بعضها عيب . «هيه يا بنات!» ، تنادي عمتي نجاح عليهن كي يقفن معها في المطبخ . تطلب أمي من ماهر أن يقطف لها بضع حبات ليمون من شجرة الليمون ، وتنبّه عليه أن ينتقي الليمونات المليئة بالعصير . يختلط صوت وليد مع صوت بيلا على السطح وهما يتبادلان مناغاة الحمام بـ«تعن . . تعن . . تعن .» ثم يُسمع صوت ارتطام حجارة ، فتصرخ أمي : «انزل من على السطح يا حيوان!» تنهض جدتي فاطمة من غفوتها على الصوفا في غرفة المعيشة ، وتسأل :

ـ الغدا جاهز؟

الفلوس العزيزة الصعبة ظلت عزيزة وصعبة جداً ، ومع ذلك لم يعدم الأمر بعض ترف مستحق ؛ ففي أواخر بعض النهارات ، أعود إلى البيت بفستان لك ، شبيه بفساتين الدمى المبهرجة ، وأساور بلاستيكية مطعّمة بخرز براق رخيص لرشا ، وشبشب يحتمل وعورة طرقات الجبل لأمي ، وبيجامات للبنات وبلوزات تحمل كتابات مرحة ينشدنها ، وأحذية رياضية للصبيان ، بمن فيهم ماهر ووليد ، بعضها تحمل علامة «نايكي» ، غير الأصلية ، تتراوح بين دينار ودينارين ، أشتريها من سوق البالة ، مع التشديد على ضرورة استدامة أعمارها في الأقدام متسارعة النمو . كما قد أشتري ثلاثة كيلوغرامات لحمة وأربع دجاجات مجمدة بنصف ثمنها الأصلي من أبو وليد ، بعدما

تعطّلتْ الثلاجة في المحل على نحو يهدد بفساد البضاعة . (ولا يستمع أبو وليد إليّ وأنا أحدثه عن التطور الكبير الذي يحققه وليد في دروس اللغة الإنجليزية ، لاعناً دين الثلاجة) ، ثم أمرّ على الصيدليّة لأشتري صبغة شعر حمراء لجدتي رضيّة وكريم للحروق أدهن به يدي وليد وذراعيه .

والحياة تصرّ أن تدقّ الباب بإلحاح . في ليلة ، تواصلتْ يد وليد على الجرس علامة المصيبة أو ما يخايلها . «بيلا وقع في الشارع!» جمال كان يبيت عند جدتي فاطمة في مخيم الوحدات ، وناصر كان يزور أحد رفاقه ، فيما كانت أمي تطلّ على جدتي رضيّة في بيتها . هرعتُ خارجاً . استلقى بيلا على جانب الشارع قبالة بيتنا ؛ يده على خاصرته ، يرفس الهواء وتراب الشارع برجليه ، ويتقلّب على بطنه وظهره في تواتر هيجاني الطابع . سألتُه ممّ يشكو ، فصرخ : «راح أموت . . راح أموت» . كان يبكي ، وقد قبض الألم عليه . بالكاد جعلتُه يقف على رجليه ، لكنه لم يستطع أن يمشي . نزلتُ على ركبتي ، وانحنيتُ ، وطلبتُ منه أن يمتطي ظهري . لفّ ذراعيه حول عنقي ، ثم أمسكتُ بساقيه وطوّقتهما حول جانبي ، واندفعتُ إلى أعلى واقفة . كان أثقل مما توقعت . احتجتُ إلى بعض الوقت كي يتكيف ظهري ، دون أن يستقيم ، مع الحمل الثقيل . كان علينا أن نقطع مسافة كيلومتر على الأقل نزولاً قبل أن نصل إلى دوار الجبل الأبيض ، حيث نقطة تجمع سيارات السيرفيس والتاكسي . قلتُ لوليد أن يذهب إلى

بيتهم ، لكنه أصرّ على مرافقتنا إلى المستشفى . تذكرتُ أنني لا أحمل نقوداً ، فطلبتُ من وليد أن يجلب حقيبة يدي من بيتنا ، فطال من إحدى جيوب بنطلونه الجينز محفظة قديمة صغيرة ، أخرج من إحدى طياتها الداخلية المنتفخة أوراقاً مالية كثيرة ، معظمها من فئات الدينار ، أعطاها لي . كانت تقارب الخمسة عشر ديناراً ، هي ثروته التي حوّشها من وراء بيع خبز الكعك بالسمسم .

مشينا ثلاثتنا في طريق منحدر مبلل بإنارة خفيفة ، تلفحنا أصوات الحياة وأهلها ، التي تقترب منا وتبعد بحسب ما نقترب منها ونبتعد . صوت بيلا شجا في أذني :

ـ جهاد! بحبّك!

ـ وأنا بحبّك . .

نظر إلي وليد قائلاً ، كأنه خاف أن يفقدني :

ـ أنا كمان بحبّك!

من تحت حِمْلي ، طمأنتُه مبتسمة :

ـ أكيد . . وأنا بحبّك .

واصلنا سيْرنا : امرأة محنيّة الظهر ، ناعسة تحمل أيّوبها ، شقيقاً وابناً وحبيباً وثقلاً ووجعاً وعُمْراً ، وصبيّ أتانا من حكاية أخرى ، التصق بنا ، فصار جزءاً من حكايتنا . . صار جزءاً من حياتنا ، ومن حبِّنا .

(١٥)

هو الحبّ يا ملكة . . هو الحبّ . اعلمي أنّ الحياة إذ تُعاش أقلّ تقهقراً ، رُغم القهْر ، فإنّما لأنّ الحبّ هو بيّنات الحياة وآياتها حتى وإنْ توعّدتْنا بعذاب أليم مستفيض ، وآلت ألا يُنال المُراد وألا يُجاب المُبتغى .

أبي شاف الحبّ ، حُبّنا ، وداناه عن بعد أكثر مما قاربه عن قرب . في آخر الليل ، يغشى رنين الهاتف السكون ، فيغمرني صوت أبي عطشاً لحياتنا البعيدة عنه . يسألني عن أيامنا التي ننقشها على جدران مزدحمة - لا تشبه جدرانه الوحيدة في الكويت - وقد بدأ طلاؤها يصفرّ ويقشر في توقيع لاستتباب وجودنا ؛ يسألني عن عباد بيتنا النائمين ، المتدافشين ، مفترشي الرغبات تحت أغطيتهم ، اللاهين عن لحمهم وشحهم ووعيهم إذ تتطوّر بمنأى عن صحوهم ؛ يسألني عن طعامنا فأطمئنه بأنه وفير ، وبأننا لا ننام إلا شبعانين وإذا ما تشهتْ رولى الفراولة أمرّر لها كمشة من الفاكهة الثمينة شبه الغائبة من الحياة العامة ، تأكلها بعيداً عن العيون الكثيرة المتطلّعة المرغمة على الزهد ؛ يسألني عن كوابيس رشا ، فيهدأ باله إذ يعرف أنها

تهـرع إليّ ، تعطيني رأسـهـا ووجـهـهـا البليلين من العـرق فأمسحهما لها ثم أطويها في فراشها ، ولا أتركها إلا حين تطفو أحلامها على الوسادة ؛ يسألني عن بيلا فيطمئن إذ أباعد بين شقاواته وبين غضب العباد منه ؛ يسألني عنك فأمطّ رقبتي إلى أعلى وأشير ، كأنّ بمقدوره أن يتخاطر مع صورتي على بعد مئات الكيلومترات من التشوّق والتمنّي ، حيث علامات أصابعك مطبوعة على لحمي تتعلقين برقبتي وصدري ، في صحوي ومنامي ، ولا تفتأ يداك وجوارحك تمسك بي منغرسة في روحي لا تريد الفكاك مني ؛ يسألني عن أطوالنا فأقيس له كم تمدّدنا في غيابه ؛ يسألني عن ضحكنا ، عن صخبنا ، عن رواحنا ومجيئنا ، ثم يسكت . . فأنتظر في فراغ صوته المشحون قبل أن يطوّقني بكاؤه ويلتفّ عليّ ، خاضّاً قلبي ، ساحباً روحي من رأسي إلى قدمي ، فأهبط على أقرب كرسي .

ـ تعال . اترك كل شي وتعال!

أقول له ، يغصّ صوتي . لكنه يجيبني بشيء من الهلع من احتمال يصعب تخيّله بالنسبة له ، وهو أنه قد لا يستطيع أن يقدّم لنا شيئاً . بعد وقت ، سوف يستسلم أبي لهذا الاحتمال بالكامل .

أبي أحبّني ، لا للكائن الذي أخذ منه لزاماً بعض جيناته وملامحه البيولوجية ، غير الفذّة وغير المميّزة ، ومشيته المنفرجة ورأسه المائل أثناء الكلام إلى أحد الجنبين دونما سبب ، وإنما أحبّني – على ما أتصوّر – للرجل فيّ ، أو الذي رآه فيّ ، وأراد

أن يكونه . بدأ يناديني بصيغة المذكّر منذ سني مراهقتي الأولى ، من باب المزاح بداية ، ثم من باب استحقاق اسمي الجهادي الصارخ ، ثم من باب لجم الأنثى التي كانت تتفتّق بخجل ، ودون تميّز ، من تحت البنطلونات الواسعة ، والقمصان الكاروهات والتيشرتات القطنيّة محايدة التصميم التي أبقتها أمي لجمال من بعدي ولناصر من بعده . «تعال يا جهاد!» ، «روح يا جهاد!» ، «وينَك يا جهاد!» و«اسمعْني منيح يا جهاد!» فكان عليّ تبعاً لصيغة المناداة الذكورية الجلفة أن آتيه بكتفي مرفوعتين إلى أعلى ، وذراعي مقوّستين ويدي في جيبي البنطلون ، الأمر الذي أسهم في تسطيح هضبة صدري المتوارية في منشئها . وحين أجلس قبالة أبي ، أُباعد ما بين ساقي وأشبك يدي وأحني ظهري ، مطوطحة رأسي كالفتيان المتخاشنين البالغين قبل أوانهم ، من متعجّلي الرجولة ومدّعيها ، والمتواطئين مع آبائهم الجادين على القيام بأمر حاسم وخطير . لم يرفض أبي الأنثى التي كنتُها بقدر ما رفض الذكر الذي كانه . ولأنه لم يستحضر رجُلاً آخر حوله يمكن أن يكونه أرادني رجُله ؛ ولعلّه أرادني أن أستكمل نواقصه الكثيرة ، وفي أثناء العمليّة نقصتُ أنا كثيراً . حين كبر جمال وناصر بما يؤهلهما لأن يكونا امتداده المنطقي أو المفترض أو حتى المزعوم ، كنتُ أنا - بلا زعم ودون تفسير منطقي تماماً - قد أصبحتُ الرجل المُمتحن .

عنّي ، فقد أحببتُ أبي لكل ما هو عليه ولكل ما أراد أن

يكونه وفشل في أن يكونه . أحببتُ الأب الضال أكثر من الأب القدوة ، الذي لم يسع إلى المثال في الأساس ، فتخبّط في ماله وحياته وحبّه . في ليالي الاحتلال العراقي للكويت كنا نجلس ، أبي وأنا ، في البلكونة أو في غرفة المعيشة ، نتحدّث في الغالب رجلاً لرجل . وما عزّز هذه الصيغة التفاعلية التحاورية بيننا أنه لم يكن هناك شخص غيري يتحدّث إليه ، وأنه اضطر إلى الارتقاء أو الهبوط - سيان - بالكلام إلى مستوى الحديث الذكوري الذي يكفل رفع الحرج ، قبل الكلفة . ولتقليص الفارق الجنسوي ، مع انتفاء الفارق الأبوي ، بيننا كان يعزم عليّ بسيجارة رغم أنني لا أدخن ، مقترحاً عليّ بأن أعفّر تعفيراً فلا أبتلع الدخان . حدثني أبي عن امرأة هام بها قبل عشر سنوات أو أقلّ . تفاجأتُ . لا لأن أبي أحبّ على أمي - فأنا لم أفترض أنه هام بأمي أصلاً - وإنما لأنه تولّع بالحبّ ؛ إذ جرت العادة أننا لا نتخيّل آباءنا يهيمون ؛ خاصة عندما يتزوجون أمهاتنا . لم يعرف اسم المرأة ولم يتحدث إليها ، ولا يفهم - بإقراره - كيف أغرم بها ، لكنه كفاه في حينه أنه حين كان يلمحها ، يثب قلبه من مكانه ، ويشعر بجسده كله يخفق . أهذا هو الحبّ؟ سألني مستفسراً مني أو من الكتب الكثيرة التي أقرأها . «أعتقد!» أجبتُه . هل يفرق كثيراً أن نعرف اسم من نحبّ وأن نسمع صوت من نحبّ وأن نتكلّم معه؟ تتالت أسئلته كأنه يشكّك في مشاعره التي مضت إلى حال سبيلها . ابتسمتُ ، فظنّ أبي أنني لا

أتعاطى بجدية مع ما قد تكون قصة حبّه الأجمل ، وربما الأوحد . فثبّتُ له يقينه حين شرحتُ له أن الأمر ممكن جداً ؛ فهذا شكل من أشكال البلاغة في الحبّ ، فالكلام في أحيان كثيرة يكون إنشاءً كئيباً ومملاً ؛ الكلام لا يدل على الحب بالضرورة .

- ثم يقولون : الحبّ من أول نظرة يا نعيم مش من أول كلمة!

بسطتُ رأيي أمامه ، فاقتنع . نوّرتْ عيناه وهو يستعيد من خلال سحابة دخان السجائر التي تلكأتْ فوق رأسيْنا حكاية حبّه . حدث الأمر ذات صباح في الطريق إلى عمله ، كان يفكر بأشياء كثيرة مزعجة ، وكان يعتقد أنه بلغ المرحلة التي يستطيع أن يقول فيها إنه يكره حياته ، دون أن يضع يده على مبعث الكُره ، حينما توقف بسيارته دون سبب معين عند تقاطع فرعي في أحد الشوارع . ثم كأن كائناً أو طيفاً ناداه . رفع بصره عبر زجاج السيارة الأمامي إلى فوق فرآها . كانت تقف في بلكونة صغيرة في الطابق الثالث من عمارة ، تحمل فنجان قهوة في يد وسيجارة في اليد الأخرى . لم يكن درابزين البلكونة عالياً ، فبان نصف جسمها العلوي ، وقدّر أنها طويلة ببعض الامتلاء المرغوب الذي كشفتْه ذراعاها العاريتان . بدت في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات . كانت بيضاء جداً ، وكان شعرها أسود جداً وطويلاً جداً ، يصل إلى منتصف ظهرها وربما أطول قليلاً . وحين تنثني بجسدها مسندة ذراعيها على

درابزين البلكونة ، يسقط شلال شعرها الأسود فوق لحم ذراعيها الحليبي ، فتصنع صورة باهرة ذات صياغة لونية غنية وإن بدتْ متقشّفة ، تكتمل ظلالها مع دخان سيجارتها . ملامح وجهها كانت شبه غائمة ، لكن عينيها الواسعتين من بعيد سحبتاه إليه ، وشفتاها اللتان عانقتا عقب السيجارة كانتا عريضتين ونافرتين ، كأنهما متشرّبتان بالماء . وقع نعيم في غرام الصورة . من وراء زجاج سيارته ، ظل يرصد المرأة ذات الشعر الأسود والبشرة التي خادع بياضها الشمس ، قلبه يحدق في وجهها وبصره يعبّ مشهديّتها ، فأُسر . حين انتهت من سيجارتها نترتْ عقبها في الهواء ، وانسحبت من البلكونة . عندها انطلق نعيم في طريقه أكثر مضيّاً . . ليس على العمل ولكن على بعض احتمالات الحياة . صار نعيم يذهب إلى عمله أبكر من المعتاد . وصار يتوقف تحت بلكونة صاحبة الذراعين البيضاوين والشعر الأسود الذي يليّل ذراعيها ، قبل أوان الليل ، بينما تبدّل حركاتها بين شرب القهوة وتدخين سيجارة ، منتقياً أفضل موقع يمكّنه الإحاطة بصورتها من وراء نافذة سيارته . ثم كأن بيضاء الثلج ، كما ناداها في سره وسريرته وسريره أحياناً ، شعرت به . فصارت تنتظره كل صباح يأتي ، يقف بسيارته تحت بلكونتها ، فتدخن ببطء وتشرب قهوتها ببطء أكبر ، وتوزع ليلها الغزير الناعم فوق ذراعيها السحابيتين ، ثم تدلي نصف جسدها من فوق درابزين البلكونة ، لتهدر شلالات شعرها في الهواء ، متغافلة عن عينيه

اللتين تخمشان إطلالتها خمشاً . وتظل عيناها تطوفان في كل الاتجاهات إلا جهته ، إلى أن تنتهي من نفَس السيجارة الأخير ، فتنتر عقبها في الهواء ثم تهبه ، استعطافاً ، تلك النظرة الموجزة كأنها تقول له : «على موعدنا بكرة» ، وتمضي داخلاً .

ـ وبعدين؟ شو صار؟

سكت نعيم بعض الوقت ، ثم أجاب : «ولا قبلين!» . ظل يلتقي بيضاء الثلج يومياً ، تشتبك أعينهما عبر زجاج سيارته في لحظة اللقاء الأخيرة ، قبل أن تنتر عقب سيجارتها في الهواء ؛ هي تلقي له نظرة من فوق وهو يلتقطها من تحت ، ثم يفترقان متفقيْن ضمنياً على اشتباك النظرات في اليوم التالي ؛ إلى أن جاء صباح لم تظهر فيه بيضاء الثلج في الموعد . انتظرها طويلاً ، حتى إنه تأخر على دوامه ، ثم انتظرها صباحاً ثانياً ، فثالثاً فعشرة صباحات تالية ولم تظهر . بعد أسبوعين ، مرّ نعيم بالقرب من عمارة بيضاء الثلج ، فوجد نوافذ الشقة في الطابق الثالث تعرّت من ستائرها . بعد شهر ، مر نعيم بالقرب من عمارتها يسبقه قلبه إلى البلكونة في الطابق الثالث ، فكانت الستائر تغطي النوافذ ، وقد وقفت امرأة أربعينية في البلكونة ، انسدل فوق رأسها وكتفيها والنصف العلوي من جسدها غطاء صلاة ، كانت تنفض قطع الملابس المغسولة في الهواء ثم تنشرها على حبال الغسيل . ستة شهور وأربعة عشر يوماً هي عمر علاقة نعيم ببيضاء الثلج . كانت أجمل أيام حياته ، كما قال . سألتُه ما إذا فكر بالبحث عنها ، أو لماذا لم يسأل حارس

العمارة، عمارتها، عن سكنها الجديد، فمعس سيجارته في الطفاية:

- خفت.

- من أمي؟

- من نفسي.

كأنه فوجئ حين سألتُه: «حبّيت أمي؟». أخذ مني السيجارة التي كانت تحترق في يدي أكثر مما احترقت بين شفتي، وسحب منها نفساً طويلاً، صاعداً بعينيه سلالم العمر مع روعة، وقال:

- أعتقد!

رمتْ أمّي سماعة التلفون، وأسرعت إلى المطبخ تشيح بدموعها عنّا. صوتها تكلبش في الدقائق الأخيرة من مكالمتها مع أبي. كان ذاك شتاءنا الثاني في الأردن من دون أبي. الشيء المريع أن حياتنا، بنقصانه منها، بدا وأنه لم ينقصها شيء جوهريّ، وخفنا - دون أن نتبادل خشيتنا جهاراً - أن نعتاد على الأمر. مع الأيام، بات أبي صوتاً بعيداً، أبعد من المسافة بين الأردن والكويت، حزيناً، كئيباً، نائحاً، يتكسّر لمجرد سماع أصواتنا وضجيج الخلائق في بيتنا. ما فهمناه من أبي أن عمله كموظف إداري محدود المهام في قسم الصيانة في وكالة بيع السيارات لم يكن مجزياً تماماً، وقد تلقى وعداً، كما يؤكد في كل مكالمة، بتحسين وضعه. «تعال!»، رجتْهُ أمي، لكنّه لم يجبها. لم يشأ أن يقول لها إنه لن يقدّم لنا شيئاً. سألتُ أمي:

ـ بتحبّي نعيم؟!

توقفتْ أمي عن فرم البقدونس على لوح التقطيع ، ونظرتْ إليّ مستهجنة :

ـ انجنّيتي؟! هاد سؤال بنسأل؟!!

مسحتْ أمّي يديها بالمريول ، ثم تداعت على طاولة المطبخ ، وأخذت تبكي . «إنتِ ما بتعْرفي أبوك» ، شقّ صوتها طريقه من وسط البكاء الوعر بصعوبة . جفّفت دموعها ، صمتت قليلاً ، ثم انطلقت من عينيها شرارة . لا تزال روعة تتذكّر تلك الأيام السحرية يوم صار نعيم يصحو سعيداً مبتهجاً بحياته على غير ما عهدته . بل صار يعدّ لها ولنفسه القهوة ، ويدندن بصوته النشاز الذي لم يعد مزعجاً تماماً ، وتُفاجأ به روعة يجلب لها قهوتها على السرير في فعل حبّ لم يكن من شيمه حتى حين دخلت بيته عروساً . لم تقلق روعة لأنه صار يقف أمام المرآة طويلاً ، وصار يصفّف شعره الخفيف ، ويشفط كرشه مضخماً صدره ، فذلك كان جزءاً من طقس الغبطة بنفسه الذي شملها وشملنا جميعاً ؛ فكان يحضر لنا معه أشياء كثيرة ، ولم يعد يتبرّم من طلباتنا ، أو ينمغص كثيراً من إنفاقنا . بل إن روعة صحت ذات صباح وفي خاطرها المانغا الهندية ، التي كانت تشمّ رائحتها مع أنها لم تكن حبلى تتوحّم ، هو الذي اعتبر الوحم بدعة . جاب نعيم محال الخضار والجمعيّات كلّها في الكويت إلى أن عثر على الفاكهة الفوّاحة في غير وقتها . «حتى شكل نعيم صار أحلى!» ، ورائحة مزيل

العرق الذي يرشه في الصباح ويظل رذاذه عالقاً في غرفة نومهما كانت تروق لها وتجعلها تستحضره في غيابه ، علّقتْ روعة التي لم تكن تعرف أن السعادة يمكن أن تخلّي المرء . استمرت تلك السعادة شهوراً ؛ لقد كانت أجمل أيام عمرها ، ولم يعد يهمّ ما كان قبلها أو ما جاء بعدها . سألتُها متى كان ذلك ، فأغمضت عينيها وعصرت ذاكرتها :

ـ قبل عشر سنوات . . أو أكثر .

لا أظنّني فهمتُ أبداً آليات الحب ، وكيف تتحول إلى آليات بقاء واستمرار في العلاقة بين الرجل والمرأة . بعد أكثر من أربع سنوات على حرب الكويت جاءتنا رانيا ، تحمل إلى جانب أولادها الذين صاروا ثلاثة حقائب كثيرة ، فعرفنا أنها حردانة . رانيا وزوجها علاء ظلا في الكويت ، حيث تركتْ عملها في البنك رسمياً بعد الحرب وافتتحت صالون تجميل ، شاركتْها فيه كويتية ولبنانية . علاء الذي لم يترك وظيفته في البنك كان بمنزلة المدير المالي للصالون . لكن علاقته بالصالون تعدت الشأن المالي ، إذ تزوج سراً زينب شريكة رانيا اللبنانية ، ليتكشّف السرّ بعد عام من زواجه حين دخلت زينب الصالون ببطن منتفخ . حلفت رانيا أن تخرب بيت علاء وأن تسافر إلى الأردن وتحرمه أولاده . بعد شهر من وجودها في الأردن ، تنام وتأكل وتتابع مسلسل كاسندرا المدبلج على التلفزيون السوري ، وتشرب دلة قهوة كاملة على جلسة واحدة ، وتدخن علبتي سجائر في اليوم في عادة تعلمتها باعترافها من شريكتها

اللبنانية ، اقترحتُ عليها أن تبحث عن عمل في بنك ، أو ربما تستطيع - إذا أحبت - أن تعمل في صالون تجميل . لم يعجبها كلامي ، واتهمتني بأنني متثاقلة من وجودها ومن صرفي عليها وعلى أولادها - وهو اتهام لم يكن في غير محله تماماً خصوصاً أن أولادها كانوا يأكلون لوحدهم علبة لانشون وزنها كيلوغرام في اليوم - فأكّدتُ لها أنها تستطيع أن تبقى عندنا العمر كله دون عمل . استمرتْ شهراً آخر تنام وتأكل وتتفرج على التلفزيون وتشرب القهوة وتدخن علبتي سجائر في اليوم . خرجتُ ذات مساء إلى الحديقة ، فرأيتها تجلس بالقرب من حوض النعناع تشرب القهوة وتدخن . ارتسم الهمّ كلمات وسطوراً على وجهها . أشفقتُ عليها ، جلستُ بجانبها ، وضعتُ يدي على كتفها ، ثم فجأة انفجرتْ في البكاء . أخذتُ رأسها إلى صدري ومسحتُ على ظهرها ، وسألتُها :

- بتحبّيه؟

كأني لطشتُها بسلك كهرباء عالي الفولتيّة ؛ إذ انتصبت واقفة ، ورمت السيجارة على الأرض ، وسحقتها تحت شبشبها ، قائلة بما يشبه الصراخ :

- انجنيتي؟! أيّ حبّ . . وأي خرا! الصالون تعبي وشقاي . . صنعته بفلوسي . . عارفة شو يعني فلوسي؟! كل شي راح يضيع . . كل شي راح يضيع!

لم أفهم تماماً ، لكن خلال أسبوع ، حزمت رانيا أغراضها الكثيرة وأولادها الذين أحبّوا الحياة الحافية معظم اليوم في

بيتنا ، وعادت إلى الكويت . لم تتطلّق من علاء ، وتكيفت مع اقتسام رجُلها مع زينب ، واضطرتا إلى التوافق بعدما افتتحت العائلة الممتدة صالوناً ثانياً ، أكبر وأحدث ، تولت رانيا الإشراف عليه تحت إدارة علاء المالية .

«حبّ؟! انجنّيتي!» لطمت أمّي حين سمعت خالتي رحمة تتكلّم عن الحبّ ، فمنذر زوجها صرماية ، أي نعم ، لكن كونه صرماية لا يعنى أن تعشق رحمة عليه . ثم إن الحبّ لا يمكن أن يصيب النساء مثلهن ، المتبتّلات بالزواج والعيال ومواسير الماء ذات السباكة التعسة ، وعشق النسوان جحيم يحرقهن ، يأتي على هشيم روحهن ، فيهلكن وتهلك معهن حياتهن . كانت خالتي رحمة ، التي تكبر أمّي بثلاثة أعوام ، على تخوم الأربعين يومئذ ، جميلة ، دائماً وأبداً ، وطويلة مع سماكة في القوام تنسجم مع طولها ، بوجهٍ دائري وعينين واسعتين ، وعنق عاجي مصبوب شبيه بأعناق الأصنام التي تحبها أمي . كنتُ في الخامسة عشرة يومها ، وكنّا نزور بيت خالتي رحمة في جبل التاج في إحدى الصيفيات حين ارتمت خالتي عند قدمي أمي تنشدها الخلاص . انهالت أمي على خالتي رحمة بصفعات عديدة رنّ لها وجهها المشدود ونزف معها أنفها . «ودخلْتيه غرفة نومك؟!» ظلتْ أمي تسأل خالتي رحمة من باب الاستنكار ، وفي كل مرة تجيبُها خالتي رحمة بـ«نعم» و«نعم» و«نعم» تصفعها أمي بغضب أشدّ . ثم وقعت المرأتان على الأرض ونشجتا مُطوّلاً . كنتُ أتجسس عليهما من شقّ

الباب ، أتخيّل خالتي رحمة تعابث رجلاً غير رجلها على السرير ، لحمها المشتاق يرزح تحت سحابة مثقلة بماء الشهوة ، لكن السحابة لا تمطر .

ثمّ بعد سنوات ، سوف ترتمي خالتي رحمة عند قدمي أمي تنشدها الرحمة بابنتها سماح . كانت سماح أصغر بناتها الأربع ، وكانت جوهرتها التي أخرجتها من دورة حياتها الشيطانية ، فضنّتْ عليها بالشقاء الذي تقاسمته مع بناتها الثلاث الأكبر ، يطرزن الشالات وأغطية الوسائد ، ويزيّن البراويز والجزادين والصواني بالتطريزات الخفيفة ويبعنها لمحال الأرتيزانات في عمّان ، كما يساعدن أمهن في تعهد الولائم تحت الطلب . خلافاً لشقيقاتها اللاتي كابدن العلم وصارعنه ، أظهرت سماح نبوغاً منذ صغرها ، فكانت خالتي رحمة تأتي لنا بدفاترها لنرى خطها الجميل ، متباهية بشهاداتها التي تقترب فيها علاماتها من الدرجة النهائية ، فقرّرتْ أن تُدخلها الجامعة حتى وإن باعت ما فوقها وما تحتها . تأخرت شقيقات سماح قبل أن يتزوجن ، حتى إذا تخطين الخامسة والعشرين دون أن يبدأن بتعمير أرض الله بالنكاح والتناسل شعرن بالهلع ، وقرضن أظافرهن ترقباً . ثم إذ دانين الثلاثين ، وقد بدأ اليأس يتجمع شحماً حول خواصرهن ، طرق أبوابهن رجال غير مأمولين ، أرامل ومتزوجون ، فاحتسبن الزواج بهم ، على عطالتهم ، جهاد نفس عظيماً . كانت سماح في السنة الثالثة في دراستها الجامعية حين أيقظها أبوها منذر ذات صباح وطلب

منها أن ترافقه في مشوار مهم، ومن ثم تستطيع أن تلحق بمحاضراتها في الجامعة. توقف منذر عند محل لبيع عصير الفواكه الطبيعي واشترى له ولسماح كأسي عصير كوكتيل، ثم حدثها عن مفاجأة سارة بانتظارها، لكن سماح لم تستطع أن تتخيل ما قد تكونه المفاجأة أو سر كرم والدها غير المسبوق حتى حين وقفت عند درج المحكمة الشرعية. بعد دقائق جاء رجل أربعيني بلحية نابتة مهملة، ووجه أكله القُبح والعرق، وملابس فحّت برائحة الاهتراء. تفحّص سماح التي رمقته بمزيج من الاستغراب والقرف من منظره، ثم ابتعد قليلاً ليحيط بمقاييسها بوضوح قبل أن يتوجه نحو أبيها قائلاً: «موافق». لم تعرف سماح كيف أفلتت من أبيها ورفيقه، أو ما إذا عادت إلى البيت وهي تجري أو تطير، لكن ما تتذكّره أنها وأمّها أقفلتا باب البيت ولم ترضخا ليدي منذر المصروعتين الذي هدّد بأن يجرّ سماح من شعرها إلى المحكمة، «وعينك تتفرّج يا رحمة!» توعّد. ثم حين لم تفتح له خالتي رحمة، صرخ عليها كي تناوله من تحت الباب عشرة دنانير وإلا قد يكسر الباب. فسارعت خالتي رحمة إلى تمرير الفلوس له ليحلّ عنهما بعض الوقت. ارتدت ملابسها بسرعة، وطلبت من سماح أن تجمع كتبها وبعض ملابسها في حقيبة، وغادرتا بيتهما في جبل التاج إلى بيتنا في الجبل الأبيض.

سعى منذر إلى تزويج سماح لأحد رفاق الشدّة، كسداد لفلوس عليه، بعدما فرّط بمعظم أجهزة البيت الكهربائية في

سداد رهاناته الخاسرة وديون قماره المتراكمة . «خلّوه يبيعني أنا» ، قالت خالتي رحمة لأمي باكية ، وحلفت أنها لن ترجع مع سماح إلى بيتهم . فتقدّم بيلا دون أن يطلب منه أحد ذلك للزواج من سماح . كان بيلا قد درس الهندسة الميكانيكية والتحق بشركة صيانة ضخمة للسيارات الكورية في عمّان . كان علينا أن نشتري سماح من أبيها ؛ فطلب فيها ثلاثة آلاف دينار عداً ونقداً خلافاً لمهرها . استدان بيلا من الشركة نصف المبلغ وأمّنتُ له النصف الثاني . يوم عقْد القران في بيت خالتي رحمة ، تأخّر منذر في الوصول إلى البيت ، وعندما جاء كان مخموراً ، وأخذ يصيح أمام الجمع بأن سماح تساوي أكثر من ثلاثة آلاف دينار وأنه لا يوافق على تزويجها . سحبتُه من كمّه إلى المطبخ ووضعتُ في يده مئة دينار ووعدته بمئة أخرى بعدما يوقّع على عقد الزواج ، فخطف الفلوس ووقّع دون تردّد . لم يكن بيلا يعرف سماح أو رآها إلا خطفاً ، حين كانت تأتي إلى بيتنا طفلة تلعب معكِ أو مع رشا . ومع ذلك ، وبطريقة غريبة تحصل أحياناً في الحياة ، فقد أحبّ بيلا سماح حبّاً عظيماً .

لكننا في اللحظة التي نعتقد فيها أن الحياة بدأت تحفر في مجراها المنطقي ، أو تعتمد مبدأ المسار السلس ضمن المقاييس الدنيا للسلاسة ، فإن الأشياء تنحرف نحو دربها الأصلي اللامنطقي ؛ فتطيح الأيام باليقين الذي اعتقدنا أنه يمكن أن يظل يقيناً . كنا قد دخلنا عامنا الثالث في الأردن ، عندما رجعتُ آخر اليوم إلى بيتنا في الجبل الأبيض ، أنفض الطباشير

من يدي ومن نفسي المتبهدلة ، لأقع على مشهد أنذر بمصاب جلل . كانت أمي تجلس على الصوفا في وضعية الندب المعلق ، عيناها اهترأتا من العياط ، وإلى جوارها جلست خالتي رحمة ، دون أن يبين على وجهها التأثر بمصيبة قدر عدم الاستيعاب . على المقعدين المتقابلين تربعت كلّ من جدتي فاطمة وعمتي نجاح ، تراقبان المشهد بحذر . «خير . . شو في؟!» سألتُ ، فتنطعتْ أمّي التي كانت تقف على التكّة الأخيرة للساعة ما قبل الانفجار :

ـ خير! باركيلْنا!

جمع صوتها ، الذي تكدّس بآثار البكاء ، ما بين السخرية المرة والغضب . لم أفهم ماذا تقصد .

ـ ستّك . . ستّك تزوّجتْ!

نظرتُ إلى جدتي فاطمة غير مصدقّة ، لكن جدتي فاطمة نترتْ يديها في الهواء كأنها تنفي عن نفسها جريمة ، وقالت :

ـ شو؟! شايفتيني هبلة؟! ولاً قالوا لك إني صابغة شعري أحمر؟!

تعوّدت جدتي رضيّة أن تنزل إلى السوق مرة في الأسبوع . ثم صارت تنزل ثلاث أو أربع مرات . تضايقتْ من أمي عندما حذّرتها أن سنواتها السبعين قد ترهقها ، مقترحة عليها أن تلزم بيتها وأن توكل جمال أو ناصر بشراء مستلزماتها من السوق . زعلت جدتي رضيّة أكثر من افتراء أمي على سنّها ، مؤكدة لها أنها «يا دوب» في الستين ، أو في الحادية والستين على الأكثر ،

وأنه تم تزييف عمرها في شهادة ميلادها ، فكبّروها خمس سنوات كي يقبل القاضي تزويجها . فقد بيت جدتي خاصيته التوضيبية المتكاملة المتناسقة ، فامتلأ بأشياء كثيرة ؛ من دلاء وأباريق بلاستيكية ، وسجادات ظلت ملفوفة ومطوية مركونة في زوايا الغرف التي يفترشها السجاد سلفاً ، وشباشب وصنادل ظلت في أكياسها دون أن تستخدمها ، وكراسي مبطخ قابلة للطي ، أسندتها وراء باب المطبخ ولم تفتحها لأن مطبخها لم يتسع لها ، وأطباق ميلامين ودزينات زبادي وكاسات شاي وفناجين قهوة ، ظلت في صناديق على طاولة المبطخ وأرضيته ، وفاكهة كثيرة تغضنت في الثلاجة ، كما امتلأ حمامها بعلب الشامبو والصابون المعطر وصبغات الشعر الحمراء التي لم تستخدمها كلها . تعرّفت جدتي رضيّة على حمّاد ، شوفير تاكسي في الثلاثينات ، يرتدي نظارة شمسية بإطار ذهبي صار يقلّها من باب بيتها ، يأخذها إلى السوق ، فتشتري بصحبته مستلزماتها التي لا تلزمها في شيء ، تمتلىء بها سيارته ، ثم يرجعها إلى بيتها ، فينزل معها ، يساعدها في حمل الأغراض ، ويرفع السجادات الثقيلة أو الكراسي المطوية على كتفه العريضة ، فتكرمه جدتي رضيّة بكأس عصير بارد . والعصير تحول إلى إفطار ، فغداء ، وأحياناً عشاء ، يتبعه شاي وقهوة ، وإذ خشيتْ جدّتي رضيّة أن تُلسِّن جاراتها اللئيمات عليها ، شرحت مخاوفها لحمّاد ، فاقترح عليها الزواج ، فتزوجتْه .

ـ تزوجتْ؟! هيك ببساطة؟

لم أفهم ، وحين فهمتُ الأمر بصعوبة ، لم أستطع أن أتخيل صورة جدتي رضيّة الحية المتحركة ، تأتينا مع حمّاد شوفير التاكسي ، تركب إلى جواره في المقعد الأمامي ، يتبدى وجهها المغتبط وعيناها شبه المرويّتين من زجاج السيارة بينما تتدلى إلى يسارها من مرآة السيارة دمية بشعر منكوش تهتز وترقص على وقع سير السيارة في الطرقات ، ويضيء التابلوه الخلفي بالأزرق والأخضر والأحمر كلما ضغط حمّاد على المكابح ، كما يلعلع من المسجلة ذات السماعات الخلفية صوت غناء فرايحي على غرار : «شكى . . حكى . . بكى ، شكى منّي وقال كلام ، فرّح أهل الملام ، وقدّم شكوتين ، قُدّام قاضي الغرام ، عارفين شكاني ليه ، علشان بَغير عليه!»

لم تدارِ عمتي نجاح حسرتها وغيظها ، قائلة بأنها ركبتْ مع كل شوفيرية الوحدات ولم يتقدم أحد لها ، فأخرستْها جدتي فاطمة ، قائلة : «انطمّي!»

أمي قاطعت جدّتي رضيّة ، وكذلك خالتي رحمة تحت ضغط من أمي . لكنني ظللتُ أزور جدّتي رضيّة كلما تسنّى لي لأتفقّد أحوالها . كانت سعيدة جداً ، جعلتْني أجلس في صالونها الذي لا يقربه البشر ، وحين كنتُ آخذكِ معي لم تعد تتضايق كالسابق حين تُنطنطين فوق الكنب بالحذاء ، أو حين تمشين بين قطع الأثاث تطبعين أصابعك الدبقة على الطربيزات ذات الخشب المُلبّس بقشرة لّميعة . لكن حمّاد اختفى بعد ثلاثة شهور من الزواج . وحين ذهبتُ إلى بيت جدّتي رضيّة ، كانت

تجلس على أرضيّة المطبخ وقد نفلت كلّ برطمانات الأرز والسكّر والعدس والفاصولياء والحمص والفول . لم يكن في البرطمانات أي أثر يدلّ على صرر الفلوس . كانت تغصّ بالنحيب . قشط حمّاد أيضاً فلوسها التي كانت في الخزانة وأدراج الكومودينو في غرفة نومها ، من بينها قسط دفعتُه لجدتي رضيّة من ثمن بيتنا . لم تكن جدتي رضيّة تبكي على البرطمانات أو الفلوس ، كانت تبكي على ضياع حمّاد . بعد خمسة شهور ، استلمتْ ورقة طلاقها منه ، فتحطمت .

عادت جدتي رضيّة إلى حياتنا ، وأخذتْها أمي في حضنها ، لكن جدتي رضيّة لم تجد في حضن أمي أو حضن بيتنا تعويضاً . بعد أسابيع ، أُغمي عليها فنقلناها إلى المستشفى لنكتشف أن السرطان التهم أنسجة صدرها عميقاً . استأصلوا أحد ثدييها ، ثم خضعتْ لجلسات العلاج الكيماوي ، فهزلت وهرّ شعرها الأحمر واضطرت مكرهة إلى وضع إيشارب قصير ، لتغطي فروة رأسها شبه الجرداء . تناوبنا على مرافقتها في جلسات العلاج الكيماوي ؛ مرة أذهب أنا معها ، ومرة ترافقها أمي ، ومرة يصحبها جمال . في الجلسة الأخيرة ، وكنتُ معها ، صارحني الطبيب بأنها لم تعد تستجيب للعلاج ، وأن جسمها الذي استنزفه الإسهال والقيء لم يعد يحتمل الجرعات الكيماوية . «وفي النهاية هذا قراركم!» قال الطبيب . في سيارة الأجرة التي أقلتنا إلى البيت ، نشرتُ كتفي وسادة لرأسها . كان الإعياء قد أتى على جسدها الهلامي المتناقص . «جهاد!»

همستْ باسمي ، «بكفّي علاج . . مش راح أموت ناقصة عمر .» فرّتْ دمعة من عيني ، فحرصتُ على أن أمسحها قبل أن تراها . ابتسمت وهي تقول إنها تريد أن تُدفن ببضع شعرات في رأسها على الأقل . بعد صمت ، أشرق صوتها :

ـ كان بِحبْني . . بِحبْني كتير .

ـ حمّاد؟

ـ جدّك عمران .

حاولنا أن نقنع جدتي رضيّة بأن تترك بيتها وتأتي عندنا لكنها رفضتْ ، فرتبنا أمورنا بطريقة لا نفارقها معها . فكنّا ، أنتِ وأنا ، نقضي الليل عندها ، وفي الصباح تأتي أمّي لرعايتها ورعايتك ، بينما ألحق بمدرستي ، ومن ثم المركز ، ثم يتوقف جمال أو ناصر عندها فترة ما بعد الظهيرة وحتى الغروب ، حتى إذا انتهيتُ من حصصي في المركز ، جمعنا الليل ثانية . من وقت لآخر ، تأتي خالتي رحمة لتزورها ، فتظل طيلة بقائها معها تبكي ، فرجوتُها أن تظل في جبل التاج تنوح وتجوح بعيداً عنها . لم أشعر بعبء أو تعب من هذا الترتيب ، بل وجدتُ في السكينة والموت المؤجل في بيت جدتي رضيّة فرصة لأقطع شوطاً في كتابات تأخرتُ عليها . كانت جدتي رضيّة تنام مبكراً ، ثم تلحقينها فيظلّ الليل وكلمات الليل لي ، وإن تلاعبتْ بي وتمنّعت عليّ . اتخذتُ من طاولة السفرة في الصالة المفتوحة على غرفة المعيشة مكاناً للكتابة ، التي تحوّلت منذ ذلك الحين إلى طقس ليلي فيه خفر وترقّب . كنتُ ذاهبة

إلى الحمام ذات ليلة حين لمحتُ جدتي رضيّة في غرفة نومها تقف أمام المرآة تسحب بعض خصلات شعرها في مناطق الشعر القليلة في رأسها تغطي بها المناطق الحاسرة . توقفتُ في اليوم الثاني في السوق ، واشتريتُ باروكة خمرية كثيفة تصل إلى حدود العنق ، بغرّة متساوقة النهايات . فرحت جدتي رضيّة بشعرها الكثيف ، وصارت ترتدي فستاناً من فساتينها غير المستهلكة كثيراً كل مساء ، وتجلس على الصوفا في غرفة المعيشة تشاهد معك التلفزيون ، وتزيح خصلات شعرها الجديد التي قد تسيل على وجهها .

كنتُ أقف متعثّرة عند السطر الأخير من قصة ؛ لم أشعر بك تشدّينني من كمّ بيجامتي . سنواتك الأربع صرختْ بي بنزق :

ـ ماما! ماما! تيتة ما بتحكي معي!

طلبتُ منك أن تخفضي صوتك كي لا تصحو «تيتة» من نومها . عدتُ إلى السطر المعلّق لكنكِ جذبْتني ثانية ، ثم قلتِ بصوت أقرب إلى صراخ مكبوت :

ـ تيتة مش نايمة . . تيتة عيونها مفتوحة!

وقع القلم من يدي . أسرعتُ إلى غرفة المعيشة . جلستْ جدّتي رضيّة على الصوفا ، رأسها ارتاح بميلان خفيف على ظهر الكنبة ، فانزاح شعرها الخمريّ الجديد من مكانه ، وارتخت بضع خصلات متفرقات فوق وجنتها وعنقها . أزحتُ باروكتها إلى موضعها ، ليصبح مفرق الشعر في المنتصف ، ومشطتُ

بأصابعي خصلات شعرها بعيداً عن وجهها . عيناها شبه المائيتين كانتا مفتوحتين ؛ أغمضتُهما لها بكفّي ، فنامت .

في السطر الأخير من حكايتها ، أودعت العاشقة عينيها في مملكة التوْق .

(١٦)

إنّنا إذ نتعثّر بالحبّ ، فإنّ القلوب تلحق بها الكدمات ، وقلبي يا ملكتي من أورام الفقد ورضوض الخذلان مُزرقّاً ما زال . في قلب تهاويه ، مشى قلبي قابضاً على نزفه ، مرتدياً الثبات غلالةً شفافة ، متقمّصاً الوقوف ، مُتنكّراً باللامبالاة ، مُقنّعاً بالسّلامة ، فظلّتْ أوجاعه طريّة ، واستقرّتْ جراحه في قاعه المعتم مشقوقةً ، مكشوفة .

«أدركتُ كم أنّ حياتي كلّها كانت كذبة سخيفة» ، بهذه الكلمات التي استعارها من شخصية دراميّة ، وقف أمامي ، حقيقةً شاهقة ، مترفّعة ومغرورة ، موجزاً الخديعة ؛ خديعة الذات وخديعة الأيام ومراوغة الطرقات ، كتيمة من تيمات مسرحيّة «موت بائع متجوّل» لآرثر ميلر . عرفتُه بالاسم والمسمّى : الدكتور إياس سليمان ، أستاذ الدراما والمسرح الأميركي الحديث في كلية الآداب بجامعة الكويت ، فلسطيني يحمل الجنسية البريطانية ، درس في إنجلترا وحاضر في جامعاتها قبل أن يأتي إلى الكويت . ثمّ عرفتُه بالحبّ : إياس ؛ بالسّين المندّاة بفمي تطفو هسيساً على عنقه . لم تكن

المسرح الأميركي الحديث مادتي المرغوبة ، لكنني اضطررتُ إلى التسجيل فيها بسبب اكتمال نصاب التسجيل في معظم المواد الإلزامية والاختيارية المتاحة لي . كان ذاك الفصل الأول في سنتي الجامعية الثالثة . وصفوه لي بدقّة : لئيم ، متغطرس ، منتفخ الذات اعتداداً ، نكِد ، وقح ، ثم أضفتُ إلى صفاته - دون إعلان - أنه غميق ، غميق جداً ، وآسر ومتغلغل ومتغوّل في النفس ، نفسي أنا ، بشراسة .

اعتاد أن يصل المحاضرة متأخراً خمس دقائق عن بدئها ، بالسيجارة في يده محترقة نصفها ، حتى إذا دخل قاعة الدرس انتظم الطلبة في مقاعدهم ، وسارع آخرون إلى الدخول ، فإذا بلغ لحظة الاحتراق الأخيرة ، طلع برّة القاعة ، وقف عند الباب ، ساحباً النفس المتبقّي من سيجارته ، قبل أن يطوِّح بها في الهواء ، ومن ثم يدخل ويغلق الباب خلفه برجْله . حتى الله لا يستطيع أن يدخل بعده . بات طقْسه متداولاً ومتعارفاً عليه وسط الطلبة ، ولا أذكر أنني عرفتُ أحداً تجرّأ أو جرّب أن يفتح الباب ويدخل بعده . نهبتُ الدرجات ركضاً إلى الطابق الثاني في كلية الآداب ، حقيبتي المدلاّة من كتفي ترتطم بجوانبي وشعري المعقود ذيلاً قزماً سرج الهواء فكاد يسبقني ، أنظر إلى الساعة وأحاول أن أؤخر ثوانيها المتسارعة . قستُ أنه أصبح في القاعة الآن ، وأنه في النفسيْن ما قبل الأخيريْن من سيجارته ربّما ، ثم قدّرتُ أنه بلغ احتراقته النهائية ، فيما ضاعف جزعي سرعتي . كان يقف عند الباب ، في مرحلة

النفس الأخير من السيجارة قبل قذفها حينما اصطدمتُ به بقوّة . لا أعتقد أنه كان اصطداماً بقدر ما كان ارتماء ، أو ما يشبه - لتعجبّي الذي حملتُه معي لاحقاً - التجاء . نعم . كأنّني التجأتُ إليه ، كما لو أني ظللتُ أركض وأركض كي أصل إليه ، ارتميتُ عليه فاستقرّ رأسي على صدره . في لحظة لم يزد عمرها على لحظة ، لكنّها بعمْر تاريخ بأكمله ، كما يحقّ للتاريخ العظيم أن يكون ، أخذتُه بعنف وتعنّت قبل أن أفلته . وحين حاولتُ أن أرفع رأسي الذي تثاقل عن النهوض من هدْأته فوق صدره ، احتكّ أنفي بقماشة قميصه ، وفي المسافة ما بين زرّين من أزرار قميصه ، في فراغ القماش وطغيان الجسد ، غمرتْ رائحة لحمه رئتي . بدوره ، لم يبدُ متعجلاً كي أنفكّ منه ، ثم كأن ذراعيه الطويلتين جمعتاني إليه لأدفأ به ، ولأحظى بسلام لحظتي معه ، قبل أن يقذف سيجارته من فوق رأسي بعيداً ، ومن ثم يضغط أعلى ذراعي برفق معلناً أنّ لحظتنا انتهت . حين رفعتُ رأسي وعيني إلى أعلى ، إلى حيث مثل أمامي متُشاهقاً ، سحبتْني عيناه في يمّهما . «آسفة!» قلتُ هامسة ، فلم يردّ عليّ .

من ورقة استلّها من ملفّه ، نادى على أسمائنا لتسجيل الحضور والغياب . كان يؤشّر بالقلم على أسماء الحضور مكتفياً بأصوات أصحابها معلنين «نعم» من جهات القاعة الواسعة ، دون أن يرفع بصره عن الورقة كي يقرن بين الاسم ووجه صاحبه . عندما بلغ اسمي ، رفع رأسه إلى مصدر الـ«نعم» .

حطّتْ عيناه عليّ ، فتعالت ضحكات الزملاء في المدرج الذين يتوقعون دائماً اللحظة التي يبدي فيها الأساتذة والمحاضرون استغرابهم من واقعي الجهادي ، خاصة عندما يعرجون على أسمائنا أول مرة . لم يستفزني ضحكهم ؛ كنتُ لا أزال أحاول أن أنفض آثار جسده الذي تنشقّه جسدي في لحظة التجائي العالقة . رجع إلى كشف الأسماء وأعاد قراءة اسمي مقروناً هذه المرة باسم أبي كأنه يريد أن يستوثق : «جهاد نعيم؟!» أجبتُ بـ«نعم» ثانية دون أن أكون سعيدة باسمي ، وإن ادعيتُ ثقتي بحوزتي له وانفصالي عن فظاظته . قال بعينيه في عيني إنه قرأ في العدد الأخير من الملحق الثقافي لصحيفة «الوطن» قصة قصيرة بتوقيع جهاد نعيم . أهذه أنت؟ سألني . ابتلع الرفاق ضحكهم ، فأجبتُ بـ«نعم» عالية ، «نعم» أقل ابتئاساً بالاسم وأقل تخلّياً عنه . عاد يتابع قراءة الأسماء مؤشراً عليها ، دون أن يرفع بصره عن الورقة .

طيلة المحاضرة ، عيناه لم تقرباني ، لكنهما - مع ذلك - لم تسقطا عني . اقتفاني بصره من أزرار قميصه ، من لحم عنقه المتطاول أثناء الكلام وقمّة صدره المكشوفة خلا ياقة قميصه المفتوحة ، من فمه الذي تشكلتْ فيه العبارات بلغة متأنّفة ، غير نصيّة ، متنكّرة لأي مرجعية ، من صوته الطالع من مدى غير قابل للسبر ، من كفّيه اللتين تحرّكتا في الهواء بإيقاع تناغم مع إيقاع شرحه ، وإذ ترشّح بصره في كياني المضطرب تزلزلتُ في مطرحي . وحتى حين أدار ظهره لي بالكامل فإنّ عينيه

صهرتاني . قبل نهاية المحاضرة ، طلب منا أن نكتب ورقة موجزة عن تيمة من تيمات مسرحية «موت بائع متجول» أو إحدى الموتيفات التي تضيء تطور العمل الدرامي ، على أن نسلّمها له في مكتبه خلال أسبوع . جمع أوراقه وهمّ بالخروج حين استوقفته طالبة من وسط القاعة منادية : «دكتووووور!» كانت من بين بنات الكلية مهيوبات الجمال ، مهندَسات الشكل والإطلالة ، ممن قُدِّر لهن دراسة اللغة الإنجليزية والتبجح بها بلكنة المدارس الأجنبية الخاصة ، يأتين إلى الكلية بسياراتهن الخاصة ، التي يصعب أن نتصور أن محركها الشائخ يسعل عدة مرات قبل أن يشتغل أو أن تتعطل في الطريق ، يخاصمن اللغة العربية على نحو يُغتفر لهن وحدهن ، ويتحدثن عن آبائهن بدلال غير مفتعل إذ يصفنهم بـ«داد» ؛ والـ«داد» هذه قد نتبادلها نحن رفاق الدراسة الأقل حظاً ؛ المتواضعين جمالياً ومالياً ، للتندّر على آبائنا الذين لا يصح وصفهم إلا بـ«يابا» خشنة ، مغلّظة ، أو تعبيراً عن أحقاد طبقية دفينة في ذواتنا غير الصحية تماماً . رفع بصره باتجاهها ، فأمالت رأسها على كتفها عابثة بالقلم في فمها وهي تقول إنها شعرت بأنها ضائعة وهي تقرأ المسرحية ، فلم تفهم متى يكون البطل في الحاضر ومتى ينتقل إلى الماضي . مطت كلمة «ضائعة» ، بقدر ما سمحت لها أحرفها المحدودة ، ملحِّنةً إيّاها بلكنة أميركية . أكلتني الغيرة ، فكل ما فيها جميل ، وجهها الموزعة قسماته بتناسق ، شعرها المصفف والمصبوغ بشُقرة غير مسرفة وغير نافرة ، صوتها النادي ، جفناها العلويان نصف

المرخيَيْن المرسومان بالظلال على نحو يحيلهما إلى غيمتين تستظل تحتهما عيناها الكسلانتان ، القلم المتدلّع في فمها ، وغباؤها بكل يقين لم يكن ليشكل فرقاً أو يحضر من الأساس . كانت آية في الحُسن ، ومشاعري ظلت نحوها حيادية حتى تلك اللحظة . في تلك اللحظة تحديداً شعرتُ بأنّي مهدّدة في ما أملك ، على قلّته ، وفي كل ما لا أملك ، وهو كثير ، والغول الذي خفتُ منه أكثر من أي شيء آخر هو اسمها المثير للوله خِلْقة : «سالي»! إذ خشيتُ أن يسألها عنه ؛ فلا أعود أُوجد . رفع بصره باتجاهها ، وبنبرة صلفة مستخفّة ، طعّمها بلكنة استعارها من لكنتها الأميركية المائعة أجابها :

ـ إذا كنتِ ضائعة ، أفترض أن هذه مشكلتك ، وليست مشكلتي! ثم . . هل تحتاجين حقاً إلى أن تفهمي؟

ضجّتْ القاعة بالضحك ، فسحبتْ سالي القلم من فمها بطريقة لا تعكس تربيتها الطرية ، عدلّتْ رأسها ورمت شعرها إلى الخلف ، مستمسكةً بعروة جمالها الوثقى ، التي جعلت الرفاق ينتظرونها تختار مقعدها في القاعة قبل أن يتسابقوا للجلوس بقربها . عند الباب ، التفتَ الدكتور إياس سليمان نحوي منادياً : «جهاد!» نظرتُ إليه مأخوذة باسمي في فمه . طلب مني أن ألاقيه في مكتبه بعد ساعة . لم أفعل شيئاً خلال ساعة سوى انتظار نهايتها . توجهتُ إلى قسم الدوريات في مكتبة كلية الآداب ، كحيّز يؤمه عدد قليل من الطلبة . تصفحتُ إحدى جرائد اليوم ولم أقرأ شيئاً متصلاً . في كلّ

العناوين ، طلع لي اسمي منطوقاً : «جهاد» . لأول مرة أحبّ اسمي ؛ أحببتُه على لسانه هو إذ عزفتُه في رأسي مرّات ومرّات ؛ جهاد . . جهاد . . جهاد ، أنا التي ظللتُ أختصم الظروف الداعية لاستخدامه أو التصريح به ، متجنّبةً مواقف الجهر به . سرى اسمي ، بصوته ، من سمعي إلى جسدي فدبّتْ فيّ رعشة خفتُ أن تفضحني ، ودرتُ حولي لأطمئن أن أحداً سواي لا يسمع اسمي .

كان مستغرقاً في قراءة كتاب ، ساقاه مرفوعتان على حافة المكتب عندما طرقتُ باب مكتبه الموارب ودخلتُ ، فأنزل ساقيه واعتدل في جلسته . ظلّ يتأمّلني فيما وقفتُ أمامه كتلميذ مدرسة مرشّح للعقاب ، يديّ في جيبي بنطلوني . تحاشيتُ النظر إليه ولم أعرف ماذا يتعيّن عليّ أن أقول أو إذا كان يجب أن أتكلم أساساً . لم يدعني لاختلاط مشاعري كثيراً ، فعرج على قصتي التي وصفها بأنها «قاسية . . قاسية جداً» ، لكنّها «أعجبتني» ، كما أضاف . لا يوجد شيء في القراءة النقدية اسمه «أعجبتْني» ، قلتُ له معترضة . «تفضلي!» أشار لي كي أجلس . كانت القصة عن رجل اعتقد الجميع أنه مات . حتى الطبيب الذي عاينه أكد وفاته ، فيما كان الميت «المؤكد» يعرف في داخله أنه حي جداً ، لكنّه لا يستطيع التعبير عن الحياة ، المعطلة ، في داخله أو البرهنة عليها . تمدّد على السرير في غرفة نومه ليلقي أهله عليه النظرة الأخيرة . ثم حين أغلقت زوجته - التي يفترض أنها أصبحت

أرملته - الباب عليهما وحدهما ، تأملتْه ميتاً مفترضاً ، وودّعتْه بكلام كثير ، بدأته : «فقط لو أنك عرفتَ كم كرهتُك!» تمضي الزوجة الخمسينيّة في كشف مكنون روحها التي حطّمها رجل حمل جسده آثار كل النساء المحتملات إلا جسدها ، ثم تبكي ، ونفهم أنها تبكي جسدها الذي ذوى صابراً ، متعففاً ، شهيداً ، دون سبب منطقي . فهي لم تحبّه من الأساس ، ولم تشتهه ، ولم تكن تنتظره ؛ فلماذا انتظرت إذن ، أو ماذا انتظرت؟! لشدّة ما كرهته ، وهو على السرير ، نفذت مشاعرها إلى قلبه شبه المعطّل ، فتوقّف تماماً ومات .

فتح درج مكتبه وأخرج القصة المنشورة في الملحق ، وقد وضع إشارات على فقرات فيها . «بتعرفي شو بفكر؟» عرفتُ أنه يفكر بأن يمسرحها ، ففتح عينيه الغميقتين متعجباً ، لكنني لم أشأ أنْ أوحي له خطأً بأني قارئة أفكار ، أو أسوأ من ذلك ذكية ، فأشرتُ له بعيني إلى مسودة على طرف مكتبه لمسرحية من فصل واحد حملت اسمه مؤلفاً . نظر إلى مسودة المسرحية وهزّ رأسه موضحاً أنه «يحاول» ، حيث قالها مدعياً تواضعاً لا يناسبه ، ثم نظر إلي مدققاً :

ـ لكن بصراحة تفاجأت لما شُفْتكِ!

ابتسمتُ قائلة :

ـ ما كنت تتوقع «جهاد نعيم» بنت!

كأنه استاء من احتمال أني قد أظنّ ، مجرد الظنّ ، بنمطيّة تفكيره ، فبادر :

ـ ما توقعت تكوني صغيرة! القسوة في القصة بتيجي في العادة مع حكمة العمر!

ـ الحكمة هي محصّلة الخسارات . . شو بِدَرّيك؟ يمكن خساراتي من هلأ كتيرة!

حاول أن يقرأ ما وراء قناع «الصغيرة» الذي أرتديه . فقط كل ما تمنيته هو ألا يرى الولد في داخلي . حين غادرتُ مكتبه ، كنتُ متيقنة أن عينيه كانتا تمشيان ورائي ، فأخرجتُ يدي من جيبي بنطلوني وحاولت - حاولتُ بإخلاص - ألا أمشي مهرولة بساقي منفرجتين كثيراً .

في الليل ، عزفتُ موسيقى اسمي من تلحينه في جسدي الذي ، لليالي طويلات منذ تلك الليلة ، لم يصبْه عميق نوم أو بالغ غياب . . «جهاد» ، حيث الجيم غير المتجبّرة المجلّلة بعطش خفيف ، بالكسرة غير المنكسرة تحتها ، فالهاء الهوائية الهافّة ، فالألف الناشدة أبعد أفق دون أن تنهار أو تسكن عند الدال ، غير الدالة على الهبوط الاضطراري . أحببْتُ اسمي إذ لامست الأحرف الفاحة من فمه أذني ، ثم تعشقّت فوق لحمي .

حدث الأمر هكذا . فبعد أسبوع ، تخلّلته محاضرتان معه ، لم ينطق فيهما اسمي الذي اشتقتُ إليه بنسخته ، ولم ينظر إليّ وإن أمعنت عيناه مدّعيتا الانحراف بعيداً عني في حصاري ، ذهبتُ إلى مكتبه . كان الباب شبه مغلق . نقرتُ عليه ، ثم شققتُه . وقف وراء الباب يقلّب أوراقاً من ملفّ

سحبه من خزانة أدراج. بصوت حمّلتُه أكثر مما يحتمل من ثقة ورضا قلتُ له إني جئتُ لأسلّمه المقالة التي طلبها. «أي مقالة؟» سألني بتلك النبرة القصية المنفصلة التي تشي بشيء من التعالي والاستخفاف وبعض اللؤم الأصيل. لم يرفع رأسه عن ملف الأوراق. على الفور، طقّ كسْر في ذاتي. فأجبتُه بصوت جهدتُ كي لا يسمع فيه صوت التهشّم داخلي: «المقالة يللي حضرتك أمرت نكتبها!» لم يتوقف عند النغمة التهكمية التي تقصّدتُها في صوتي الذي غشته غرغرة، فطلب مني أن أضع المقالة على المكتب. وضعتُها بما يشبه الرمي وهممْتُ بالمغادرة سريعاً، عندما استوقفني ليسألني، مواصلاً انحراف بصره عنّي، عن التيمة التي ناقشتُها في المقالة. «الهجْران»، أجبتُه غاضبة دون سبب، فألقى الملفّ على ظهر خزانة الأدراج وجذبني من ذراعي، رادّاً الباب برجله وسدّه، لنقف - هو وأنا - خلف الباب. طبع أحرف اسمي على أذني بذات الموسيقى التي شغفتُ بها أول مرة، وإن كان اللحن أبطأ.. أبطأ كثيراً، متدرجاً في هبوطه في وديان الهمس، ثم وقّع قُبلة على شفتي قبل أن ينهال عليّ حبّاً. أعتقد أن قدمي ارتفعتا عن الأرض كي أبلغه، أو لعلّ جناحي ذراعيه رفعاني، فلفّني وحملني لتؤوي مساحته الشاسعة مساحتي الصغيرة.

مشيتُ وإياس في زمن سرقناه من أيامي الخاليات، ذلك أنني ظللتُ أنتظره معظم الأيام، ومن بعض أيامه الممتلئات المزدحمات، ذلك أنه ظلّ يُحاول أن يجد لي مكاناً في أيامه

ولو حشراً . لم نتوقف عند مقتضيات المنطق كثيراً . . على الأقل في البداية ؛ لم نسأل في ما يمكن وما لا يمكن ، في ما نستطيع ، نستطيع حقاً ، وما لا نستطيع مُطلقاً ، في من قد يرانا ومن نحاذر جداً بألا يرانا ، ومع ذلك فإننا كثيراً ما جانبنا الحذر إذ تبلغ اشتياقاتنا الجسدية المقمّطة مبلغاً عظيماً لا تنفع في ردعها كلّ دعوات التبصّر . مكتبه الذي شهد انصهارنا الأول الفجائي ، يوم طلع عفريت المرأة الفاغرة رغبتها من قاع القاع في قمقم الولد المقنّع ، ظل يستقبلنا في آخر النهار ، إذ تتناقص الأرجل عن مكاتب الأساتذة والمحاضرين . لكن المكتب والنهار أيضاً ظلا قاصرين عن احتواء زقزقات جسدينا الخافتة خلف الباب ، نصف المفتوح ، نصف المغلق . صرتُ أذهب بعد المحاضرات إلى مكتبة كلية الآداب للمذاكرة والعمل على البحوث وكتابة المقالات ، أو قد أنطلق بعد العصر من البيت ، سيراً على القدمين ، إلى المكتبة العامة القريبة من بيتنا ، فأظل فيها - كما يفترض - حتى موعد الإغلاق ، وهي حجّة لم تكن فارغة تماماً إذ اعتدتُ الهرب ، حتى في أيام المدرسة ، من البيت إلى المكتبة طمعاً ببعض الصمت والقلة البشرية . بالنسبة لأمي ، فإن غيابي لم يكن موضع مساءلة ، وحين أعود من الكلية ليلاً ، أخفّ إلى المطبخ ، أفتح الثلاجة وألتقط ما أجده أمامي ، فيما أشرح لها بفم ملآن وبكلام ممضوغ مع الطعام - دون أن تستفسر - أني ذهبتُ مع زميلتي «فلانة» أو أوصلتني «علانة» بسيارتها . بالنسبة لأبي ، لم يكن ليظنّ أبداً

أن صبيّه غير الوسيم - أي أنا - يمكن أن يكون عابثاً في الليل ، وحتى حين رآني أقف أمام المرآة في عصرية أصفّف شعري بطريقة مختلفة ، وأضع أحمر شفاه خفيفاً على شفتي ، اللتين لم أتمكّن من تحديد خطوطهما ، أنا التي خاصمتُ المكياج لسنوات طويلة وتخبطتُ لاحقاً في تطبيقاته ، هلك من الضحك ، كما لو كان ينظر إلى ولد يتنكّر في هيئة بنت .

مع ارتخاء أجفان الغروب ، تقترب سيارته حسب الموعد المتفق بيننا . أشعر به يصل قبل أن يصل ، فتهفو روحي إليه ، ويخشى جسدي أن يتكشّف للملأ أنه توّاق ومتوق إليه فوق التصور وفوق الاحتمال ؛ فأجمعه مع حقيبة كتبي ودفاتري وأغادر المكتبة . أقطع بضع خطوات إلى حيث تناديني أضواء سيارته الغامزة ، فأركب إلى جواره وينطلق . إذ يتخطّى شوارع المدينة السافرة بالأضواء والبشر إلى الشوارع الطرفية ، شبه الشاغرة ، ومنها إلى الطريق العام فطرق تشبه طرقات الأسفار الصحراوية ، نفك المغلق ونستجلي ما غفل من معاني الجسد وعطاءاته اللامحدودة على مقعدين أماميين في سيارة تشقّ دربها ، دونما احتراز ، وسط تهامس لحميْنا وعري روحيْنا بالقدر الأقصى الممكن في تللك اللحظات . في المرّات التي تخوننا فيها الشوارع فتظل عيونها تتبعنا ، نتكلم ، نتكلم كثيراً ، وفي الكلام نستنطق حياتيْنا اللتين التقيتا كما افترقتا لاحقاً . أسأله : «بتشوفني حلوة؟!» فيقول «لأ» ويضحك . ثم أحاول أن أبدو جادة ملحّة في طلب الجواب ، فيجيبني : «شكلك

غريب!» في أربعيناته ، كان جميلاً ، أجمل مني أنا في مطلع عشريناتي . لم أقل له إن أبي يراني صبياً ، فقد خفتُ أن ينفر من الفكرة . بعد وقت ، وعلى طريقة «وجدتُها!» نظر إليّ صائحاً : «إنتِ ولد!» محللاً انجذابه غير المفهوم إليّ بنزوع الإنسان الطبيعي أحياناً إلى بعض الرغبات الشاذة . لكن بعيداً عن لؤمه المثير ، كان حنوناً ، وأحنّ اللحظات عليّ تلك التي أضع فيها رأسي على حِجره بينما يقود السيارة ، حتى إذا غفوتُ ، ظلّ يقطع الطرقات بنعومة ، متجنّباً الانعطافات والكوابح كي لا أفيق من نومي .

توثّق جسدانا في الفصل الثاني ، فلم أسجّل في أيٍّ من مواده ، رغم غواية الدرس وغواية العينين النائيتين عنّي في المحاضرة المتغلغلتين فيّ ، فتخلّصتُ من انكماش الطالبة أمام أستاذها في علاقة أنذرت بأن تتحول مبكراً إلى فصامية إذ كان الدكتور إياس سليمان يتحدّى نقاشي في النهار ، ويستسلم إياس - أو «إياسي» إذ أحلتُه ملكيةً مؤقتة لي - لنقْشي عليه في الليل . وفي السنة الرابعة ، تخرّجتُ بامتياز العاشقة ، وحين اشتغلتُ في المدرسة وفي معهد دروس التقوية في المساء ، اقتنيتُ سيارة مازدا صغيرة مستعملة ، فلم يعد الوقت والوسيلة يشكّلان تحدياً ، فكنتُ إذا انتهيتُ من حصصي في معهد الأفق ، ذهبتُ بسيارتي إلى الكورنيش أو إلى إحدى الحدائق العامة ، في بقعة مُتفق عليها بيننا ، لأوقف السيارة هناك ثم أركب معه في سيارته ، فنختار في معالجة رغباتنا أن

نكون متعجّلين، سريعين، أو قد نلتزم الحيطة ونحيل معوقات الطريق عاملاً يضاعف إثارتنا. ثم نحكي.. ونحكي، ولا نرغب - أنا على الأقل - في أن نتوقّف عن الحكي، إذ تصفق رمال الصيف ومطر الشتاءات المباغتة نوافذ السيارة المغلقة، أو تربت نسائم الربيع الموجزة على وجوهنا حين نفتح النوافذ كي نسمح لأبخرة جسدينا بأن تتبدّد. صرتُ أشتاق لسيارته، وصارت السيارة البيت الشاسع الذي عوضني عن بيت أبي الضيق وخلْقه الكثيرين. بل في مرة، وكنتُ في سنتي الجامعية الأخيرة، لم أنم قرابة يومين، إذ عكفتُ في الليلة الأولى على إنهاء بحث والمذاكرة لامتحان، فيما قضى ناصر وبيلا الليلة التي تلتها يصارعان الحمى بسبب عدوى فيروسية لنتناوب، أمي وأنا، على وضع مناشف مبلّلة بالماء الصقيعي على رأسيهما. جسمي كان رخيّاً، متضعضعاً، وعيناي أُدميتا من الاحمرار، فيما أتى الشحوب على وجهي. ذُعر إياس لمنظري. حين شرحتُ له الأمر، جعلني أتمدّد على مقعد السيارة الخلفي، متخذةً من حقيبتي وسادة، بينما فرد كاب الصوف الخفيف الذي كنتُ أرتديه فوقي كبطانية، وانطلق بسيارته يحملني في سرير متحرّك برقّة، تهدهدني الأصوات الخافتة المنبعثة من الراديو. حتى إذا أفقتُ من نومي، كان إياس قد قطع أكثر من ساعتين من زمن الشوارع.

بعد ثلاث سنوات، ظلت السيارة تكفي إياس، لكنّها أبداً لم تكفني. وظلّ بعض جسدي يسدّه هو، لكن بعض جسده

لم يملأني أنا . وظللتُ امرأة ناقصة ألبّيه ، وظل رجلاً كاملاً جداً لا يلبّيني . طلبتُ منه - حدّ التسوّل - أن يحوّلني امرأة كاملة فارتأى أن يوفر تدشين البنت إلى امرأة لرجل آخر بعده ، مفصّل على مقاسات حياتي بصورة أكثر منطقية ، وزمانه يتقاطع أكثر مع زماني . قلتُ له إني أريد بيتاً لي وله ، بيتاً كبيراً فيه أكثر من غرفة نوم وأكثر من حجرة وأكثر من فضاء ، بعضها مخصّص للصمت ، بعيداً عن صراخ بيتنا وبشر بيتنا الذين لا يتوقفون عن الوجود . قال لي إنه يكره بيته ، وأنه يهرب من صمته إلى حكْيي وضجيجي . ما أَحبّه في علاقته معي أنها تحررت من فكرة البيت ، بيته ، وما أحببتُه في علاقتي معه أني تحررتُ من بيت أبي بعض الوقت في الليل الضيق على بشره الموزعين بين الصحو والنوم ، لكنني ظللتُ أريد بيتاً لي معه هو . في آخر مرة قطفنا فيها الحب في السيارة ، طلبتُ منه أن يتزوجني . أوقف السيارة جانباً ، فتح النافذة ، أشعل سيجارة ، سحب منها أنفاساً قصيرة مبتورة ، ثم رماها قبل أن يحرقها كلها ، ونظر إليّ قائلاً :

- إنت عارفة إنّو فكرة الزواج غير مطروحة أصلاً .

كنتُ أعرف أنه متزوّج ولديه ابنان ، في حياة لم يأتِ على ذكرها أبداً أمامي . جرّبتُ أكثر من مرة أن أجرّه للكلام عن زوجته كي أعقد مقارنة بيني وبينها أستجلي فيها نواقصي الكثيرة ، ثم أقنع ذاتي - مهما يكن - أن النتيجة لصالحي طالما أنه معي وطالما أن جسده ، الذي يفوقني طولاً وضخامة

وجمالاً ، قد يتّسع له صدري إذ يرتمي علي بشوق غائل ، متخيّلةً أنه من الصعب أن تغمره امرأة ضئيلة غيري . لكن مزاجه كان ينقلب بسرعة ، ورغبته فيّ يلحقها كدر كلما قاربتُ موضوع زوجته وابنيه ، فتنتهي جولتنا في السيارة أسرع مما أردنا ، وأقلّ حباً مما سعينا إليه . في البدء ، اقتنعتُ بأنْ أكون حياته الأخرى ، المؤقتة ، المعلقة ، ثم طمعتُ فيه كله ، في كلّيته ، فأردتُ أن أكون حياته وفقط . علا صوته :

ـ أكره حياتي . . وأكره بيتي . . مبسوطة هلأ؟!

ـ بدّي بيت . . بيت لإلي أنا .

ـ مش راح أقدر أعطيك بيت .

ـ في غيرك ممكن يعطيني بيت .

كان ذاك لقاءنا الأخير ، أنهيناه بكثير ألم وبكاء ، من جانبي أنا ، وتبادل اتهامات من جانبينا ، حين نظر إليّ بعينين قصيّتين رسمتا ما استحال فراقاً قاهراً ، وقال :

ـ تزوّجيه!

التقيتُه في مكتب إياس في الفصل الدراسي الأول من سنتي الجامعية الأخيرة . كنتُ قد دخلتُ المكتب في أول يوم دوام ، مترقبةً وصول إياس من العطلة الصيفية التي أمضاها في بريطانيا مع أسرته . ارتديتُ بهجة غامرة واستنْفاراً جسدياً فائضاً ، عندما تراجعتْ فرحتي وتناقص جسدي ، ومعه طُويتْ استثارتي إذ رأيتُه . نظر إليّ بفضول ، ثم تحوّل إلى إياس ، الذي استدرك الموقف ، متقمِّصاً صيغة الأستاذ المتنائي ، بأن عرّفني

إليه . «الأستاذ أحمد ناهض . . زميل جديد معنا في القسم» .
مدّ يده إليّ مصافحاً مُصحِّحاً لقبه : «دكتور أحمد ناهض .»
فلسطيني ، عاش معظم عمره مع عائلته في مصر ، ودرس في القاهرة . كان في الثلاثينات ، وكان سعيداً بنفسه ، وبشهادات كثيرة يقول إنه نالها في سنّ صغيرة . تخصّص في علم اللغة ، واقتصر جدوله في الكلية على المحاضرات التي لها علاقة بتقنيات الكتابة والمحادثة المتقدمة . أحاط بمعلومات كثيرة جداً ، لكنها كانت من نوع الثقافة الالتقاطية العابرة ، دون جوهر عميق . تأنّق بإفراط ، جامعاً رقبته في قميص بياقة مرتفعة وربطة عنق ضاغطة ضاعفت من عذابات طقس الكويت في أيام أيلولية تناوبت عليها الحرارة والرطوبة والغبار . صدْر إياس الذي تنفّس من قميصه المفتوح أعلاه دعاني لكنّني لم أتمكّن من تلبية الدعوة . ظلّ الدكتور أحمد ناهض يوزّع بصره بيني وبين إياس دون أن يستشعر حاجتنا ، إياس وأنا ، له كي يرحل .
أخيراً ، رحلتُ أنا .

في المرات الكثيرة التي التقيته فيها ، كان أحمد ناهض ، أو الدكتور أحمد ناهض كما ظلّ حريصاً على أن يذكّر أي شخص يتجاهل لقبه ، يتعمّد أن يلقي بنفسه في طريقي ، يدعوني إلى شرب القهوة في مكتبه والتحدث معي . حسب أنه كان يثير اهتمامي حين يشير إلى قصة لي قرأها في الصحيفة ، وفي المقابل كان يتحدث عن مقالة له نشرت في صحيفة أخرى لكنني لم أقرأها ، فأشعر بالحرج كأنه كان يجب

أن أقرأها من باب ردّ الجميل له لأنه قرأ قصتي . لم أكن أنجذب إلى قهوته أو حديثه كثيراً ، لكن في الأوقات التي كان إياس يتلأمن فيها معي متجاهلاً حركشتي به ، كنتُ أذهب إلى مكتب الدكتور أحمد ناهض ، وأجعل إياس يعرف أنني في مكتب زميله ، وأبدو مصغية ومهتمة وأضج ضحكاً على نحو يوحي باستمتاع امرأة برفقة رجل ، في لعبة غريبة تورّطتُ فيها من غير قصد ، أو لعلها كانت لعبة الأنثى الطبيعية ، حتى وإن تنكّرتْ في شكل ولد وأخلاقه ، لإثارة غيظ رجُلها ، وهو ما كنتُ أنجح فيه ذلك أن إياس يأخذني - بعد اللعبة - أخذ عاشق عزيز غيّور مقتدر .

حين تخرجتُ من الجامعة واشتغلتُ في المدرسة ، واصلتُ المرور على إياس في مكتبه في الكلية بعد نهاية دوامي ظهراً ، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع . وقد نلتقي في كافتيريا الأساتذة ، نتغدى معاً ونتناقش ، إذ أشركني إياس في تحويل قصتي إلى مسرحية ، مسنداً إليّ مهمّة كتابة مونولوغ المرأة أمام جسد زوجها المسجى على السرير ، ميتاً مفترضاً ، ليتولى بدوره البناء الدرامي والتطبيقات السينوغرافية . فنفترش خربشاتنا على الطاولة ونتبادل الملاحظات مع البطاطا المقلية ونمسح دماء الكاتشب على الورق . من ثم أعود إلى البيت ، أرتاح قليلاً قبل أن أتوجه في الغروب إلى معهد الأفق ، أعطي حصة أو حصتين يومياً ، لألتقي إياس - حسب الاتفاق - في الليل . في أحيان كثيرة ، لا أجد إياس في المكتب أو في الكافتيريا ،

وقد يترك لي رسالة شفهية مع أحدهم أنه لن يأتي، فيصر الدكتور أحمد ناهض على تناول الغداء معي. وأجد نفسي مضطرة للإصغاء له دون اهتمام جدّي. ويبدو لي مع الوقت شاباً تورّط إذ كبر، وتورّط أكثر إذ اعتقد أنه صار شيئاً كبيراً. فهمتُ منه أنه أعزب، وأنه لا عائلة أو أقرباء له في الكويت، وأنه يقطن في شقة في مجمّع سكن الأساتذة في الجامعة في كلية الآداب بمنطقة الشويخ. كانت الشقّة كبيرة جداً بالنسبة له، شاعراً فيها - كما عبّر - بالوحدة، وبسكينة قاتلة! حين علمتُ أنها تتألف من ثلاث غرف نوم قلتُ له متهكمة أنه يستطيع أن يستبدل شقته بشقتنا في النقرة.

صار الدكتور أحمد ناهض أقل شعوراً بالوحدة بوجودي معه، كما صارحني ذات غداء، وأنا صرتُ معه أكثر يأساً في انتظار إياس في الكافتيريا. وحين ألتقي إياس ليلاً في سيارته، بيت العشق المتحرك، يتحدث عن ظروف عائلية حالت دون التزامه بموعده معي ظهراً، فأتطرق إلى ظروفي أنا ويأسي أنا، ثم أسأله عن زوجته وعن البيت، وينتهي اللقاء بحنق كثير وحبّ قليل. في يوم سألني أحمد، الذي طلب مني أن أرفع الكلفة بيني وبينه فلا ألقبه بدكتور، عن علاقتي بإياس خارج النص المسرحي الذي نعمل عليه. لم ينتظر جوابي غير الحاضر في الأساس، فقال إنه يستشعر أن أياس يمكن جداً أن يكون أبي. لكن «زوجة إياس لا يمكن أن تكون أمك!» قالها ضاحكاً، محاولاً قراءة عيني اللتين اصطرعتْ فيهما كل

مشاعري . فهي لا تكبرني كثيراً ، على حد وصفه ؛ جميلة ، وأنيقة ، ومن يراها لا يمكن أن يصدق أنها أنجبت ابنين . كانت قد دعته على العشاء ذات يوم فأسرته بلباقتها . ادعيتُ النظر إلى ساعتي ثم نهضتُ على عجل أريد المضي حين طلب مني أحمد أن أنتظر قليلاً بداعي مفاتحتي بموضوع مهم . «أحبّك» ، قال لي دون تمهيد ودون استجلاء الظرف الأمثل للتعبير عن الحب ، ضماناً لنتائج أفضل ، ثم أتبعها بطلبه الزواج بي . هبطتُ على الطاولة ، وقد سطت المفاجأة على حواسي . حاولتُ أن أسمع من جديد ما سمعتُه لتوي وحاولتُ أن أفهم . هممتُ بأن أتكلّم لكنّه أشار إليّ بأنه لا يريد أن يعرف جوابي الآن ، ولا بُكْرة ، ولا بعد بُكْرة . أمامي الوقت كلّه لأفكّر .

كيف نعرف أننا نحبّ من نحبّ؟ كيف نميّز بين الحبّ في خَلْقه الصحيح والحبّ في اختلاقه؟ بين خَلْق الحبّ واختلاقه بون ليس شاسعاً . . دائماً . وبين صُنع الحبّ وتصنّعه ، يمتدّ غيهبٌ في القلب ، يسحبنا غميقاً ، فلا نميّز في سواده حبّاً . . عن حبّ . كنتُ أستطيع أن أحبّ بيتاً كبيراً بثلاث غرف نوم ، والأهم أنني كنتُ أستطيع أن أحبّ رجلاً استعدّ لأن يغضّ الطرف عن تفريطي بمعظم ساعات اليوم خارج البيت كي أعمل من أجل عائلة كبيرة ، انتظرتْ ابنها الأكبر كي يتخرج ويشتغل لإنقاذها . كنتُ واثقة أني أستطيع ألا أحبّ إياس ، وكنتُ شبه واثقة أني أستطيع أن أحاول أنْ أحبّ أحمد ، لم أنتظر الوقت كله لأفكر ، فتزوّجتُه .

على طرف السرير في غرفة النوم الرئيسية ، جلستُ أفحص في المرآة امرأة بفستان زفاف أبيض وطرحة ووجه شبحي ذاهل ، اكتسى بنهر جارف من الدموع . انحنى أحمد ، الرجل الذي أصبح زوجي ، قبالتي ورفع وجهي الباكي بكفّه ليصبح في مرمى عينيه ، ثم سألني عن إياس . تجمّد الماء في عيني . كان قد دعاه إلى زفافنا ولم يحضر . «يمكن زعلان؟!» تساءل . لم أعلق مكتفيةً بتثبيت عيني في عينه ، كي لا يقرأ في نظراتي الهاربة الجواب الذي يريد . أزحتُ كفه عن وجهي برفق وطلبتُ منه برجاء أن يتركني الليلة أنام وحدي ، فـ«أنا متعبة» . خلع جاكيته وربطة عنقه وألقاهما على معقد التسريحة وقال : «راح أعطيك بس الليلة . . مش راح أستنى كتير .» بكرة كانت ستكون حكاية أخرى لي وله . حتى إذا جاء بكرة ، أطاح بي التهاب شديد استشرى في صدري وحنجرتي ، وشلّ مفاصلي ، فلزمتُ السرير أياماً ، استشعرتْ أمي خلالها أن الأمر أكثر من مجرد خوف بنت من الليلة الأولى ، بينما تعاطى أبي مع الأمر من منظوره الساخر إياه ، إذ جلس على الفراش بجانبي وهمس في أذني غامزاً : «هاد جزاة الولد يللي بتنكّر لحقيقته!» كان أشقائي سعداء ببيتي الكبير ، واكتشف بيلا أنه يستطيع أن يركض من آخر غرفة إلى الممر فالباب الخارجي في خط طويل مستقيم دون أن يصطدم بأحد . رجوتُهم أن يظلوا معي ويناموا في الغرف الخالية ، لكن أمي رفضت أن تقتحم خصوصية حياتي الزوجية من البداية ، خصوصاً أنها لم تلق ترحيباً من أحمد . في الليل ، أنهض من

فراش المرض أحمل وهني ، أقطع مسافة طويلة من غرفة النوم إلى المطبخ طلباً لشربة ماء ، فتترصّد بي الغرف الفارغة الصامتة المفتوحة أبوابها ، وتسير في أثري ظلال الظلام ، فاردة أذرعها على الأسقف والجدران ، التي لم تحمل آثار عِتْق أو شخبطة حياة تتكوّن . أنظر حوالي ، أرى مآقي العتمة تجحرني فأركض إلى سريري مذعورة .

وفي اليوم السادس ، دخل غرفتي . خلال أيام مرضي كان ينام في غرفة النوم الثانية المجاورة للغرفة الرئيسية . لم يبد أنه يريد الاطمئنان على صحّتي . كان معبأً بالغيظ . ألم يئن الأوان بعد؟ لم يكن يسأل أو يستأذن . كان يريد وفقط . كنتُ أقرأ حين أخذ الكتاب من يدي وألقاه بعيداً . جمعتُ نفسي ونهضتُ من السرير . «أنا تعبانة . . أرجوك ، أعطيني وقت!» قلتُ له . جلس على حافة السرير ، خلع حذاءه وجاكيته وحزام بنطلونه وربطة عنقه ، ثم فك أزرار قميصه برعشة عصبية ، قائلاً بصوت حمل نفاد صبر : «أنا ما عندي وقت .» هممتُ بالخروج من الغرفة ، فقبض على ذراعي ، ثم دفعني وحشرني في فراغ ضيق بين الحائط والخزانة . وضع يده على رأسي وفرد ذيل شعري القصير ، ووزعه على جانبي وجنتي ، فارتجفتُ من الخوف إذ حاصرتني ابتسامته : «بيني وبينك . . زواجنا كان غلطة . . أكبر غلطة!» لم أفهم ما يعني تماماً ، لكنني في خضم وجلي منه ، شعرتُ ببعض الراحة الغريبة لهذه الخلاصة ، فقلتُ بشيء من الاطمئنان والثبات :

ـ طلقني إذن!

انفلت في ضحك عصابي وضرب رأسي بالحائط صارخاً :

ـ علشان تروحيله؟! هو لو كان بدُّوياكي أصلاً لما تركك . . مش هيك؟!

ـ شو قصدك؟ عن مين بتحكي؟!

ـ مش عارفة عن مين بَحْكي؟! عن حبيبك إياس! فكّرتيني مش عارف شو كان بينكم؟

ـ ليش تزوجتني إذن لّما كنت عارف؟!

مشى براحة يده على خدي صعوداً وهبوطاً ، ثم نزل إلى رقبتي ، فالتفّتْ يده حولها في محاكاة لعملية خنق . أطبق على عنقي بقوة ، ثم فكك قبضته ، وقال :

ـ حبيت أكسره . . مفكّر حاله إشي كبير . . عنده كل شي . . وبظن إنو بيقدر يحصل على أي شي .

فتحتُ عيني على آخرهما ، وصوّبتُ بصري نحوه متحديّة ، قائلة بصيغة أقرب إلى الأمر القاطع :

ـ طلقني!

صفعني ، فارتدّ رأسي بين الحائط وجدار الخزانة الجانبي . «أطلقك؟! هيك ببساطة؟! أنا دافع فيكي فلوس يا عروس!» رماني على السرير ، فتدحرجتُ من الجهة الثانية ، لكنه أمسك بإحدى ساقي فظللتُ معلّقة بين السرير والأرض . كان قد خلع كل ملابسه . جرّني من ساقي فارتطم رأسي بالأرض ، وربض فوقي . دفعتُ صدره بيدي ، وابتعثتُ قوة رفض عظيمة في

ساقي اللتين ضممتُهما إلى بطني . حاول أن يفتح رِجْلي بيديه فلم يستطع ، فضرب ركبتي بكعب فردة حذائه . انبعث صراخ عاتٍ من قعر وجودي ، فجّر جسدي الملغوم ، فتطوّحت ساقاي المخذولتان ، لتجرفني دوامة عنيفة من الدوار والألم الممدود الموصول حتى ما لا نهاية الألم . اخترقني . فتمزقتْ روحي .

رنّ جرس التليفون . كنتُ ملقاةً على الأرض ، شظيةً بشريةً تذرف دماً وانكساراً . جمعتُ لحمي المبعثَر وعظمي المتورّم ، وبلغتُ الرنين زاحفةً ، أئنُّ من الانحطاط . كان قد استحمّ وارتدى ملابسه ، وخرج . عند الباب ، صاح بصوت منتش : «لا تستنّيني على العشا!» رفعتُ السماعة اللحوح ؛ كانت أمي تسألني بصوت توشّى بالترقب والتوجّس : «ها! طمنيني؟!»

كل شيء بخير ، قلتُ لها . أنا الآن امرأة .

الباب الأخير

.. في المعنى وبعض المجاز

ثم أدركني الصباح يا ملكة ، وصباحات كثيرة بعده . .

(١٧)

من نافـذة المطبخ في بيـتي بالطابق الثـامن ، تشـرع دبي طرقاتها دون تحفّظ لغرباء كثيرين ؛ مصائرهم متوازية ، أكثر منها متقاطعة ، وفي داخل كل منهم وطنٌ في الغالب مهزوم ، أو في أفضل الأحوال مؤجّل .

بعد سبع سنوات ، ودعتُ الأردن . لم آت دبي طلباً لحلم ، أو تنائياً عن كابوس . لم آت البلد الجديد اجتلاباً لأرض أخرى محتملة أو سعياً وراء وطن آخر مستعار . أتيتُها هرباً من الاستعارات الكثيرة التي لازمتني ، وجعلتني أفرِّط في الفكرة الإنسانية الأمّ بشأن قيمة الوجود والمعنى الصريح المباشر غير الملتبس لمبدأ الخليقة ، التي تقول : أنت هو ما أنت عليه ولا شيء آخر . لقد أعيتْني التشبيهات والكنايات والتوريات وأثقلني المجاز ، إذ سحبني إلى ما وراء المعنى الظاهري ، ففقدتُ فهم معناي الواضح البسيط .

موسيقى موبايلي تنتزعني من النافذة . سجلتْ شاشة الهاتف ورود رسالة من وليد ، يخبرني فيها عن رقم رحلته الجوية وموعد وصوله . يعمل وليد مهندساً في شركة ألمانية

متخصِّصة في بناء الجسور في مسقط . قبل عام ، تولت شركته مشروع بناء جسر حيوي في دبي ، فصار يأتي أسبوعاً كل شهر أو شهرين لمتابعة سير الأعمال . ومع أن الشركة توفر له شقة فندقية يقيم فيها عدة أيام ، إلا أنه يحب أن «يكرّج» عندي معظم الوقت ، كما يقول ؛ يقتحم غيابك ، فيجذِّر من غير قصد حضورك ؛ يسطو على غرفة نومك ، وبعض فضائك ، مقلِّباً عناوين الكتب الشائكة في مكتبتك ، معلِّقاً بغرض نكرزتي ليس إلا : «البنت عقلها خربان زي أمها!» وفي آخر الليل ، يكون الولد الصغير الذي يحوِّش من بيع خبز الكعك بالسمسم سراً منكمشاً تحت لحافك لا يريد أن يمدّ رجليه أكثر من اللازم . في الصباح ، أصحو على رائحة خبز محترق في المحمصة ، فأنسى أنك بعيدة وأنادي : «ملكة!» يهرع إليّ صوته الذي يختلط مع قرمشة الخبز من المطبخ ، يدعوني : «القهوة جاهزة!» يداه اللتان تقبضان على الكوبين اللذين يحملهما إلى غرفة المعيشة لنشربهما معاً خلتا من أي أثر لحروق الماضي . بلغ الثلاثين ولم يتزوج . أبوه طلّق زوجته الثانية وتزوج للمرة الثالثة ، فوجد وليد نفسه مسؤولاً عن بذار ثلاث نساء من رجل واحد لا يزال يعاند ثلاجات المجمدات والمواد المفرزنة التي تتعطل في محلّه . تلحق عيناه طائراً غريباً عن المكان حطّ على نافذة شباك مغلق في العمارة المقابلة ، يبحث عن مخرج وسط حصار الإسمنت . يسألني كيف فعلتُ ما فعلت . «صدقني ، أنا نفسي مش عارفة!» ، أبتسم وأؤكد له أن الحياة تحلّ نفسها

بنفسها . درس وليد الهندسة المدنية في جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية . لسنوات ، ظل يبيع في الصباح خبز الكعك بالسمسم ، ثم صار يشتغل في معرشة بطيخ في الصيف ، ثم في محل لبيع الجلابيب النسائية بعد المدرسة . على الرغم من معدّله المرتفع في الثانوية العامة إلا أن والده أشهر عجزه عن تعليمه ، واقترح عليه أن يكتفي بشهادة الثانوية وأن يبحث عن عمل . كان قد مضى نحو عام على مجيئي إلى دبي حين علمتُ بأمر وليد من أمي ، ضمن موجزها الهاتفي الأسبوعي عن العيلة ومن لفّ لفّها ؛ فتكفلتُ برسوم دراسته الجامعية .

أتفقد صندوق رسائلي في بريدي الإلكتروني . تصلني دعوة من مؤسسة ثقافية في المغرب للمشاركة في ندوة أدبية ، تشمل قراءات قصصية ، أردّ سريعاً شاكرة دعوتهم ، وأطلب إمهالي بعض الوقت لأتأكد من ظروفي وإمكانية تلبيتي الدعوة . على الطاولة في الصالون ، لا تزال بروفة مخطوطة مجموعتي القصصية الثالثة تنتظر مراجعتي لها . استلمتُها من دار النشر قبل أيام ، وكشعيرة ابتدعتُها لدواع نفسية - لا نقدية - أهجر ما كتبتُ قدراً من الوقت ، حتى إذا ابتعدتُ عن كلماتي بما فيه الكفاية ، آتيها بشيء من الجفاء وبعض القسوة فأحذف السطور وأبتر الفقرات وأغتال الأحاسيس دون ندم كبير . يبرز اسم ماهر في صندوق الرسائل . إيميلاته في الغالب إما نكات أو مقاطع فيديوية

مضحكة من موقع اليوتيوب أو صور لعياله الذين يبحلقون بعيون تنذر بشقاوة سوف تجلب شقاءً عظيماً للعالم من حولهم. اكتفى ماهر بشهادة دبلوم في الكمبيوتر من إحدى كليات المجتمع. باعترافه، لم تكن مؤخرته من النوع الذي يلصق على مقعد الدراسة كثيراً. اشتغل في شركة دعاية وإعلان في عمّان، وتطور في عمله بعدما أخذ عدة دورات متقدمة في تصميمات الغرافيكس. كان ماهر الولد الأول على أربع بنات سبقنه، وبعده أولاد وبنات آخرون كثيرون لم أحصهم. أصر أبوه على أن يزوجه مبكراً. حين قاوم ماهر الفكرة، أصيب أبوه بنوبة قلبية ولم يشف إلا حين انتزع من ابنه الموافقة على الزواج بابنة عمه. ضحكاتنا، ماهر وأنا، لا تفتر كلما التقينا في إجازاتي الخاطفة إلى الأردن، إذ يقلد ماهر أباه وهو يفنجل عينيه ويفلج شفتيه في ادعاء الشلل المؤقت، ثم يضع يده على صدره زاعقاً: «قلبي! قلبي!» منطعِجاً من الألم المزعوم، كما يتقمصه. حتى إذا تزوج ماهر فوراً ودون إبطاء عاد قلب أبيه إلى طبيعته فجأة، ولم يعد يشكو - يا قدرة الله - من شيء إطلاقاً. أنجب ماهر ولدين وبنتاً، فارتاح والده مبدئياً إلى امتداد نسْله الذكوري. فتحتُ رسالته. تحت عبارة «هل يذكّرك بأحد؟!» ظهرت صورة جهاد، الولد الأكبر لماهر، يتسلّق شجرة في بيت جدّه. تقف عيني على حافة الضحك والبكاء إذ تقع على توقيع ماهر الأزلي في ذيل رسالته: ماهر ابن أم ماهر.

قصصْنا أكثر الأشجار في حديقة بيتنا. بعد أن غادرنا،

كلٌّ إلى حياته وحياتها ، اقتصرت الحياة في بيتنا على أبي وأمي ، ثم انضمت إليهما عمتي نجاح ، فبعدما ماتت جدتي فاطمة ميتة الله الطبيعية ، أجّرت عمتي نجاح بيت المخيم ، واختارت أن تعيش عندنا ، لأنها تتناقر مع أمي أقل من نقارها مع زوجة عمي أبو تيسير . لم يعد أبي وأمي قادرين على مطاردة صبية الحارة الذين تمتشق أجسادهم القططية الأغصان . ثم إن معظم الأشجار هزلت ونحلت وانحنت قاماتها بسبب سوء الرعاية ، كما قالت لي أمي التي اتصلتْ تبلغني أنها طلبت من جمال وناصر أن يحتطبا الشجر . حزنتُ للأمر ، لكنني كنتُ أعرف أنه من أرضي البعيدة لا أستطيع إنقاذ اللصوص العالقين في شباك الرغبات . في كل مكالمة أسأل أمي عن أبي ، فتقول لي كما كل مرة : «حطّة إيدك!»

جاء أبي إلى الأردن بعد نحو خمس سنوات من حرب الكويت . حين دخل البيت بوجه غائب وحقيبة هزيلة ، عرفنا أنه ترك الكويت أخيراً . لم يقل لنا ما حدث ، كيف ترك ولماذا ترك ، ولم يقتنع الناس أنه «جاء إيد ورا وإيد قدّام» ، كما كانت أمي تؤكد لمعارفنا الذين جزموا بأنه رجع بثروة . انسحب أبي من صباحاتنا ، من عصرياتنا ، ومن مساءاتنا . قصرتْ يده عن موائدنا الأرضيّة ، وارتفعتْ عن خبزنا وشاينا وقهوتنا وضجيجنا ؛ اختلى بالصمت أكثر مما عانق الكلام ، والتزم الليل أكثر مما تحرّى النهار . كانت ريما ، التي درست العلوم والتحقتْ بالتدريس معلمة أحياء ، قد خطبت بعدما وقعت موقعاً حسناً

في عين وقلب شقيقة عريسها التي تعمل معها في المدرسة نفسها . اشتريتُ سواراً ذهبياً وأعطيتُه لأبي كي يُلبسه لابنته العروس في زفافها نقوطاً ، لكن أبي رفض وارتأى حازماً أن أقدّم أنا السوار . في ليلة حنّاء ريما التي تسبق حفلة العرس ، احتلّتْ الصبايا ونسوة العائلة والجارات والقريبات والبعيدات كل غرف البيت ناشرات ألوانهن المكتومة تحت الجلابيب باسطات بعض ما أمكن من عريهن ، فترك أبي البيت كي لا تصطدم عينه بلحم ليس له وطلع إلى السطح . تبعتُه بصينية قهوة . جلستُ قبالته بظهر منحن - في وضعية كلام جاد لرجُلَيْن مهمين - ورِجْلين منفرجتين ، ثم طلبتُ منه نفَساً ، فقدم لي سيجارة وأشعلها دون تركيز . «ريما مبسوطة كتير» ، قلتُ له . فلم يتكلم . رشّ الليل فوقنا بعضاً من رذاذ إضاءة الشارع الهزيلة فتعانق خيالانا على الأرض . ارتفع هياج البنات في الأسفل مع موسيقى الدبكة الجوبية ؛ مددتُ يدي له واقفة ، فنهض متثاقلاً . ضربتُ ساقي اليمنى على الأرض على نحو خفيف ، فحاكاني بساقه ، وإن خرج عن الإيقاع ، أمهلتُه الإيقاع الثاني كي ينتظم معي ، فسايرني في الإيقاع الثالث أو الرابع ، دابكيْن بتسارع أكبر ، محرّكيْن أكتافنا ، مسنداً إحدى كتفيه على كتفي مع ميلانه بشيء من العرج إلى جهتي . قطعنا نصف السطح دبكاً بدائياً ثم توقف . رفع عينيه إلى سماء قمعتْ نجومها في الأعلى ، ثم نظر إليّ كأنه يتفكّر في كلام كثير رتّبه لهذه اللحظة قبل أن يقول :

«سامحيني!» ثم عاد إلى جلسته، متزملاً بالصمت، طاوياً مشاعره على نفسه. جلستُ إلى جانبه فيما كانت الموسيقى الضاجّة في الأسفل تبلغ نهاياتها، أشعلتُ سيجارة لي وله، ندخن منكّسيْ الظهر والنفْس. كان أبي رجلاً وحيداً ومهزوماً، وأنا كنتُ - دون أن يعرف أبي ربما - امرأة مهزومة أكثر.

يوم وقعت عيني على الإعلان في إحدى الصحف المحليّة، عرفتُ أن الوقت جاء، كي أنتقل من غياب إلى غياب، ومن رحيل لآخر. مدرسة دولية في دبي بحاجة إلى مدرِّسات في كل التخصصات يجدن اللغة الإنجليزية، برواتب ومزايا مغرية. تكدّرت مريم لأني سأتركها، ملكةً وحيدةً في المدرسة تناكف المعلمات وتنكد عيش «عيوش» بمفردها. حاولت مريم أن تقنعني أن أجرّ ما تبقى من سني خدمتي حتى التقاعد ثم أستطيع أن أسافر للعمل في أي مكان. كانت مريم تعرف تماماً أن الأمر لم يكن له علاقة بالعمل. كنتُ أريد، كما مثلها، أن أهرب. أنا هربتُ وهي ظلت تعاين الفكرة. علاقتي بمريم كانت قد ترقّت إلى ما يشبه الصداقة، فكانت ترافقني أحياناً بعد الدوام إلى السوق، وكانت تزورني مع أطفالها، الذين ظلوا على عددهم نفسه كما عرفتُها أول مرة، بعدما صارت تأخذ حبوب منع الحمل سراً عن زوجها، وسط ارتياب حماتها من تأخر حملها، وهو ما يعني تضاؤل فرص مساواة عدد الذكور بالإناث. وقد تترك مريم صغارها عند حماتها بحجة اضطرارها للذهاب إلى عمّان لمراجعة طبيب نسائية، فنأكل البوظة في

الشـميـسـاني ونذهب إلى السـينمـا ، وفي طريق العـودة ليـلاً أساعـدها على تركـيب حكاية مقنعـة لحماتـها وزوجـهـا لتبرير سبب تأخّـرها في عـمـان ، ولا تبـدو مـريم مـعنيـة بالـبـحث عن كـذبة ، إذ تظل طوال الطريق من عـمّـان إلى الـزرقـاء ، المكتظة بهـمـوم إنسـانيـة ثقيلة عطنة ومعـهـا حلمـان فـائران اثنان على الأقل همـا لنا ، هائمـة في جـلال الحب ، مـتـيّـمـة بالمعنى ، متخمة بالمجاز ، متماهية مع الحبيبة في فيلم «قلب شجاع» . لكن مـحـبوبة القلب الشجـاع مـاتت في أول الفـيلم ، أنبّـهـهـا . تسـحـب مـريم عـينيـهـا من إسـفلت الشـارع الذي لا تريده أن يسرع ، وتنظر إلي شبه غائبة ، ثم تقول :

ـ مش مهم!

مريم كـانت تعـتـقـد أن أحـمـد ، والـدك ، أحبني بطريقـة من الطرق . الرجل ، كما تحاول أن تفهمه ، لا يختار امرأة فقط لأن رجلاً آخر سبقه إليها . وكان يمكن جداً كما خلصتْ مريم أن أحبه ؛ مشكلته أنه جاء في الوقت الغلط . «حـبيـتي أبوي؟!» سـألتِني مرة من وسط مذاكـرتك . كنتِ تخطين بقلق وتخبط نحو عـمرك السادس عشر ، مرتطمـة بأسئلة كـثيرة وتساؤلات ظلت مـعلقـة على حـبال البـحث والشك . «حـاولت أحبّـه» ، أجـبـتُـك ، لكنـه لـم يمنحني الوقت ، لا الصـحـيح منه ولا الغلط .

ـ وأنا؟ أبوي حبْني؟ حاول يحبْني؟!

لم تفـهـمي لماذا لم يحـاول أبوك أن يسـأل عنك كل هذه

السنوات ، أن يفتش عن شيء منه ، مبعثر في أراض يعرف كيف يصل إليها إذا أراد أن يصل . هل مات؟ تسألين بصيغة التمنّي الخفي ، ذلك أن الموت يرفع الحظر ، والكثير من الحرج ، عن الذين يهجروننا ، ويجعلنا نعتقد أنهم أحبونا كما لا يستطيع حيٌّ أن يحبنا . أنا كذلك لم أفهم لماذا لم يحاول أن يجدك ، لكنني لم أُعمل نفسي وقلبي كي أفهم . في كل يوم هو لا يبحث ، أنا أجد . . أجد نفسي وأجدك أكثر ، وما يهم حقاً أنني قد لا أحبّ نفسي كثيراً ، لكنني أحبك والله أكثر .

بعد شهور من زواجي ، رحل إياس . ترك جامعة الكويت وعاد مع أسرته إلى جامعته وحياته في بريطانيا . كنتُ أتلقف أخباره عن بُعد ، آخرها من أحمد الذي حمل إلي نبأ سفره بصيغة شامتة ، يقتفي تأثير الخبر في تبدُّل قسمات وجهي . ثم جاءني صوت إياس . كنا نحزم أغراضنا في شقّتنا في النقرة للانتقال إلى الشقة الجديدة في الفروانية ، حين ردّت أمي على الهاتف ، ونادت عليّ : «واحد بقول اسمه إياس سليمان بسأل عنك!» كانت تلك أول مرة ألتقيه ، صوتاً ، منذ انفصالنا المؤلم في لقاء السيارة الغابر . كان بعيداً ، أبعد من الحقيقة أنه في بريطانيا ، لكن وقع صوته عليّ كان أقرب من أي شيء آخر . كان قد علم بشأن طلاقي . لم أسأله كيف عرف . «إنتِ بخير؟!» سألني بين صمت وصمت أطول . «أنا بخير!» أجبتُه ، ثم أعطيتُه رقم هاتف شقتنا الجديدة . أليس هذا أستاذك الذي كان يدرسك في الجامعة؟ سألتني أمي بفضول ، فلبستُ صوتاً

محايداً وبعض الكذب وأنا أشرح لها أنه تفاجأ بنبأ طلاقي ، لأنه كانت تربطه زمالة بأحمد ، معتقداً أنه يستطيع أن يتدخل لإصلاح الأمر . «والله فيه الخير!» قالت أمي ، غير خافية رغبتها في تضميد جراح طلاقي ، التي صارت جراحها ، والعودة إلى زوجي . لم أحاول أن أشرح لأمي أن زواجي كان نزيفاً متصلاً .

في أيامي الأخيرة في الكويت ، اتصل . كان صوته أبعد ، أقل تلوناً وتنغماً ، كسمة تجعل الصوت حياً . استحسن فكرة مغادرتي الكويت . قال لي إنه بدأ العمل فعلياً على مسرحة قصتي . استبقى عنواني الأصلي لها : «نقاش موضوعي» . ثم سألني عن عنواني في الأردن فأعطيته رقم هاتف بيت جدتي رضيّة . بعد أكثر من عامين ، حاولتْ جدتي رضيّة أن تتذكر اسم الرجل الذي اتصل يسأل عني واثقة أنه يشبه «شي» سليمان! أعطته رقم هاتفنا في الجبل الأبيض ، وأكد أنه سيتصل بي لاحقاً . ظللتُ أنتظره أكثر من أسبوع ، وحين بلغني صوته لم أميزه . كان جد راحلاً . «إنتَ بخير؟!» سألتُه ، فلم يجبني . مسرحيتنا ، كما أشار إليها ، قُدمت على خشبة أحد المسارح في لندن ضمن مهرجان للمسرح العربي ، وسوف تقوم بجولة في عدد من المدن في بريطانيا ، وبعد ثلاثة شهور ، ستشارك في أيام مسرحية تستضيفها عمّان ومدن عربية أخرى . أخبرته أني قرأتُ مراجعة نقدية إيجابية لها في صحيفة عربية ، فلم يعلق . ثم طلب رقم حسابي المصرفي ،

كي يحوّل لي مبلغاً من المال مكافأتي «المتواضعة» ، كما قال بطريقته الملازمة لروحه - حتى وإن تغير صوته - إذ لا يناسبه التواضع . حين علمتْ أمي أن المكافأة «المتواضعة» قريب الألفي دينار ، لم تصدق أنها أخيراً ستحقّق حلمها ؛ إذ قررت توسيع البيت ببناء غرفة جديدة وكبيرة تكون صالوناً للضيوف ، بدل الصالون الذي حولناه غرفة نوم ، بحيث تمتدّ من غرفة المعيشة وتُستقطع مساحتها من جانب من الجزء الخلفي غير المستغلّ من الحديقة . لم أناقش أمي في مخططاتها التي رسمتها بيديها في هواء رحب ؛ انسحبتُ إلى سريري أزرع دمعاتي على الوسادة وردات ذابلات سلفاً . أحسستُ أن ذلك قد يكون آخر لقاء صوتي بيني وبينه ، إذ أنهاه بـ«بحبِّك» .

أخذتُ مريم معي لحضور المسرحية في المركز الثقافي الملكي في عمّان . مريم تعتقد أن إياس كان أنانياً ، إذ رهنني له كل هذه السنوات . فهو تركني لكنه لم يحررني . في زمنه وجغرافيته البعيدين عني حزر أني قد أتحرر منه فاتصل ليترك آثار صوته على جسمي ، كلحم رجل حقيقي محسوس يظل ملمسه ورائحته ملتصقين بجسم امرأة فترة تكفي لإقصاء ذكور فصيلته عنها . كنتُ قد التقيتُ مُعين في أمسية قراءات قصيصة في مقهى ثقافي في عمان ، باحث في مؤسسة معنية بتوثيق التراث المعنوي ، وقاص بالشغف . التقينا بعد الأمسية عدة مرات ، وفي كل مرة كنتُ أضحك ، والرجل الذي يجعل المرأة تضحك هو محب ، وأكثر من ذلك أنه قابل لأن يُحبّ .

كان معين يستطيع جداً أن يكمل جملي المقطوعة ، وكنتُ أستطيع جداً أن أجد له الكلمة التي خانته أو أفلتت من تعبيراته . كان من المقرر أن ألتقي معين على قهوة مختلفة تلك الليلة ، ولعل قهوتنا معاً كانت سترسم طريقاً آخر لي في الحياة ، وربما الحب . ثم جاء صوت إياس ، دلق القهوة على ملابسي ، خضّ روحي ، فتركتُ معين ينتظر ، يتحقّق من ساعته ، ولم أصل في الموعد أو في أي موعد آخر . انتظرني معين أياماً وأسابيع ودهوراً دون أن ألوح ، وحين خفت رائحة إياس من لحمي ومن روحي كان معين قد غادر طاولتنا منذ وقت ليس قصيراً .

بكت مريم وهي تسمع المرأة قبالتها ، تحت إنارة الغرفة المسرحية الخافتة تقول لزوجها الميت ، غير الميت ، المدد على السرير : «فقط لو أنك عرفت كم كرهتُك!» وتنهدت بشيء من الانتصار ، إذ تيقنت مريم أن الزوج الميت ، غير الميت ، تأكد من كراهية امرأته له التي نفذت إلى قلبه فقتلته كما يجب . التقيتُ المخرج بعد انتهاء العرض ، فرحب بي وأبدى إعجاباً بالعمل الذي استفز كل طاقاته ، كما قال ، ليخرجه بالرؤية التي أرادها إياس . سألته عن إياس ولماذا لم يحضر . نظر إلي مستغرباً ، وقال ببعض التردد :

- إنتِ عارفة طبعاً . . إياس تعبان!

لم أفهم ماذا يقصد بـ«تعبان» . أهو مريض؟ سألتُه . حاول أن يتهرّب من الإجابة عن سؤالي ، لكن عيني استحلفتاه

ليتكلم ، فاقترب مني كي لا يسمعه جمع البشر ، وقال إن إياس منذ مدة يعاني اكتئاباً حاداً وأن الأمور تطورت لديه على نحو لم يعد يخرج معه من البيت إلا لماماً ، بل هو لا يتكلم مع أحد ، وشبه معزول عن العالم . اعتقد المخرج أنني على علم بالموضوع بما أنني شاركتُ إياس كتابة المسرحية . لكن المخرج في النهاية بدا متفائلاً بعمل مسرحي جديد يعمل إياس عليه ، آملا بأن يفرغ منه قبل أن يسوء وضعه أكثر . في الطريق من عمان إلى الزرقاء جلسنا ، مريم وأنا ، في الحافلة ساهمتين . عيناها الزرقاوان ، اللتان حادتا عني ، لم تشفيا من احمرارهما ، فيما تركتُ عيني تلتصقان بالشارع الذي تسحقه أقدام السيارات المسرعة بقسوة . قبل دقائق من وصولنا ، طلبت مريم مني أن أختلق لها عذراً تقدمه لحماتها وزوجها عن سبب تأخرها . وودعتْني باكية . بعد أقل من عام ، أفردت الصفحات الثقافية في بعض الجرائد مساحة للحديث عن المسرحي المبدع إياس سليمان ، الذي رحل في الخمسين من عمره في عز عطائه .

لم يكن عملي في المدرسة الدولية مريحاً تماماً ، لكنه كان مجزياً . اشتريتُ سيارة هوندا مستعملة دون استنزاف ، واستأجرتُ شقة بغرفتي نوم ، لي ولك ، وغرفة معيشة واسعة . . مكرسة كالعادة لكل الاستخدامات العاطفية والتاريخية المحتملة ، وإن مططْتُ هذه الاستخدامات عبر تخصيص مساحة وافية لتكون غرفة مكتب ، بخزائن أرفف

على طول جدار ، مع طاولة من الخشب المعتق للكتابة وجهاز كمبيوتر ، وساتر خشبي صيني التصميم يفصل مساحة المكتب جزئياً عن بقية غرفة المعيشة . لم تصدقي نفسك أنك ستنامين في غرفة وحدك ، وأن أحداً لن يشاركك فيها . لكن بعد وقت ، تقتِ للكثرة التي خلفناها وراءنا ، ثم صرتِ في أيام كثيرة تتسحبين من فراشك إلى فراشي ، ترمين ذراعك فوقي ، وساقاك اللتان كانتا تتمددان وتتفرع فيهما الاشتياقات تزيحان اللحاف عني وعنك . سجلتكِ معي في مدرستي ، فطلبتِ مني ألا أسأل عنكِ وألا أحاول أن ألعب دور الأم هناك ، فسمعتُ وطعتُ يا مولاتي . حين توليتُ الإشراف على النادي الثقافي في المدرسة ، رفعتْ عني إدارة المدرسة بعض العبء التدريسي ، ثم إذ أشرفتُ على مسابقة للقصة القصيرة للطلاب على مستوى المدارس الخاصة نلنا فيها المراتب الثلاثة الأولى ، رُقيتُ إلى رئيسة قسم اللغة الإنجليزية ، إلى جانب إدارة النادي الثقافي . من وقت لآخر ، أسافر للمشاركة في ندوة قصصية أو مؤتمر أدبي ، وهو أمر تتساهل إدارة المدرسة فيه معي ، وتيسّره لي .

لم أعش في بحبوحة فارقة ، والحياة الغزيرة المتطلبة في الجبل الأبيض لحقتني ، وبإلحاح أكبر . في الصيف نحجّ ، أنتِ وأنا ، إلى هناك لزاماً ، فتعبّين من الكثرة المفتَقَدة زادك النفسي الذي تسدين به جوعك العاطفي جزئياً في شهور القحط البشري بقية العام ، بينما أسعى إلى التحصّن بوحدتي

المستجدّة في الأرض الجديدة كي لا تنقضّ عليّ الكثرة البشرية ثانية ، لكنّني لا أنجح في ذلك تماماً . تصديتُ ، مضطرة ، لنفقات الزيجات المتتالية المرهقة . لم أتدخل في زيجة أي من أشقائي أو شقيقاتي ، ولم تكن لي كلمة أو رأي خلافي يمكن أن يلغي الموضوع أو يشجعه ، وخياراتهم وإن استوقفتني مجازياً ، إلا أنها من حيث المعنى استُدعيتْ قدرياً لهم ، ولعلّهم لم يستحقوا غيرها . زيجة واحدة فقط تدخلتُ فيها ، هي زيجة رشا ، حيث جاهدتُ لإبطالها ، وكما هو متوقع فشلت . كان العريس شقيق عبدالرحمن ، زوج رولى . كان أول ما فعله عبدالرحمن بعد زواجه برولى أن جعلها تترك وظيفتها كموظفة إدارية في مستشفى خاص بحجة الاختلاط ، ثم فرض عليها حجاباً أكثر صرامة ، ثم جعلها تتنقب ، وهو أمر وإن ضايقنا وأغضبنا ، خاصة أبي الذي صار يصف رولى كلما جاءتنا بـ«الغراب» ، إلا أنه لم يفاجئنا ، فعبدالرحمن فرض علينا حفل زفاف إسلامياً ، اقتصرت فيه الموسيقى الحية على الدف ، فيما شقيقاته يرددن أناشيد دينية مركبة على ألحان دارجة ، بعضها رقيعة ، من نوع : «ياللا بينا ياللا . . على الإيمان ياللا . . نفرح ونقول . . يا ما شاء الله»! ثم صار لا يصافح أيدينا الممدودة له ، نحن شقيقاتها ، إذ صنّفنا في باب الحُرمة المؤقتة ، ونبذ مناداتها باسمها المائع مصراً على تكنيتها بأم طلحة ، نسبة إلى ولدهما الأكبر . كانت رشا قد تخرجت للتو من جامعة خاصة ببكالوريوس تجارة . اقترحتُ عليها أن تأتي عندي إلى

دبي ، فتعمل هناك وتختبر حياة مختلفة ، قد تحبها ، لكنها رفضت . طلبتُ منها أن تصرف النظر عن موضوع الزواج في الوقت الراهن ، فهي جميلة ، أجملنا ، وصغيرة ، إذ أتمت عامها الثاني والعشرين حديثاً ، ونصيب أفضل سيطرق باب عمرها الأخضر ، فقدمت لي قائمة ببنات العائلة والجيران ممن تزوجن أصغر منها ، واثقة أن العرسان لا يحبون البنات كبيرات السن . حسناً ، فليكن إذن أي نسب إلا النسب ذاك ، فسيما الظلام في وجوه عائلة عبدالرحمن كلها . ظلت رشا على تعنّتها ؛ عندئذ قبضتُ على ذراعيها ، وهززتها قائلة :

ـ مش قادرة أصدق . . كبّرناكِ وعلّمناكِ علشان يكون تفكيرك هيك؟

ـ مش لازم كل الناس يكون تفكيرهم زي تفكيرك .

ـ ما بدي تكوني متلي . . كوني متل ما لازم تكوني! متل ما لازم أي بني آدم حر يكون .

ـ هذا قراري وأنا حرة فيه .

ـ لأ . . مش قرارك وحدك . . أنا برفض!

نفضت ذراعيها من قبضتي بقوة وابتعدت عني صارخة :

ـ إنتِ مش وليّة أمري!

نزلتْ يد أمي على وجهها ، فهرعتْ عمتي نجاح على دوي الصفعة تفزع بيننا . عمّ غرف البيت صراخ تشنّجي وبكاء شبيه بالولولة . في الليل ، طلع أبي إلى السطح ، إلى حيث انزويتُ وحدي . أشعل لي سيجارة ، دخنا صامتين ، ثم نظر

إلي وسألني: «كيفَكْ يابا يا جهاد؟» ضحكت. ضحكتُ كثيراً، قلبي وجعني من الضحك. ثم بكيت فوجعني قلبي من البكاء أقل. تعانقنا طويلاً.

بعد يومين، أعطيتُ أمي مبلغاً من المال، طلبتُ منها أن تشتري سواراً من الذهب، كي ينقط به أبي رشا يوم عرسها. قطعتُ إجازتي ورجعتُ إلى دبي.

قد لا نملك يا ملكة أمرنا في الحب، لكننا نملك أن نصنعه. قبل عامين، بعد أيام من رحيلك الأول، وصلني إيميل عَقَد قلبي من المفاجأة. اعتذر كاتبه في البداية على تطفله عليّ، ثم وضّح لي أنه حصل على إيميلي من دار النشر التي تتولى كتبي. قال لي إنه قادم مع فرقته المسرحية إلى دبي خلال شهر من تاريخه، لتقديم آخر عمل مسرحي للراحل إياس سليمان ضمن مهرجان المسرح العالمي، وأنه يرغب في أن أحضر العرض الأول للعمل. كان التوقيع باسم طارق إياس سليمان. في منتصف ثلاثيناته، كان طارق يشبه أباه جداً، لكنه أقل لؤماً. ابتسم لملاحظتي قائلاً: «واضح إنك عرفتيه منيح!» يدير طارق فرقة مسرحية أسسها قبل سنوات تتولى تقديم أعمال والده إلى جانب الأعمال التي يكتبها المسرحيون العرب في لندن وأوروبا. كان إياس قد وضع عمله الأخير قبل نحو عام من رحيله، لكن الفرصة لم تتح لترجمته على خشبة المسرح، بسبب الكلفة الإنتاجية العالية للمسرحية، كما فهمتُ من طارق. سألتُه عن اسم المسرحية، ففتح حقيبة جلدية ذكرتْني بحقيبتي الجامعية ثم أخرج مخطوطاً

مجلداً بغطاء شفاف ووضعه أمامي . «ج» كبيرة بخطّه الذي أعرفه مغمضة استشرتْ على طول غلاف المخطوط . لمست أصابعي حافة الحرف فارتجفتُ . تركني طارق لمشاعري بعض الوقت ، ثم قال :

ـ المسرحية مهداة لإلك .

ـ وكيف عرفت إنّو جيم أنا؟

ـ أنا مش كتير شاطر . . بس أبوي كان كتير واضح .

فتح طارق الغلاف ، وجعلني أقرأ الإهداء أعلى الصفحة الأولى : «إلى جهاد نعيم وفقط» . على طاولة صغيرة في الكوفي شوب الملحق بالفندق الذي كان طارق ينزل فيه ، هجمتْ مشاعري علي ، فانسكب بعض الماء على بنطلوني . أكد لي طارق أن والده لم يمت حزيناً ، كما يعتقد كثير من الناس ، ووعدني بأن يعطيني المخطوط ، لكن بعد أن أشاهد المسرحية .

أقطع الطرقات في بيتي ، وطني المحبوك من رائحة قهوة متكررة وفتات خبز محروق والمستقطعِ من أرض خارج الأراضي وخارج البلاد ، حتى وإن كانت أرضاً معلقة في الطابق الثامن . بطرف كُم بيجامتي أمسح زجاج صورتك في البرواز على طاولة التلفزيون . أجمع الأوراق المتناثرة على المكتب وأضعها مكانها في الأدراج . أفتح الدرج الأخير ، فيحدق بي المخطوط ويمتحن صبري قبل أن أحمله أخيراً ، أمر بأصابعي على الشوق المعتمِل في الخط النزق ، المتعجرف ، اللئيم ، والمتغلغل جداً .

في النهاية ، تقف جيم في منتصف خشبة المسرح ، وتقرر أن تجرب كل شيء لتصبح جميلة ، فتشم جوريّة ، وقد تسد أنفها بسبب رائحة جيفة ؛ تمسك جمرة مرة ، وجوهرة مرة أخرى ؛ تعود جنيناً ، ويصفق الناس إذ تنكمش الممثلة البارعة الضئيلة على نفسها فلا يزيد طولها على ذراع ، ثم تتشكّل على شكل كائن يشبه جملاً يسير منكسراً ؛ تضع ساقاً في الجنة وتمدّ أخرى في جهنم ، فتشتعل أرض المسرح بنار تبدو حقيقة تنذر بأن تلتهم البطلة ، ثم تنشقّ أرض المسرح عن أرض أصغر ترتفع تدريجياً إلى أعلى ، جبلاً تقف جيم فوقه ، وبمصاحبة موسيقى تشارف الصعود يتفتق من ظهر جيم جناحان ، يكبران ، يُفردان ، فيفترشان سماء المسرح . كأن البطلة تبدلت ، فالفتاة العادية ، العادية جداً ، تحوّلتْ إلى امرأة جميلة ، ترتدي فستاناً بلون بحر ليلي غافٍ وجناحين بلون الهواء . وحين تطير من فوق الجبل فتهبط على الأرض ، تخلع جيم فستانها وتطوي جناحيها ، وتعود إلى الفتاة الأولى ، لكن أكثر سعادة . . امرأة أكثر جمالاً ، حياة أكثر اكتمالاً . لم أقف مع جمهور المسرح الذي صفق طويلاً في ختام العرض . فقد تبلل جناحاي من البكاء ، فثقلا .

أرجع المخطوط إلى مكانه الآمن في درج المكتب ، في وطني الشخصي ، وأطفئ الأنوار . أذهب إلى غرفة نومك . أسحب «خفة الكائن التي لا تحتمل» ، روايتك الأثيرة ، من أحد أرفف مكتبتك . أقلب الصفحات ، قلمك وضع خطوطاً

تحت جمل كثيرة . أغلق الرواية وأرجعها مكانها ، فأنت لا تحبين أن أسترق النظر إلى أفكارك . أجلس على طرف سريرك . أدفن أنفي في وسادتك . أبحث عن عرقك . لم تشائي أن تكبري أكثر معي ، برفقتي . عرضتُ عليك الالتحاق بالجامعة الأميركية في دبي أو الجامعة الأميركية في الشارقة ، لكنك أصررتِ على الدراسة في بريطانيا . «ليش بريطانيا؟» سألتُك . «وليش مش بريطانيا؟» أجبتِني . «وأنا؟ راح تخليني وحدي؟!» سألتُك . «راح أخليك في قلبي» ، أجبتِني بعينين تسبقانك إلى وطن شخصي ينتظرك وحياة . . تسقينها بحزنك قبل فرحك ، وحب قد يُغزل ببعض الهجر وغدر الطريق . . لا بأس .

في غرفتي ، أستلقي على سريري ، أفرد جناحيّ فوقي ، لحافاً وافياً دافئاً ، وأرتخي . . مستسلمةً للنعاس .

BEFORE THE QUEEN FALLS ASLEEP





قبل أن تنام الملكة

• حتّى إذا أدركنا الليل وأوت الأحزان إلى مخادعها، أتيتِ إليّ حافيةً وقد هطل نصف شعركِ على وجهكِ تفوحُ منه رائحة عرَق طازج، من أحلام يقظتكِ المتهوّرة، وبقايا شوكولاته تتلمّظينها في فمكِ دون كبير شعور بالذنب لأنّكِ خنتِ حميّتكِ الغذائيّة الهشّة، وخبز محمّص حدّ الاحتراق فتافيته ترشم بلوزةَ بيجامتكِ. تندسّين في السرير إلى جواري. تتشمّمين ذراعي العارية. تقولين إنك تحبّين رائحة لحمي. تقولين إنّك تفتّشين عنها، أو ما يشبهها، في مدينتكِ البعيدة، فلا تجدينها. تغرسين أنفكِ في عنقي قائلةً:

ـ إحكيلي حكايتك!

ISBN 978-9953-36-175-4



